النثر الفني

في النقد العربي

(فن الكتابة)

الدكتور
محمد خير شيخ موسى

الناشر
مكتبة ابن كثير - الكويت

الطبعة الأولى
١٩٩٧


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

النثر الفني

في النقد العربي

(فن الكتابة)

الدكتور
محمد خير شيخ موسى

الناشر
مكتبة ابن كثير - الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

النثر الفني في النقد العربي

د. محمد خير شيخ موسى

الطبعة الأولى
الكويت -١٩٩٧



الكويت - حولي: 32012 - ص.ب: ١١٠٦
تلفون: ٢٦٣١٢٩٨ - فاكس: ٢٦٥٧٠٤٦

النثر الفني في النقد العربي

الدكتور
محمد خير شيخ موسى

الإهـــــداء

إلى روح أمير البيان العربي
أبي عثمان عمرو بن بحر
الجاحـــظ

النثر الفني في النقد العربي

مقدمة

تمهيد : نشأة الكتابة العربية وتطورها حتى القرن الرابع الهجري

الباب الأول
الكتابة والكتاب في النقد العربي

الفصل الأول : الكتابة في النقد الشفوي والنقد المدون .
الفصل الثاني : اساليب نقد الكتابة .
الفصل الثالث : نقد الكتاب والمترسلين .

الباب الثاني
قضايا نقد الكتابة

الفصل الأول : الكتابة العربية والثقافة الأجنبية .
الفصل الثاني : سرقات الكتاب .
الفصل الثالث : النقد التوثيقي .

مقـــدمـــــة

تحفل مكتبة الدراسات النقدية بعدد كبير جدا" من الكتب التي تتناول النقد العربي القديم وتبحث في تاريخه وأعلامه وآثاره واتجاهاته وقضاياه ، وغير ذلك مما يدور في هذه الكتب الكثيرة من دراسات وأبحاث يتصل معظمها بنقد الشعر ، ولا تكاد تتعداه إلى النثر إلا لماما ، حتي ليخيل للمرء أن العرب لم يعرفوا من فنون القول سوى الشعر ، أو أن النقاد العرب القدماء لم يهتموا بغيره ، وليس لواحد من هذين الأمرين في تاريخنا الأدبي والنقدي ما يسوغه.

فللعرب – منذ أن ظهروا على صفحات التاريخ الأدبي – فنون مختلفة من النثر: كالأسجاع والمنافرات والأمثال والحكم والوصايا والقصص والخطب والرسائل وغيرها من ألوان النثر الفني التي واكبت الشعر في نشأتها وتطورها ، وكان لها في كتب النقاد العرب القدماء أصداء كثيرة ، فتناولوا بعض هذه الفنون بالنقد في كتب مفردة ، وجعلوا بعض كتبهم النقدية شركة بين الشعر والنثر وكانت لهم في ذلك جهود كبيرة ، وآراء كثيرة .

ويعد فن الكتابة والترسل من أهم الفنون التي أولاها النقاد العرب القدماء عناية كبيرة ، فخصوه بكتب كثيرة ، وأفردوا له في كتبهم النقدية أو الأدبية صفحات طويلة ، وتناولوا في أثناء ذلك حدوده وأنواعه ، وأصوله وقواعده ورسومه، ولغته وأساليبه ، وصفات أربابه وثقافاتهم والموازنة بينهم ، وسرقاتهم وأثر الثقافات الأجنبية في كتبهم ورسائلهم ، وتوثيق هذه الكتب والرسائل ، وغير ذلك مما تناولوا في نقد هذا الفن الأدبي من فنون النثر العربي .

وقد أتينا في هذا البحث على عرض آرائهم المختلفة في هذا الفن وتحليلها في بابين رئيسيين ، ومهدنا لهما بحديث موسع تناولنا فيه نشأة الكتابة العربية وتطورها حتى القرن الرابع الهجري ، وانتقلنا في الباب الأول إلى دراسة الحركة النقدية حول الكتابة والكتاب في ثلاثة فصول متواشجة ، أتينا في أولها على عرض

أهم الآراء الشفوية والانطباعية في هذا الفن وتحليلها ، ثم قدمنا قائمة واسعة تشتمل على عدد كبير جدا" من الكتب المؤلفة في الكتابة والكتاب حتى مطلع القرن الخامس الهجري ، وقمنا بوصف بعض ما فقد منها ، في حدود ما بين أيدينا حوله من نقول وأخبار ، وتحليل أهم ما وصل إلينا من هذه الكتب أو الرسائل ، وانتقلنا في الفصل الثاني إلى أساليب النقاد العرب في نقد الكتابة ، فتناولنا حد الترسل والكتابة ومفاهيمهما عندهم ، ومقاييسهم المختلفة في التمييز بين أنواعها ، وآراءهم المتباينة في أصولها ورسومها وقواعدها ولغتها وأساليبها ، وانتقلنا في الفصل الثالث إلى نقد الكتاب والمترسلين ، فعرضنا آراء النقاد في صفات الكتاب وثقافاتهم وآدابهم ، وكشفنا عن أسباب اهتمامهم بهذه الجوانب ، وكثرة تآليفهم فيها ، وختمنا هذا الفصل بالحديث عن آثار النقد الشخصي في آراء بعض نقاد هذا الفن ، ومعاييرهم في الموازنة بين أربابه .

وخصصنا الباب الثاني لدراسة أهم القضايا المتصلة بنقد الكتابة في ثلاثة فصول ، تناولنا في أولها قضية أثر بعض الثقافات الأجنبية كالفارسية والهندية واليونانية في الكتابة العربية ونقدها ، ووقفنا في الفصل الثاني عند مسألة سرقات الكتاب والمترسلين ، وختمنا هذا الباب بالحديث عن توثيق النصوص النثرية ، وآراء النقاد المختلفة في أسباب ضياعها ونحلها ، وأساليبهم المتباينة في توثيقها وتصحيحها ، وحاولنا في أثناء ذلك كله الكشف عن بعض الجوانب الخفية في نقدنا العربي القديم، وما يتصل منه بنقد النثر وفنونه خاصة ، وكل فن منها يحتاج إلى بحث موسع ومستقل يتناول آراء النقاد فيه بالدرس المفصل والتحليل الدقيق ، وفي ذلك ما يمكن أن يسهم في دراسة تراثنا النقدي الأصيل دراسة وافية لا تقتصر على جانب واحد منه فحسب ، وإنما تشمل نقد الشعر ونقد النثر في آن واحد .

والله ولي التوفيق .

محمد خير شيخ موسى
الكويت ١ / ٩/ ١٩٩٦

تـمـهـيـد

نشـاة الكتابة العربية وتطورها حتى القرن الرابع الهجري

- الكتابة في الجاهلية
- الكتابة ونشـأة الدواوين في الإسـلام
- تطور الكتابة في العصر الأموي
- فن الترسل والكتابة في العصر العباسي



تمهيد
نشأة الكتابة العربية وتطورها حتى القرن الرابع الهجري

الكتابة في الجاهلية :

ترتبط نشأة فن الكتابة والترسل لدى أمة ما بمعرفة أبنائها بالخط والكتابة، ووفرة وسائلها وأدواتها في بيئاتهم ، ورقي الحضارة والعمران فيها ، وبناء الدول والممالك وتنظيمها ، وتلك أمور لم يكن للعرب منها في الجاهلية المعروفة حظ كبير أو نصيب ، إذ كان أكثرهم بداة متنقلين ، ينتجعون الكلأ ، ويقصدون موارد المياه ، ويبحثون عن مصادر العيش ، على الرغم من وجود بعض القرى والحواضر في جزيرتهم ، وتأسيس بعض الممالك في أطرافها .

ومما لا شك فيه أنهم قد عرفوا الكتابة والقراءة (١) ، وإن لم تكن فاشية فيهم، لقلة حاجتهم إليها ، وندرة وسائلها وأدواتها ، فكانوا يعمدون إلى نظم رسائلهم شعرا" كيما يسهل حفظها ونقلها (٢) أو يضمنونها صدور أبنائهم شفاها فيحفظونها وينقلونها ، شأنها في ذلك شأن معظم آثارهم وأخبارهم وآدابهم ، وقد تنبه

---

(١) انظر في ذلك : مصادر الشعر الجاهلي ٢٣ - ٥٨ والفن ومذاهبه في النثر العربي١٧-٢٠ وبروكلمان١/٣٦-٦٥وتاريخ التراث العربي ١/٢/٩ وما بعدها .

(٢) وقد اعتاد العرب المراسلة بالشعر منذ الجاهلية ، وتحفل دواوين الشعراء وكتب الأدب والأخبار بعدد كبير من رسائلهم الشعرية في مختلف العصور : انظر مثلا جمهرة رسائل العرب ١/٢-٢٤ (رسائل جاهلية) والأغاني١٠/١٦٣ (رسائل علية بنت المهدي) و١٨/١٦٠-١٦٥(رسائل فضل الشاعرة وسعيد بن حميد) و٢٢/١٧١-١٧٥ (رسائل عريب وابن المدبر).والإماء الشواعر ٥٢-٥٥ (بين فضل وسعيد) ، و ١١٨-١٢٠ (بين المتوكل ومحبوبة) . ويتيمة الدهر ٣/١٦٦-١٧٥ " ما أخرج من المكاتبات بالشعر بين ابن العميد وابن خلاد "، و ٢/٢٠٢-٢٠٥ (بين الشريف الرضي وأبي اسحق الصابى).والكامل للمبرد١/٢٧٤ (من الأشعث بن قيس إلى عبد الملك بن مروان والرد عليها).وفي شعرعمر بن أبي ربيعة رسائل شعرية كثيرة إلى محبوباته وانظرفي ذلك تطور الغزل ٤٩٦-٤٩٩ . وربط بعض الدارسين مصطلح القصيدة العربية وبنائها بالرسالة ، مقالة باروسلاف "القصيدة الكلاسيكية والأوجه البلاغية للرسالة " مجلة النقد الأدبي - فصول - مج ٦-ع١ س ١٩٨٥ - ص٧١-٧٨ .

الجاحظ إلى ذلك في أثناء حديثه عن الخط والكتابة ، وأساليب الأمم في تخليد آثارها فقال : وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها(١) .

ولذلك فقد انحصرت كتابة الرسائل المنثورة بملوكهم وسادتهم وبعض تجارهم وأدبائهم ، ومعظمهم من أهل تلك القرى والحواضر والممالك ، فذكروا أن الشاعر المرقش كان يكتب للملك الحارث بن أبي شمر الغساني(٢) وأن عدي بن زيد " كان يلي المكاتبة عن الملك كسرى إلى ملوك العرب "(٣) وأن أكثم بن صيفي كان له كتاب يكتبون له إلى الملوك في بعض شؤونه وشؤون قبيلته(٤) .

وقد وصل إلينا عدد قليل من رسائل أهل الجاهلية المروية ، كرسالة المنذر ابن ماء السماء إلى كسرى يصف فيها جارية أهداها إليه (٥) ، وكتاب أكثم بن صيفي إلى طيء (٦) ، ورسالته إلى النعمان بن خبيصة البارقي (٧) ، ورسالة حنظلة ابن أبي سفيان إلى أبيه يخبره فيها بظهور محمد (ص) (٨) ، وغيرها من الرسائل الجاهلية التي لا نستطيع الاعتماد على كثير منها للوقوف على صور الترسل والكتابة وأساليبها ورسومها في ذلك العصر ، لقلتها وتأخر زمن تدوينها ، والاعتماد في ذلك على الرواية الشفوية ، وإن كانت هنالك بعض الرسائل التى يمكن أن نثق بصحة نقلها وروايتها لقصرها وشهرتها وارتباطها ببعض الأحداث المهمة ، كرسالة الملك عمرو بن هند إلى المكعبر عامله على البحرين وفيها يقول : " باسمك اللهم : من عمرو بن هند إلى المكعبر . أما بعد ، فإذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيا" " (٩) وقد اطلع هذا الشاعر على مضمونها فنجا من القتل ،

---

(١) الحيوان ٧٢/١
(٢) كتاب الصناعتين ٤٦٠
(٣) الأغاني ١٢٢/٢
(٤) كتاب الصناعتين ٤٦٠
(٦-٧) ن٠م ١٩/١-٢١
(٨) الأغاني ٣٥٠/٦
(٩) جمهرة رسائل العرب ٤/١ وانظر أخبار المتلمس في الأغاني ١٦٠/٢٤ .

ومضى يعرضها على الناس ، فعرفت بينهم بصحيفة المتلمس ، وضربوا بها المثل في الغدر والأخذ بأسباب الحيطة والحذر ، وظل ذكرها يتردد على ألسنتهم زمانا" طويلا" ، ومن ذلك أن الشاعر الفرزدق (- ١١٤ هـ) هجا قوما" فشكوه إلى زياد ابن أبيه فطلبه فهرب وقصد مروان بن الحكم فكتب له كتابا" إلى بعض عماله بمائتي دينار ، فارتاب بكتابه ، وجاء به إليه وهو يقول :

مروان إن مطيّتي معقولة	ترجو الحباء وربّها لم ييأس
آتيتني بصحيفة مختومة	يخشى عليّ بها حباء النقرس
ألق الصحيفة يا فرزدق لا تكن	نكراء مثل صحيفة المتلمس

ورمى بها إلى مروان ، فضحك وقال : ويحك !! إنك أمي لا تقرأ ، فاذهب بها إلى من يقرأ ، ثم ردها حتى أختمها ، فذهب بها ، فلما قرئت إذا فيها جائزة ، فردها إليه فختمها (١) .

وفي هذه الصحيفة بعض ما يدل على بعض رسوم الكتابة وأساليبها في الجاهلية ، إذ كانت تبدأ ببسملة ، وتصدر بالعنوان ، وتفصل بأما بعد ، ويرد مضمونها موجزا" وقصيرا" يفي بالحاجة والغرض . وقد وردت في القرآن الكريم بعض الآيات التي يمكن أن تدل على شيء من ذلك ، كقوله تعالى على لسان بلقيس: " قالت : يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين" (٢) . وكان الله تعالى يخاطب العرب بلغتهم وما اعتادوا عليه فيها من أساليب ورسوم ، وإن كانت تلك الرسالة بلغة أخرى غير العربية المعروفة في الجاهلية .

---

(١) الأغاني ٣٨٣/٢١ وشرح ديوانه ٧/٢
(٢) سورة النمل ٢٩/٢٧ - ٣١ .

الكتابة ونشأة الدواوين في الإسلام :

وقد أولى الإسلام الكتابة والقراءة عناية كبيرة ، لما لها من أهمية في تحقيق غاياته السامية وأهدافه ، فكانت أول كلمة أنزلت على النبي (ص) : إقرأ [1]، وتكرر فيه بعد ذلك ذكر القلم والقرطاس والصحف والكتابة والكاتبين مرات كثيرة[2]، وشجع النبي (ص) على تعلم الكتابة وحث عليها ، فجعل فداء بعض أسرى المشركين ببدر تعليم عدد من المسلمين القراءة والكتابة ، وأمر بعض صحابته بتعلم بعض اللغات الأجنبية لحاجة المسلمين إليها في شؤون دولتهم ، وأسس لهذه الدولة الفتية ديوانا" للكتابة والمراسلات والأموال ، واختار له كتابا" من صحابته فكان علي بن أبي طالب وعثمان يكتبان الوحي ، فإن غابا كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت ، فإن لم يشهد واحد منهما كتب غيرهما، وكان خالد بن سعيد ابن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه ، وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان بين الناس ، وكانا ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا ، وكان عبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم ، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء ، وكان ربما كتب عبدالله بن الأرقم إلى الملوك عن النبي ، وكان حذيفة بن اليمان : يكتب خرص ثمر الحجاز ، وكان زيد يكتب إلى الملوك مع ما يكتبه من الوحي ، وقيل إنه تعلم بالفارسية وبالرومية وبالحبشية وبالقبطية ، وكان معيقب بن أبي فاطمة يكتب مغانم النبي ، وكان حنظلة بن صيفي ابن أخي أكثم بن صيفي خليفة كل كاتب من كتاب النبي إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب [3] .

---

(١) سورة العلق ١/٩٦ .

(٢) انظر فى ذكر القلم : سورة القلم ١/٦٨ والعلق ٤/٩٦ ولقمان ٢٧/٣١ وآل عمران ٤٤/٣ وفي ذكر القرطاس : سورة الأنعام ٧/٦ و ٩١ وفي ذكر الصحف : سورة طه ١٣٣/٢٠ والنجم ٣٦/٥٣ وعبس ١٣/٨٠ ومواضع كثيرة جدا أحصاها صاحب المعجم المفهرس٧٥٠ - ٧٥٦ .

(٣) العقد الفريد ١٦١/٤ . وانظر الوزراء والكتاب ٩ وتجارب الأمم ١٦١/١ . ولطائف المعارف ٥٦ . والخرص : حزر ما على النخل أو الكرم من الثمر .

وكان هذا الديوان أول ديوان للكتابة والمراسلات في الإسلام[1] وإن لم يكن يعرف بهذا الاسم الذي ربط بعض الدارسين نشأة الدووواين به ، فذهب د . شوقي ضيف إلى القول : إن عمر بن الخطاب أول من دون الدواوين في الإسلام ... حتى إذا ولي معاوية الخلافة وجدناه يتخذ ديوانين هما : ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم [2] ، وأكد د . حجاب أن : ديوان الرسائل وضع أساسه عثمان ، ورفع قواعده معاوية "[3] وقال د. حسين نصار: إن معاوية هو الذي أسس الديوان "[4] وليس لهذه الآراء ما يدعمها في تاريخ الدواوين - على اختلاف أنواعها - في الإسلام كما سيتضح معنا بعد قليل .

وقد كان الرسول (ص) يملي رسائله على كتابه بنفسه ، وكان يتوخى فيها الإيجاز والوضوح ، ومراعاة أحوال المخاطبين وبيئاتهم ، ويبتعد عن التكلف والتعقيد ، وتحفل كتب الحديث والسيرة والتاريخ والأدب بعدد كبير من رسائله إلى الملوك والأمراء والقبائل يدعوهم فيها إلى الإسلام ، أو يبين بعض تعاليمه ، ومنها رسالته إلى خالد بن الوليد ، ونصها: " من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام الله عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتابك جاءني مع رسولك يخبرني أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا" عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[5].

وسار الخلفاء الراشدون على سنة النبي (ص) في ترتيب الدواوين واختيار

---

(١) صبح الأعشى ٩١/١

(٢) العصر الإسلامي ٤٦٥ .

(٣) بلاغة الكتاب في العصر العباسي ٥٠

(٤) أدب المراسلات في العهد الأموي : مجلة عالم الفكر - مج ١٤ - ع ٣ - ص ٣٥.

(٥) صبح الأعشى (ط د. الطويل - بيروت) ٣٥٣/٦

الكتاب لها : " فكان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ، وروي أن عبد الله بن الأرقم كتب له ، وحنظلة بن الربيع . . . وكتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الأرقم ، وعبدالله بن خلف الخزاعي أبو طلحة الطلحات على ديوان البصرة ، وكتب له على ديوان الكوفة أبو جبيرة بن الضحاك ولم يزل عليه إلى أن ولي عبيد الله بن زياد فعزله وولى مكانه حبيب بن سعد القيسي . وكان يكتب لعثمان مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان يكتب له على ديوان المدينة ، وأبو جبيرة على ديوان الكوفة ، وعبد الله بن الأرقم على بيت المال .... وكان يكتب لعلي سعيد بن نمران الهمذاني وعبد الله بن جعفر "(١) .

وكان لعمر بن الخطاب فضل توسيع هذه الدواوين وتطويرها بعد أن اتسعت رقعة الدولة بالفتوح ، فجعل لكل ولاية كبيرة أو عمالة ديوانها ، ولكل ديوان منها صاحب أو رئيس، ويساعده في عمله أو يكتب بين يديه عدد من الكتاب، وربما كان بعضهم من غير المسلمين ، ممن يستعان بهم في أعمال الترجمة أو الحساب أو الكتاب ، بعد أن أصبحت الكتابة حرفة من الحرف يسعى في طلبها بعض أهل الخبرة بها من نصارى الحيرة وغيرها ، فروي أن : "عمر بن الخطاب قال لأبي موسى الأشعري : أدع لي كاتبك ليقرأ لنا صحفا" جاءت من الشام ، فقال : إنه لا يدخل المسجد..لأنه نصراني ، فقال عمر: قاتلك الله، ألا اتخذت رجلا" حنيفا" ، فقال: له دينه ولي كتابته" (٢) وكان عمر يفضل المسلمين على هؤلاء الكتاب من النصارى وأمثالهم لما لعملهم من صلة بأسرار الدولة ، وملابسة لرجالها ، فروي أنه : "ذكر له غلام كاتب حافظ من أهل الحيرة وكان نصرانيا" ، فقيل له : لو اتخذته كاتبا" ، فقال : لقد اتخذت إذا" بطانة من دون المؤمنين".(٣) وأحدث بعض الدواوين الجديدة كديوان الجند والعطاء والخراج ، وأصبحت كلمة الديوان معروفة في عهده ، وكان يقصد بها : ديوان الخراج والحساب ، فروي أنه "أتاه مال من

---

(١) العقد الفريد ١٦٣/٤ - ١٦٤ والوزراء والكتاب ١٠-١٤ وتجارب والأمم ١٧٩/١ و ٢٥٨ و٢٩٠ و٣٨٣ .
(٢) عيون الأخبار ٤٣/١ .
(٣) ن م ٤٣/١ .

البحرين . فقال له الفيرزان : إن العجم يدونون ديوانا" يكتبون فيه مال واحد واحد.... وأشار عليه بالديوان فعمله".(١) فقال المؤلفون بعد ذلك إنه "أول من دون الدواوين من العرب " (٢) يريدون : ديوان الخراج والعطاء والحساب ، أما ديوان الرسائل والإنشاء فلم يكن يسمى بهذا الاسم ، وإن كان معروفا" منذ عهد النبوة (٣)

وقد جرى الخلفاء الراشدون وقادة المسلمين على أسلوب النبي في رسائله ، إذ كان كثير منهم من كتابه ، فاتسمت رسائلهم بالإيجاز والجزالة وقلة التكلف ، وكان حسبهم فيها أن يؤدوا أغراضهم بلغة متينة وأسلوب واضح ورصين ، وكان أكثرها في شؤون الدولة والرعية وما يتصل بهما من أمور ، ومن ذلك كتاب عمر ابن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري (-٤٢هـ) عامله على البصرة ، وفيه يقول: "أما بعد ، فإن للناس نفرة عن سلطانهم ، فأعوذ بالله أن تدركني وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء متبعة ، ودنيا مؤثرة . فأقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، فإن الدنيا تنفذ ، والآخرة تبقى... وقد بلغ أمير المؤمنين أنه قد فشا لك ولأهل بيتك في لباسك ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها ، فإياك ياعبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصيب ، فلم يكن همها إلا

(١) الوزراء والكتاب ١١ وأدب الكتاب ١٩٠ والأوائل للعسكري ٢٤١/١ وفي هذا الخبر ما يدفع رأي د. حسين نصار في قوله : " إن أقدم ذكر للديوان جاء به الجهشياري حين قال: وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل أبو الزعيزعة مولاه " . بيد أن الجهشياري نفسه ذكر الديوان مرات كثيرة قبل زمن عبد الملك كما هو واضح في ذلك الخبر . وانظر أدب المراسلات في العصر الأموي : مجلة عالم الفكر - مج ١٤ - ع ٣ - ص ٣٥ .

(٢) الوزراء والكتاب ١١ .

(٣) وإلى ذلك ذهب القلقشندي ٩١/١ إذ أرجع نشأة الدواوين إلى زمن الرسول . وقد اختلفوا في أصل كلمة ديوان فذكر ابن قتيبة في عيون الأخبار ٥٠/١ أن " الديوان موضع الكتبة والحساب لأنه يقال للكتاب بالفارسية : ديوان ، أى شياطين لحذقهم بالأمور ولطفهم ، فسمي موضعهم باسمهم".وقال النحاس في صناعة الكتاب ١٠٧ " إن معنى الديوان في لغة العرب: الأصل الذي يرجع إليه ويعمل به . . . ويقال : دون هذا أي أثبته ، وجعله أصلا وزعم بعض أهل اللغة أنه أعجمي وبعضهم يقول عربي ".وفي أدب الكتاب للصولي ١٨٧ : فارسي تكلمت به العرب " وقال صاحب الاقتضاب ٩٩إن: الديوان اسم أعجمي عربته العرب " . وقال القلقشندي ٩١/١ " إن أصله : دوان . ويقال دون أي أثبت ونقل عن ابن عباس قوله : الشعر ديوان العرب . وقال :"وقيل فارسي معرب " .

السمن ، وإنما حتفهـا في السمن ، واعلم أن للعامل مردا" إلى الله ، فإذا زاغ العـامل زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام "(١)

تطور الكتابة في العصر الأموي :

وتطـورت الكتابـة فـي عهـد بنـي أميـة تطـورا" كبـيرا" ، فاتسـعت الدواويـن وتنوعت ، فصار لكل خليفة وأمير وعامل ديوانه وكتابه ، وكان أكبر هـذه الدواويـن وأهمها ديوان الخراج ، ومعظم كتابه من الأعاجم ، وديوان الرسـائل ، وأكـثر كتابـه من العرب : " فكان يكتب لمعاوية على الرسائل عبيد الله بن أوس الغساني ، وعلـى الخراج سرجون الرومي . . . وكان يكتب لزياد على الخراج زاذا نفروخ ، ويكتـب له على الرسائل عبد الله بن أبي بكرة وجبير بن حية وكان يكتب له أيضـا" مـرادس مولاه . . . وكان يكتـب لـيزيد عبيـد اللـه بـن أوس كـاتب معاويـة ، وعلـى الخـراج سرجون وكان يكتب لمعاوية بن يزيد : الريان بن سلم ، وعلـى الديـوان : سـرجون ابن منصـور النصرانـي"(٢) .

وقد ظل ديوان الخراج أعجميا" إلى أيام عبدالملك بن مروان ، إذ بـدأت فـي عهده حملة تعريبه ، وكان الحجاج رائد هذه الحملة ، فذكر الجهشياري أنه : "لم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان : أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطيـاتهم ، وهـو الـذي كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية . وكـان بالشـام ديوانـان مثـل ذلك : بالرومية والعربية إلى أيام عبد الملك ، فلما قلد الحجاج العراق كان يكتـب لـه صالح بن عبد الرحمن ، وكان يتقلد ديـوان الفارسـية إذ ذاك زاذا نفـروخ فخلفـه عليه صالح . . . وأمره الحجاج بنقل الدواوين إلـى العربية سـنة (٧٨هـ) فكـان عامة كـتاب العراق تلامذة صـالح" (٣) . وأمر عبد المـلك بنقل ديوان الخراج في

(١) البيان والتبيين ٢٩٣/٢ .
(٢) الوزراء والكتاب ١٥ – ١٩ وانظر تجارب الأمم ٢٧/٢ .
(٣) الوزراء والكتاب ٢٣ وانظر الكامل للمبرد ١٩٦/٢ وأدب الكتاب ١٩٢ والأوائل للعسكري أ/٣٧١.

الشام من الرومية إلى العربية ، فذكر العسكري أن : " ديوان الشام كان إلى سرجون الرومي إلى زمن عبد الملك ، فأمر سليمان بن سعد بنقل الحساب إلى العربية . "(١) أما ديوان خراسان فتأخر نقله إلى العربية حتى زمن هشام " وكان أكثر كتاب خراسان إذ ذاك مجوساً ، وكانت الحسابات بالفارسية فكتب يوسف بن عمر ، وكان يتقلد العراق سنة (١٢٤ هـ) ، ألا يستعان بأحد من أهل الشرك في أعمال أو كتابة، وكان أول من نقل الكتابة من الفارسية إلى العربية بخراسان إسحاق بن طليق الكاتب النهشلي"(٢).

ومهما يكن من أمر هذا الديوان ، وهو ديوان أموال وخراج وحساب ، فإن ديوان الرسائل والإنشاء قد ظل كما كان عربيا" خالصا" ، وكان معظم كتابه من العرب ، ولم يشاركهم فيه بعض الفرس أو الموالي إلا في أواخر هذا العصر ، فنبغ منهم سالم (- بعد ١٢٦ هـ) مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه(٣) وتتلمذ على يديه ختنه عبد الحميد بن يحيى (- ١٣٢ هـ) مولى قريش " وكان يكتب لسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك ، ثم لم يزل كاتبا" لبني أمية إلى أيام مروان بن محمد وانقضاء دولة بني أمية . وكان أول من فتق أكمام البلاغة ، وسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر" (٤) .

وكانت الرسائل والمكاتبات قد بدأت تكثر منذ بداية هذا العصر ، لكثرة الأحداث والفتن والثورات فيه واتساع رقعة البلاد ، فكان الخلفاء والولاة والقادة يتبادلون الرسائل والكتب ويبعثون بها إلى خصومهم السياسيين من طالبيين وخوارج وزبيريين وغيرهم ، ويجيبون على رسائلهم فظهر نوع جديد من أنواع الترسل والكتابة يمكن أن نطلق عليه اسم الرسائل السياسية التي تميل إلى الإطالة والإسهاب والتفصيل ، وتعتمد على قوة البيان في إظهار الحجة والإقناع بها من غير أن تظهر

---

(١) الأوائل ١/٣٧١ .
(٢) الوزراء والكتاب ٤٣.
(٣) انظر الوزراء والكتاب ٣٩ والعقد الفريد ٤/١٦٤ .
(٤) العقد الفريد ٤/١٦٥ وانظر الوزراء والكتاب ٤٥ .

فيها آثار التصنيع والتكلف والتعقيد ، على حين كانت الرسائل بين الخلفاء والولاة وقادة الجيوش تميل إلى الإيجاز والاختصار ومن ذلك كتاب المهلب بن أبي صفرة إلى الحجاج يخبره بانتصاره في بعض الوقائع فيقول : "الحمد لله الذي كفى الإسلام فقد ما سواه ، وجعل الحمد متصلا" بنعمته ، وقضى ألا ينقطع المزيد من فضله حتى ينقطع الشكر من خلقه . ثم إنا كنا وعدونا على حالتين مختلفتين : نرى فيهم ما يسرنا أكثر مما يسوؤنا ، ويرون فينا ما يسوؤهم أكثر مما يسرهم ، فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم ، ينصرنا الله ويخذلهم ، ويمحصنا ويمحقهم حتى بلغ الكتاب بنا وبهم أجله فقطع دابر الذين ظلموا . والحمد لله رب العالمين"(١).

فن الترسل والكتابة في العصر العباسي :

وبعد أن استقر الأمر لبني العباس ، واتخذوا بغداد عاصمة لهم ، توسعت الدواوين وتنوعت وأصبح يكتب فيها مئات من بلغاء الكتاب ، وأضحت الكتابة حرفة تدر على أصحابها أرزاقا" طائلة وتبلغ بهم أعلى المناصب والمراتب ، فأقبل عليها البلغاء وأرباب البيان وطلاب الرئاسة والسياسة، واختصت بها بعض الأسر كآل وهب وآل ثوابة والصوليين وغيرهم من الأسر المعرقة في الكتابة ، ومعظمهم من الفرس ، وعلى رأسهم البرامكة فكتب جدهم خالد للسفاح (٢) ، وكتب أبناؤه لمن بعده من الخلفاء ، وبلغوا ذروة المجد زمن الرشيد ، فاستأثروا بالحكم والسلطان إلى أن نكبهم سنة (١٨٧ هـ) كما هو معروف (٣) . وكتب للمنصور "عبد الملك ابن حميد مولى حاتم بن النعمان الباهلي وكان كاتبا" متقدما" "(٤) واشتهر من كتاب عصره ودولته ابن المقفع (- ١٤٢ هـ) ، وكان يكتب لعيسى بن علي . . . فأمره بعمل نسخة الأمان لأخيه عبد الله فعملها ووكدها . . . فعمل المنصور على قتله " (٥) وقد اختلفوا في أسباب مقتله ، واتفقوا على أنه : " كان في نهاية الفصاحة

---

(١) كتاب الصناعتين ١٩٧ .
(٢) الوزراء والكتاب ٥٩ .
(٣) التنبيه والإشراف ٢٩٩
(٤) الوزراء والكتاب ٦٤ .
(٥) الوزراء والكتاب ٧٠ - ٧١

والبلاغة . وكان أحد النقلة من اللسان الفارسي إلى العربي ، مضطلعا" باللغتين ، فصيحا" بهما"(١).

وممن برع في الكتابة والترسل في هذا العصر فوصل بها إلى أعلى المراتب أحمد بن يوسف (- ٢١٣ هـ) مولى بني عجل : "وكان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وله رسائل معروفة ، وكان يتولى ديوان الرسائل للمأمون "(٢) ثم وزر له ، وخلفه على ديوان الرسائل عمرو بن مسعدة الصولي (- ٢١٧ هـ) " وكان أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثل كتبه ، فإذا رامها تعذرت عليه" (٣) ، ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات (- ٢٣٣ هـ) " وكان أبوه من تجار الكرخ المياسير ، فكان يحثه على التجارة وملازمتها ، فيابي إلا الكتابة وطلبها ، وقصد المعالي حتى بلغ منها أن وزر ثلاث دفعات"(٤) وكان على رأس ديوان وزارته الحسن بن وهب (-٢٥٠هـ) " وهو كاتب شاعر مترسل فصيح أديب ، وأخوه سليمان فحل من الكتاب ، وهو عريق في الكتابة ، ولأولاده نجابة مشهورة . . . وكان البحتري مداحا" لهم" (٥) وكان سليمان من كتاب المأمون ثم وزر للمعتمد .

ومن كتاب دولة بني بويه في القرن الرابع الوزير المهلبي (- ٣٥٢ هـ) كاتب معز الدولة ثم وزيره " وكان يترسل ترسلا" مليحا" " (٦)، وصاحب ديوانه أبو إسحق الصابي (-٣٨٤ هـ) " أوحد العراق في البلاغة . . . وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفاء ، وخلافة الوزراء ، وتقلد الأعمال الجلائل في ديوان الرسائل"(٧) وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف (-٣٨٨ هـ) وكان "من المقدمين في

---

(١) الفهرست ١٣٢
(٢) الأغاني ١١٨/٢٣-١٢١ .
(٣) كتاب الصناعتين ٦١ .
(٤) الأغاني ٤٦/٢٣ .
(٥) ن . م ٩٤/٢٣
(٦) يتيمة الدهر ٢٢٣/٢
(٧) يتيمة الدهر ٢٤١/٢ والفهرست ١٤٩

الأدب والكتابة والبراعة والكفاية . . . وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طوال أيامه معدودا" في وزارته . . . وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده"(١) وأبو الفضل بن العميد (-٣٥٩هـ) "عماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم وأوحد العصر في الكتابة . . . وكان يقال : بدئت الكتابة بعبدالحميد وختمت بابن العميد"(٢) ، وكذلك كان ابنه أبوالفتح (-٣٦٦هـ) " ثمرة تلك الشجرة . . . وقد تأنق أبوه في تأديبه وتهذيبه حتى تخرج به وخرج حسن الترسل . . . وجمع تدبير السيف والقلم لركن الدولة ولقب بذي الكفايتين" (٣) . ومن أشهر كتاب هذا القرن أبو بكر الخوارزمي (- ٣٨٣ هـ) وكان " باقعة الدهر في النثر والنظم . . . وديوان رسائله مخلد سائر ، وكذلك ديوان شعره "، (٤) وصنوه بديع الزمان (- ٣٩٨ هـ) " ومعجزة همدان ونادرة الفلك والزمان وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع ، وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة.. وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتديء بآخر سطر منه ، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه ، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه" (٥) . وممن أغرم بالترسل من الأمراء والملوك قابوس بن وشكمير (-٤٠٣ هـ) أمير طبرستان وجرجان الذي بلغ بفن الترسل غاية التصنع والتكلف والتعقيد ، وإن كان يمثل في نظر بعض النقاد من معاصريه ذروة البلاغة فقال اليزدادي في وصف رسائله : "وأنا إن رمت العبارة عن بدايع هذه الرسايل عييت به لإعجازها " (٦) .

ولعل أهم ما يمكن ملاحظته في تطور الترسل والكتابة في العصر العباسي هو ظهور الكتاب طبقة كبيرة ومتميزة لها شأنها وخطرها وثقافتها ، وأن الغاية

---

(١) يتيمة الدهر ٣١٢/٢ .
(٢) ن . م ١٥٤/٣ – ١٥٥ .
(٣) ن . م ١٨١/٣ .
(٤) ن . م ١٩٤/٤ .
(٥) ن . م ٢٥٦/٤ .
(٦) كمال البلاغة – المخطوط ق ٤/أ وهو مما ليس في المطبوع .

البلاغية التي كانت تعد ثانوية وغير مقصودة حتى أواخر العصر الأموي ، قد أصبحت هدفا" أساسيا" لدى كتاب العصر العباسي ، وأصبح الترسل معها فنا" أدبيا" قائما" بذاته ومستقلا" شأنه في ذلك شأن الشعر والخطابة وغيرهما من فنون القول وأنواعه المعروفة ، فتعددت أغراضه ، وتنوعت أساليبه ، ولم يعد مقصورا" على الكتابة الرسمية أو الديوانية ، أو محصورا" بكتابها ، فأصبح بالإمكان التمييز بشكل واضح ودقيق بين الكتابة والترسل كما سيتضح معنا بعد حين ، وكان لتطور الحياة والحضارة والثقافة أكبر الأثر في تطور هذا الفن ، وتعقد أساليبه ، وقد بدأ الميل الواضح نحو التصنع في الكتابة منذ صدر هذا العصر ، فكان الكتاب يتنافسون في إظهار مهاراتهم الفنية وقدراتهم البلاغية ، فأخذ السجع والازدواج والتنميق والتحبير طريقه إلى رسائلهم ، وإن كانت ماتزال تعبر عن الالتزام بالخصائص الأسلوبية الموروثة من إيجاز وجزالة ووضوح ، ولعل خير من يمثل هذا الأسلوب عمرو بن مسعدة الصولي في رسائله ، ومن ذلك ما كتب به إلى الحسن بن سهل: " أما بعد ، فإنك ممن اذا غرس سقى وإذا أسس بنى ، ليستتم تشييد أسه ، ويجتني ثمار غرسه، وبناؤك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مشف على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقي ما غرست إن شاء الله"(١) .

وما نكاد نصل إلى مطلع القرن الرابع حتى يصبح الزخرف والتصنع غاية مقصودة فيطغى السجع وألوان البديع على هذا الفن ، وتتحول رسائل معظم الكتاب إلى ميدان واسع لعرض ألوان البديع ، وأصناف البلاغة ، ولم يكن بدعا" أو مستغربا" أن نجد اليزدادي يختار اسم " كمال البلاغة "(٢) عنوانا" لكتابه الذي جمع فيه رسائل قابوس بن وشكمير ، واستخرج منها أربعة عشر نوعا" جديدا" من أنواع السجع ، وتولى تسمية كل نوع منها بما يشاكله من النعوت أو المصطلحات

---

(١) معجم الأدباء ١٣٠/١٦ .

(٢) طبع في مصر بتحقيق محب الدين الخطيب سنة ١٣٤١ هـ . ومنه نسخة خطية في الظاهرية برقم ٦٧١٣ - أدب - فيها زيادة على المطبوع تبلغ عدة صفحات ، وبينها وبين المطبوع اختلاف غير قليل في ترتيب بعض الفقر أو الفصول . إذ وردت بعض أجزاء مقدمة المخطوط ق ٤/أ - ٥/ب موزعة في ثنايا المطبوع ٣٢ - ٣٣ .

كالمجنح والمتزاوج والمتوأم والمخلخل والمعكوس وغيرها من ألوان السجع التي كان قابوس يعمد إلى استعمالها في رسائله فتجد لها صدى طيبا" لدى أدباء عصره ونقاده ، ولعل أسلمها من فاحش السجع والتصنع والتعقيد قوله في رسالة له إلى ابن العميد : "عرض علي - أطال الله بقاء الأستاذ - من عقود سحره ، ومحسود نثره، فصل تضيء النواظر برؤيته ، وتخطر الخواطر لروايته ، ويفيد البكم بيانا" ، ويعيد الشيب شبانا" . . . . فمن مر على أرجاء بحره الهياج ، ونظر في لألأ بدره الوهاج، خليق بأن يكبو قلمه بأنامله ، وينبو طبعه عن رسائله ، لأنه بيان قصر عن نيله لسان البلاغة ، ولم يأت بمثله فرسان هذه اللغة "(١).

(١) - كمال البلاغة ٤٢ - ٤٣ .

الباب الأول
الـكـتابة والـكـتّاب في النقد العربي

- **الفصل الأول : الكتابة والترسل في النقد الشفوي والنقد المدون**
- **الفصل الثاني : أساليب نقد الكتابة**
- **الفصل الثالث : نقد الكتاب والمترسلين**



الفصل الأول

الكتابة والكتّاب في النقد الشفوي والنقد المدون

- **النقد الشفوي والانطباعي**
- **النقد المدون وحركة التأليف في الكتابة والكتاب**



الفصل الأول
الكتابة والترسل في النقد الشفوي والنقد المدون

لقد واكب هذا الفن في رحلته الطويلة من العصر الجاهلي إلى آخر القرن الرابع في العصر العباسي حركة نقدية ذات أهمية كبيرة في تاريخ نقدنا العربي ، ويمكن تقسيمها إلى مرحلتين : مرحلة النقد الشفوي والانطباعي التي تمتد جذورها إلى العصر الجاهلي ، ومرحلة النقد المدون التي بدأت تظهر بعض آثارها منذ أواخر العصر الأموي ، ويمكن تحديد بدايتها برسالة عبد الحميد بن يحيى (١٣٢هـ) إلى الكتاب التي فتح بها الباب واسعا" أمام عدد كبير من الكتب والدراسات التي تتناول فن الترسل والكتابة منذ مطلع العصر العباسي ، وسنحاول الإلمام بما أمكن لنا الوقوف عليه من آثار النقد الشفوي والانطباعي ، ثم النقد المدون والمنهجي ، قبل أن ننتقل إلى دراسة أساليب النقاد في تناول هذا الفن ونقده ودراسته .

النقد الشفوي والانطباعي :

ليس بين أيدينا من آثار هذا النقد منذ الجاهلية وحتى أواخر العصر الأموي سوى أخبار قليلة جدا" تتضمن بعض الآراء أو الأحكام التي تدل على الاهتمام بالترسل والكتابة ، وذلك مرتبط – في نظرنا – بطبيعة الموقف الأدبي من الترسل في إبان هذه المدة الطويلة ، إذ لم يكن يعد فنا" أدبيا" كالشعر والخطابة ، على الرغم من عناية بعض كتاب الرسائل بتجويدها وتحبيرها ، ولذلك فقد ظلت الأصوات التي تتناولها بالنقد خافتة وضعيفة حتى أواخر العصر الأموي على وجه التقريب ، وحين أخذت الغاية الفنية والبلاغية تظهر واضحة في رسائل الكتاب ، وأصبحت بعد ذلك غاية مقصودة وأساسية ، بعد أن تنوعت ألوان الترسل ، وتعددت أغراضه وفنونه في العصر العباسي خاصة ، فازداد الاهتمام النقدي به ، وكثرت الآراء فيه ، واتسع مجال التأليف في نقده .

وقد وصلت إلينا من العصر الجاهلي بعض الأخبار المروية التي تدل على اهتمام بعض الجاهليين بالترسل ، والنظر إليه نظرا" نقديا"، ولسنا على ثقة قوية بصحة نقل هذه الأخبار وروايتها وتدوينها ونسبتها إلى أصحابها ، فذكروا أن " أكثم ابن صيفي كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : افصلوا بين كل معنى منقض وصلوا إذا كان الكلام معجونا" بعضه ببعض . وكان الحارث بن أبي شمر الغساني يقول لكاتبه المرقش : إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه ، فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به ، نفرت القلوب عن وجهها ، وملتها الأسماع ، واستثقلها الرواة " (١) . فإذا صحت نسبة هذه الأقوال إلى أكثم أو الحارث ، فإنها تدل على أن الترسل كان يعد فنا" أدبيا" تلذ به الأسماع والقلوب ، أو تنفر منه ، وتتناقله الرواة ، وتبدى فيه بعض الآراء النقدية ، بيد أننا نستبعد صحة نسبة هذه الأقوال وأشباهها إلى الجاهليين ، لما لها من صلة ببعض قضايا النقد والبلاغة وأصول فن الترسل وأساليبه التي لم تكن معروفة أو واضحة في أذهان أهل ذلك العصر .

وازدادت العناية بالكتابة والترسل بعد ظهور الإسلام ، فأسس النبي (ص) ديوانا" للرسائل واختار له عددا" من الكتاب ، وأصبح اسم الكاتب لقبا" لبعضهم ، وكان يملي عليهم رسائله بنفسه ويبدي بعض الملاحظات العملية التي تتصل ببعض شؤون صنعة الكتابة وأدواتها ، ورويت عنه بعض الأخبار التي تدل على اهتمامه بتفقد رسائله وتجويدها ، فكان في ذلك قدوة لكتابه وصحابته وخلفائه ، فروي عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان يأمر بتفقد الكلام والاعتناء به ويقول " إني شهدت الرسول أملى على علي بن أبي طالب كتابا" ، وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صرمته" (٢) .

وكان عمر بن الخطاب من أكثر هؤلاء الخلفاء اهتماما" بما يصدر عن

(١) كتاب الصناعتين ٤٦٠ ومذق : خلط .
(٢) ن . م ٤٥٩ وانظر عيون الأخبار ٤٢/١ عن زيد بن ثابت قال : دخلت على الرسول (ص) وهو يملي في بعض حوائجه فقال : ضع القلم على أذنك فإنه أذكر للملى به .

ديوانه من رسائل ، ويبدو أنه كان يستعين بغيره من أرباب البيان في إنشائها ، ويرغب في براعتها من آثار التروية والتكلف ، فروي أنه "استكتب زيادا" كتابا" ، فنظر فيه ، فقال له : أعد ، فكتب غيره ، فقال له : أعد ، فكتب الثالث ، فقال : لقد بلغ ما أردت في الأول ، ولكني ظننت أنه قد روى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما أردت، فكرهت أن أعلمه ذلك ، وأردت أن أضع منه لئلا يدخله العجب فيهلك" (١)

وكان حريصا" على سلامة رسائله ورسائل كتابه وعماله من العيب والخطأ واللحن فروي أن : " كاتبا" لأبي موسى الأشعري كتب إليه : من (أبو) موسى ، فكتب إليه عمر ، اضربه سوطا" ، واعزله عن عمله" (٢) كما رويت عن الإمام علي بعض الأقوال التي تدل على تفقده لكتابه ، وتزويدهم ببعض الملاحظات العملية في الكتابة كقوله لبعضهم : " ألق دواتك ، وأطل سني قلمك ، وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف" (٣) .

وقد كثرت هذه الملاحظات في العصر الأموي ، بعد أن كثرت الرسائل ، وظهرت طبقة الكتاب المحترفين ، وكانوا يختارون من أصحاب البلاغة والبيان ، فكان كل واحد منهم يحاول إظهار مهارته الفنية وبراعته في رسائله ، ونيل الرضى والاستحسان عليها ، فيأتي فيها بما يوافق ذوقه وأذواق المخاطبين بها ، فأخذت الكتابة تقترن ببعض الغايات البلاغية ، وتجد لها صدى في نفوس قرائها ، فيعجبون بها ، ويبدون فيها بعض الآراء النقدية السريعة أو الأحكام ومن ذلك أن يحيى بن يعمر اللغوي " كتب على لسان يزيد بن المهلب إلى الحجاج يقول : "إنا لقينا العدو فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة ، ولحقت طائفة بعراعر الأودية ، وأهضام الغيطان ، وبتنا بعرعرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه " فقال الحجاج ، ما يزيد بأبي عذر هذا الكلام . فقيل له : إن معه يحيى بن يعمر ، فأمر بأن يحمل إليه، فلما أتاه قال:

---

(١) الوزراء والكتاب ١٨ .
(٢) صناعة الكتاب ٢٤٣ وانظر أدب الكاتب ١٢٩ ورسالة التوحيدي في علم الكتابة ، ضمن ثلاث رسائل للتوحيدي ٤٦ ومعجم الأدباء ١/٧٩-٨٠ .
(٣) تجارب الأمم ١/٣٨٣ .

أين ولدت ؟ قال : بالأهـواز ، قال : فأنى لك هذه الفصـاحة ؟ قال : أخذتها عن أبي"(١) .

وفي هذا الخبر ما يدل على قدرة الحجاج على التمييز بين أساليب الكتـاب، وإعجابه بالفصيح منها ، معبرا" بذلك عن ذوق عصره وبيئته ، وقد ذكر الجاحظ أن الناس كانوا يتداولون هذه الرسالة ، ويحفظونها إعجابا" بهـا ، وأنكـر أن تنسب إلـى البلاغة والفصاحة ، وفـي ذلـك دلالـة علـى تغير الأذواق مـن عصـر إلـى عصـر ، وتبدلها بين بيئة وأخرى . وكانت أذواق أهل العصر فـي أيـام بنـي أميـة تميـل نحـو الجزل والفصيح من الكلام ، وترى فيما رق لفظه ، وتهلهـل نسـجه ، وجـرى علـى غير أساليب العرب المعهودة في رسائلها روحا" أعجمية ، فروي أن عبد الملـك بـن مروان كان يصف روح بن زنباع ، وهو أحد كتابه ، بأنه فارسي الكتابة (٢) .

وقد بدأت هذه الروح تسـري في أساليب الترسـل منذ زمن الوليد بن عبـد الملك (– ٩٦ هـ) ، "وهو أول مـن كتـب مـن الخلفـاء فـي الطوامير ، وأمـر كتابـه بتعظيم كتبه وتفخيمها وحوط القراطيـس ، وجلل الخطوط ، وفخم المكاتبـات"(٣) فغالى الكتاب فـي النفقة عليها ، والإسـهاب فيها ، وبالغوا في تحبيرهـا وتنميقهـا ، حتى أمر عمر بن عبد العزيز بالاقتصاد فيها وإيجازهـا وتقصيرهـا، والجـري علـى أساليب السلف في كتابتها وتدبيجها ، ولم يحل ذلـك دون تطـور الكتابـة نحـو غايتهـا الفنية والبلاغية ، وكان لسالم وعبد الحميد الكاتب وعبـد اللـه بـن معاويـة بـن جعفـر دور كبير في الوصول إلى هذه الغاية وتحقيقها ، مما أدى إلى تطور الحركة النقديـة حـول الترسـل ، وظهـور الأبحـاث المدونـة فـي نقده ، ونضـج الآراء النقديـة فيـه وكثرتها.

وتنوعت هذه الأراء في العصر العباسي ، وازدادت عمقا" ودقـة وشـمولا"، وأخذ أصحابها يعتمدون فيها على بعض الأسس النقدية المهمة والمعايير ، بعد أن

---

(١) البيان والتبيين ٣٧٧/١-٣٧٨ . وعراعر الأودية أسافلها . وعراعر الجبال:أعاليها .الأهضام:المداخل.
(٢) الوزراء والكتاب ٣٥ .
(٣) العقد الفريد ١٥٨/٤ .

أصبح الترسل فنا" أدبيا" متميزا" ، وأصبح لكتابه شأن عظيم في الحياة والمجتمع ، وكان لكثير من الخلفاء والولاة والأدباء مشاركة واسعة في نقد رسائل الكتاب وإبداء الآراء في أساليبهم فيها ، والحكم عليها ، فروي : "أن السفاح كان يقول لكاتبه : قف عند مقاطع الكلام وحدوده ، وإياك أن تخلط المرعي بالهمل"(١) وكان الرشيد شديد الإعجاب ببلاغة الكتاب . وقدرتهم على إيجاز المعاني واختصارها ، وتابعه في هذا المذهب أبناؤه ، وكان لذلك أثره الواضح في رسائل الكتاب في أيامهم ، فروى صاحب قانون البلاغة عن أحمد بن يوسف الكاتب قوله : " دخلت على المأمون وبيده كتاب . . . فقال : إن في هذا الكتاب كلاما" نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة ، فزعم أن البلاغة إنما هي التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة باللفظ القليل على المعنى الكثير. وماكنت أتوهم أن أحدا" يقدر على ذلك حتى قرأت هذا الكتاب ، ورمى به إلي ، وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا ، فإذا فيه : كتابي إلى أمير المؤمنين ممن ابتلي من قواده ورؤساء أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاشت معه أمورهم "(٢).

وكان المأمون مغرما" باختصار الكتب ، فروي أنه " أمر عمرو بن مسعدة أن يكتب كتابا" إلى بعض عماله لرجل بالعناية به وقضاء حقه ، وأن يختصره في سطر واحد ، فكتب : كتابي إليك كتاب واثق بمن كتبت إليه ، معني بمن كتبت له ، ولن يضيع بين العناية والثقة حامله"(٣) . وعلل إعجابه ببلاغة بعض الكتاب تعليلا" نقديا" دقيقا" يرتبط بالقدرة على الإيجاز في غير عجز ، مع الإفصاح عن المعنى ، وإصابة المغزى فقال " ما أعجب بكلام أحد كإعجابي بكتاب القاسم بن عيسى فإنه يوجز في غير عجز ، ويصيب مفاصل الكلام ، ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب ، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب ، يجلي عن مراده في كتبه ، ويصيب المغزى في ألفاظه"(٤) .على أن لبعض كتابهم من آل برمك في الإيجاز والإطناب مذهبا"آخر

---

(١) كتاب الصناعتين ٤٥٨ .
(٢) قانون البلاغة – المخطوط – ق٨٣/٨٤أ. وانظر قول الرشيد في صناعة الكتاب ٢٠٣
(٣) صناعة الكتاب ٢٠٤ و٢٧٧
(٤) كتاب الصناعتين ٤٦٠ .

يعتمد على المناسبة بين الحال والمقال ، والوفاء بحاجة المعنى من اللفظ ، فروي أن "يحيى البرمكي أمر اثنين أن يكتبا ، فأطال أحدهما واختصر الآخر ، فقال للمختصر: ما أرى موضع مزيد ، وقال للمطيل: ما أرى موضع نقصان"(١) ، كما روي عن أبيه " جعفر بن يحيى ، وكان قريع دهره في المكاتبة ، أنه قال : إذا كان الإيجاز كافيا" كان التطويل عيا" ، وإذا كان التطويل واجبا" كان التقصير عجزا" "(٢) وللخلفاء والكتاب والأدباء والنقاد في الترسل والكتابة آراء كثيرة جدا ومتنوعة ، سيرد ذكر كثير منها في أثناء الحديث عن أساليب نقد هذا الفن ، وقد وجد فيها المؤلفون والنقاد مادة غنية وواسعة ، فضمنوها كتبهم المدَونة في نقد الكتابة ، واعتمدوا عليها في رسم قواعدها واصولها ، واستخلاص معايير نقدها وتقديرها .

النقد المدون :

تدل المصادر التي بين أيدينا على أن حركة التأليف في فن الكتابة والترسل لم تبدأ إلا في أواخر العصر الأموي ، وتعد رسالة عبد الحميد (- ١٣٢ هـ) إلى الكتاب أول أثر مدون ومعروف في هذا الباب ، ثم أخذت تظهر بعد ذلك بعض الكتب أو الرسائل التي تتناول هذا الفن ، وألفت فيه في القرنين الثالث والرابع كتب كثيرة جدا يمكن تصنيفها في عدة زمر ، تشمل أولاها الكتب أو الدواوين أو المجاميع التي تضم رسائل الكتاب ، والتي بدأ الاهتمام بجمعها وإفرادها في كتب مخصصة لها في أواخر العصر الأموي أيضا" ، وقد ذكر ابن النديم عددا" كبيرا" جدا" منها ، ومن ذلك مجموع رسائل سالم في نحو مائة ورقة(٣)، وديوان رسائل عبد الحميد في نحو ألف ورقة(٤)، وكتاب رسائل غيلان الدمشقي نحو ألفي ورقة(٥)، وقد ذكر الجاحظ أنه من كتب الرسائل المشهورة التي يستمد منها البلغاء ويتأدبون بها(٦) ، أما ديوان الصاحب بن عباد فيقع في عشرمجلدات(٧) ، وقد شكلت هذه

(١) ن . م ١٩٦ .
(٢) قانون البلاغة - المخطوط - ق ٦٥/أ
(٣-٥) الفهرست ١٣١
(٦) البيان والتبيين ٢٩٥/١ .
(٧) معجم الأدباء ٢٦٠/٦.

هذه المجاميع مادة طيبة للكتب المؤلفة في هذا الفن ، ولم نر ضرورة لذكرها لكثرتها وقلة ما وراءها من فائدة نقدية .

أما الزمر الأخرى فتشمل مجموعة كبيرة من كتب الاختيار التي تتضمن عادة بعض الآراء النقدية أو الأخبار ، وكتب أخبار الكتاب والوزراء والمترسلين التي لا تخلو من كثير من الآراء أو الأحكام ، وكتب آداب الكتابة والكتاب ، وأصول صنعة الكتابة وأدواتها وثقافتها ، وكتب النظرية النقدية التي تبحث في فن الكتابة وأنواعه وأساليبه ، وكتب النقد التطبيقي التي تتناول رسائل بعض الكتاب بالتحليل والنقد والدراسة ، وهي أهم هذه الكتب وأقلها عددا" كما لاحظنا ، فضلا" عن الكتب النقدية التي تجمع بين الشعر والكتابة .

حركة التأليف في الكتابة والكتاب ومصادر نقد الترسل والكتابة :

وقد تتبعنا هذه الكتب في مظانها ، وقمنا بصنع قائمة موسعة بها ، ذكرنا فيها عناوينها وأسماء مؤلفيها ، ووصفنا ماوقفنا عليه من المطبوع أو المخطوط منها، وأوردنا بعض ما عثرنا عليه من نصوص منقولة عن المفقود مما يكشف عن بعض ملامحه العامة وأوصافه ، فكانت حصيلة ذلك أكثر من مائة كتاب من الكتب المخصصة لفن الكتابة والترسل ، والمؤلفة في القرنين الثالث والرابع ، فضلا عن بعض الكتب التي تهتم بهذا الفن اهتماما" ظاهرا" ، وآثرنا ترتيبها ترتيبا" تاريخيا" يمكن أن يكشف عن تطور التأليف في هذا الفن ونقده ، ويدل على مدى الاهتمام به وتقديره وهذه الكتب هي :

١- رسالة عبد الحميد بن يحيى (- ١٣٢ هـ) إلى الكتاب[١] : وهي أقدم أثر

---

(١) انظر نص الرسالة في الوزراء والكتاب ٤٧ - ٥١ ومقدمة ابن خلدون ٤٣٩ - ٤٤٤ وصبح الأعشى ١/٨٥ - ٨٩ ورسائل البلغاء ١٧٠-١٧٥ وأمراء البيان ٧٧-٨١ وعبدالحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (-١٣٢ هـ) ، يضرب به المثل في البلاغة . وفيات الأعيان ٣/٢٢٨ - ٢٣٢ والأعلام ٣/٢٨٩.

معروف من الآثار المدونة التي تتناول الكتابة والكتاب ، وقد وصلت إلينا كاملة ، وتقع في نحو خمس صفحات ، تحدث فيها عن فضل صنعة الكتابة وشرفها ، وأدواتها وآدابها ، وشمائل أصحابها وأخلاقهم ، وما ينبغي أن يكون بينهم من تعاون وتآزر وتراحم ، وغير ذلك مما تناول في هذه الرسالة التي أصبحت بعده دستورا" للكتاب ، وينبوعا" ثرا" لكل من كتب في صنعة الكتابة وآدابها ، فقال الجهشياري في تصديره لها : "وجدت بخط ميمون بن هرون لعبد الحميد كتابا" كتبه إلى الكتاب أطال فيه ، إلا أنه أجاد فلم أستجز إسقاط بعضه ، فكتبته جميعه على طوله ، لأن الكاتب لا يستغني عن مثله"(١)، وعدها القلقشندي أصلا" لآداب الكتابة فقال : " وأصل هذه الآداب الذي ترجع إليه ، وينبوعها الذي تفجرت منه : رسالة عبد الحميد "(٢) .

٢- كتاب يقين البلغاء : لعلي بن الحسن الأحمر (- ١٤٩ هـ) ذكره ابن النديم بهذا الاسم ، وورد عند بعض المؤلفين باسم : تفنن البلغاء(٣) .

٣- آلة الكتاب : للفراء (- ٢٠٧ هـ) وهو من الكتب التي تتناول صنعة الكتابة وأدواتها وثقافتها ، كما يدل على ذلك عنوانه ، ومن المرجح أن يكون جل اهتمام مؤلفه فيه باللغة والنحو لاختصاصه بهما ، وانصرافه إليهما في مؤلفاته المعروفة كما تدل على ذلك بعض الآراء التي نسبها أبو جعفر النحاس (- ٣٣٧ هـ) إليه في كتابه " صناعة الكتاب " ومعظمها مما يتصل بالألفاظ الكتابية وأدوات الكتابة ومصطلحاتها وما يتصل بها من أمورلغوية ونحوية(٤)

---

(١) الوزراء والكتاب ٤٧ .
(٢) صبح الأعشى ٨٥/١ .
(٣) الفهرست ٧٣ ومعجم الأدباء ١١/١٣ وهدية العارفين - ذيل كشف الظنون ٦٦٨/٥ والأحمر وهو علي ابن الحسن البغدادي النحوي ، أخذ عن الكسائي والرواسي وكان مؤدب الأمين توفي ١٩٤ وقيل ٢٠٤ هـ وانظر تاريخ بغداد ١٠١/١٢ والوفيات ١٧٦/٦ وبغية الوعاة ١٥٨/٢.
(٤) الفهرست ٧٣ والوفيات ١٨١/٦ وإنباه الرواة ٢٢/٤ وإيضاح المكنون - ذيل كشف الظنون ٥/٣ وبروكلمان ١٩٩/٢ وانظر صناعة الكتاب ٦٥ و ٦٦ و ١٠٣ و ١٠٧ و ١٤١ و ١٥١ و ١٨٨ ومواضع أخرى كثيرة . والفراء هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الكوفي ، من أئمة اللغة والنحو ، أخذ عن الكسائي ، ووكل إليه المأمون تأديب ابنيه ، وله مؤلفات كثيرة من أشهرها " معاني القرآن " (ط) - توفي سنة (٢٠٧ هـ).

٤- أشراف الكتاب : للهيثم بن عدي (- ٢٠٧ هـ) . وهو - على ما يبدو من عنوانه - مخصص لمن اشتهر بالكتابة من الأنبياء والملوك والخلفاء والأمراء وأضرابهم من أشراف الكتاب الذين خصهم محمد بن حبيب (- ٢٤٥ هـ) بباب مفرد في " المحبر " سرد فيه أسماء عدد كبير منهم(١) .

٥- كتاب الألفاظ : للعتابي كلثوم بن عمرو (- ٢٠٨ هـ) (٢) وكان من كبار الكتاب " وأصحاب الرسائل الفاخرة "(٣) كما يقول الجاحظ الذي نقل إلينا بعض آرائه في الترسل والكتابة والبلاغة (٤) .

٦- ٨ كتاب البلاغة والخطب ، وكتاب الفقر ، وكتاب جامع الرسائل في ثمانية أجزاء ، وأضاف إليه تاسعا" اسمه : الكتاب الموصول نثره بالنظم(٥) : لمحمد ابن عبد الله بن غالب الأصبهاني المعروف بباح (- ٢١٠ هـ) (٦).

٩-١٢ رسائل النبي ، وكتاب أموال النبي وكتابه ، وكتاب كتب النبي إلى الملوك، وكتاب من كتب له النبي كتابا"وأمانا" : لأبي الحسن المدائني (- ٢٢٥ هـ)(٧).

١٣- كتاب الفصول في الرسائل المختارة : لليوسفي (نحو ٢٣٨ هـ) . وسماه

---

(١) الفهرست ١١٢ . وانظر المحبر ٣٧٧ " أسماء أشراف الكتاب " والهيثم بن عدي راوية عالم بالنسب والأدب والأخبار . الفهرست ١١٢ ووفيات الأعيان ١٠٦/٦-١١٤

(٢) معجم الأدباء ٢٩/١٧ . وعده صاحب الفهرست ١٣٩ في بلغاء الكتاب وذكر له ١٨٦ ديوان رسائل وانظر طبقات الشعراء المحدثين ٢٦١ - ٢٦٣ .

(٣) البيان والتبيين ٥١/١و١١٣و١١٦و١٦١و١٦٢و٢٢٠

(٤) ن . م ٥١/١ و ١١٣ و ١١٦ و ١٦١ و ١٦٢ و ٢٢٠ .

(٥) الفهرست ١٥١ .

(٦) ن.م ١٥١ وهدية العارفين ٢٦/٦

(٧) الفهرست ١١٣ - ١١٤ ومعجم الأدباء ١٢٩/١٤ - ١٣٠ وهدية العارفين ٦٧٠/٥ وبروكلمان ٣٨/٣ و سزكين ١٣٩/٢/١ . والمدائني علي بن محمد البصري سكن المدائن وتوفي ببغداد (- ٢٢٥ هـ) وكان مؤرخا وراوية .

صاحب هدية العارفين : " سر الفصول في الرسائل " وهو من كتب الاختيار كما يدل على ذلك عنوانه(١) .

١٤- ١٥- كتاب الألفاظ : لابن السكيت (- ٢٤٤ هـ) . وهو من أوائل الكتب المؤلفة في الالفاظ الكتابية ، وقد وصل إلينا كاملا" ، وطبع بعناية الأب لويس شيخو في بيروت ١٨٩٥م وضم إليه في حواشيه شرح التبريزي المسمى "تهذيب الألفاظ" ، كما ضم في المتن بعض زيادات التبريزي عليه ، وسمى عمله هذا : "كنز الحفاظ " ثم طبع المتن مع زيادات التبريزي في كتاب سماه "مختصر تهذيب الألفاظ " صدر في بيروت سنة ١٨٩٥م والكتاب مرتب على أبواب المعاني وعدتها ١٤٨ بابا ، كباب الغنى والفقر ، والخصب والجدب ، والمرض ، والألوان ، والعطاء ، وغيرها . وقد أفاد منه ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) في أدب الكاتب فضمنه معظم أبوابه ولم يشر إليه ، وكذلك فعل الهمذاني وأشار " في كل فصل إلى الباب الذي يوافقه في الألفاظ الكتابية "(٢) .

١٦- كتاب الرسائل : لأبي العبر الهاشمي (- ٢٥٠هـ)(٣) .

---

(١) الفهرست ١٣٧ وهدية العارفين ١٣/٦ وفيه أنه توفي ٢٣٨ هـ وفي بعض أخباره ما يدل على أنه كان حيا سنة ٢٦٠ هـ . وهو أبو الطيب محمد بن عبد الله بن أحمد بن يوسف وزير المأمون . وكان مترسلا بليغا وشاعرا مذكورا . انظر أخباره في الأوراق للصولي ٢٤٠/١ - ٢٥١ (أخبار الشعراء المحدثين).

(٢) مختصر تهذيب الألفاظ : مقدمة المحقق ٤٠ وانظر مقدمة محقق إصلاح المنطق ١١٠ وأبو يوسف يعقوب بن إسحق المعروف بابن السكيت (١٨٦ - ٢٤٤ هـ) من أكابر العلماء باللغة والنحو ، أخذ عن أبي عمرو الشيباني والفراء وابن الاعرابي وغيرهم ، وكان مؤدبا لأبناء المتوكل ، وله كتب كثيرة طبع منها : القلب والإبدال والأضداد وإصلاح المنطق والالفاظ . وانظر الفهرست ٧٩ وتاريخ بغداد ٢٧٣/١٤ وإنباه الرواة ٥٠/٤ والوفيات ٣٩٥/٦.

(٣) الفهرست ١٧٠ وهدية العارفين ١٥/٦ وأبو العبر الهاشمي هو أبو العباس محمد بن أحمد بن عبد الله من شعراء العصر العباسي الذين اشتهروا بالتحامق والخلاعة والمجون ، وله في ذلك أخبار وأشعار كثيرة (- ٢٥٠ هـ) . الأغاني ١٩٦/٢٣ - ٢٠٤ وأشعار أولاد الخلفاء للصولي ٢٢٣ - ٣٣٣ .

١٧-١٨ كتاب اخبار الكتاب ، وكتاب الرسائل : لداود بن الجراح الكاتب (-٢٥٢ هـ)(١).

١٩-٢٠ رسالة في مدح أخلاق الكتاب ، ورسالة في ذم أخلاق الكتاب : للجاحظ (-٢٥٥هـ)(٢) . وقد وصلت إلينا الرسالة الثانية ، وطبعت عدة مرات(٣) ، وتقع في ثلاث وعشرين صفحة ، تحدث فيها عن مساويء كتاب عصره ، وما كانوا يتصفون به من صلف وتكبر وبذخ وقلة أمانة ووفاء . ويبدو أنه قد خصص الثانية لمحاسنهم ، فبدا بذلك متناقضا" مع نفسه ، وإن كان قد اعتاد هذا الأسلوب في التأليف ، فكتب رسالتين في مدح الوراقين وذمهم(٤) ، وكتابا" في "المحاسن والأضداد" (٥) تناول فيه أكثر من ثمانين موضوعا" بدأها بمحاسن الكتاب وختمها بمحاسن الموت ، ووجد في ذلك بعض المؤلفين مطعنا" فيه ، فقال ابن قتيبة إنه " يعمل الشيء ونقيضه ويحتج لفضل السودان على البيضان ، وتجده مرة يحتج للعثمانية على الرافضة ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة . . . وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث" (٦) بيد أننا لا نجد في ذلك مأخذا" عليه ، لما قد يكون في طبائع الكتاب أو الوراقين أو غيرهم من محاسن ومساويء وأضداد ، يجد فيها المؤلفون - والمتكلمون منهم خاصة - مجالا" رحبا" للقول والكلام .

٢١- كتاب القلم وشرف الكتابة : لابن أبي الأصبع (نحو ٢٥٥ هـ) ، ذكر ابن

---

(١) الفهرست ١٤٣ وهدية العارفين ٣٥٩/٥ وأبو سليمان داود بن الجراح الكاتب جد علي بن عيسى الوزير ، كتب للمستعين ، وصنف في التاريخ وأخبار الوزراء والكتاب (- ٢٥٢ هـ) وانظر تاريخ بغداد ٣٦٩/٨ والوفيات ٤٧٣/١ .
(٢) الفهرست ٢١١ .
(٣) رسائل الجاحظ (هارون) ١٨٧/٢ - ٢٠٩ وثلاث رسائل للجاحظ (يوشع فنكل) ٤٠ - ٥٢ وآثار الجاحظ لعمر أبي النصر ٥١ - ٦٥ .
(٤) الفهرست ٢١١ .
(٥) المحاسن والأضداد ص ٥ (ط عطوي - بيروت) .
(٦) تأويل مختلف الحديث ٥٩ - ٦٠ (تحقيق النجار) و ٤١ - ٤٢ (ط بيروت).

النديم أنه نحو خمسين ورقة[1] .

٢٢- كتاب القلم وما جاء فيه : لأحمد بن أبي السرح الكاتب (نحو ٢٥٨ هـ) .[2]

٢٣- رسالة في رسم رقاع إلى الخلفاء والوزراء : للكندي الفيلسوف (نحو ٢٦٠هـ) [3].

٢٤- كتاب فقر البلغاء : لابن سعد القطربلي (- ٢٦١ هـ) : وهو من كتب الاختيار كما يدل على ذلك عنوانه[4].

٢٥- كتاب الكتاب : لعمر بن شبة (- ٢٦٢ هـ) ، ومن المرجح أن يكون في أخبار الكتاب على سنة ابن شبة في كتبه وتآليفه [5] .

---

(١) الفهرست ١٤١ وورد في هدية العارفين ٤٨/٥ باسم : العلم وشرف الكتابة ، وهو تصحيف ظاهر. وابن أبي الأصبع هو أبو العباس أحمد بن محمد ، من كتاب المعتمد ورجال دولته . ذكر صاحب الهدية أنه توفي سنة ٢٥٥ هـ، ووجدت له ذكرا في أحداث سنة ٢٦.٢ هـ في الوفيات ٤١٩/٦ . كما ذكره ياقوت في معجم الأدباء ٥٤/٣ ضمن أخبار أحمد بن سليمان بن وهب (- ٢٨٥ هـ) وروى رسالة من ابن وهب إليه .

(٢) الفهرست ١٤١ وهدية العارفين ٤٩/٥ وفيه : العلم بدلا من القلم . وكذلك ورد عند بروكلمان ١٢٨/٣ وذكر أنه صنف كتابه الراموز سنة ٢٧٤ هـ ولم يشر إلى تاريخ وفاته . وكان أبو العباس أحمد بن أبي السرح كاتبا قال ابن النديم " وله رسائل " وذكر له صاحب الهدية كتاب الرسائل ، ولعله يقصد: مجموع رسائله .

(٣) الفهرست ٠٣١٦ والكندي أبو يوسف يعقوب بن اسحق بن الصباح فيلسوف العرب ، وله مشاركة في علوم مختلفة ، وصنف فيها كتبا" كثيرة جدا . الفهرست ٣١٥ - ٣٢٠ وتاريخ حكماء الإسلام ٠٤١ وبروكلمان ١٦٧/٤ وفيه أنه توفي نحو ٢٥٦ هـ والأعلام ٣٩٥/٨ .

(٤) الفهرست ١٣٨ وهدية العارفين ٠٥٠/٥ والقطربلي أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن سعيد ابن مسعود من علماء الكتاب وأفاضلهم . له مؤلفات في التاريخ والمنطق والكتابة (- ٢٦١ هـ) .

(٥) الفهرست ١٢٥ ومعجم الأدباء ٠٦١/١٦ وأبو زيد عمر بن شبة بن عبيد أخباري مؤرخ وشاعر توفي بسر من رأى (- ٢٦٢ هـ) وانظر بروكلمان ٢٤/٣ وفيه أنه توفي ٢٦٤ أو ٢٦٣ هـ .

٢٦- كتاب البلاغة والخطابة : لأبي العباس جعفر بن أحمد المروزي (-نحو ٢٧٤هـ)(١)

٢٧-٢٨- أدب الكاتب(٢) ، وديوان الكتاب(٣) وآلة الكتاب(٤) ، وصناعة الكتابة(٥) والوزراء (٦) : لابن قتيبة (- ٢٧٦ هـ) ولم يصل إلينا منها سوى أدب الكاتب الذي ألفه للوزير ابن خاقان ومهد له بمقدمة طويلة(٧) ، وتحدث فيها عن دواعي تأليفه ، وما آل إليه حال الكتاب في عصره من تنكب عن سبل الأدب ، وزهد في المعرفة ، ورغبة عن التعلم ، وجهل بأصول الكتابة ، وأسهب في الحديث عن ثقافة الكاتب وصفاته وشمائله وأخلاقه ، وأوجز القول في أساليب الترسل ، وآداب المخاطبات ، ورسوم المكاتبات ، وقسم الكتاب بعد ذلك أربعة أقسام أو كتب هي : كتاب المعرفة، وكتاب تقويم اليد ، وكتاب تقويم اللسان ، وكتاب الأبنية ، وضمن كل كتاب منها عددا من الأبواب ، وكان جل اهتمامه فيها منصبا" على اللغة ، ولا نكاد نظفر فيها من آثار المادة النقدية على شيء ذي بال أو أهمية ، ولذلك ما قالوا إنه : " خطبة بلا كتاب"(٨) ، على حين عده ابن خلدون أصلا من أصول الثقافة الأدبية فقال : " وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين هي: أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي "(٩).

---

(١) الفهرست ١٦٧ وهدية العارفين ٢٥٢/٥ ومعجم الأدباء ١٥١/٧ . والمروزي كاتب مؤلف في كثير من العلوم ، توفي بالأهواز ، وحملت كتبه إلى بغداد وبيعت فيها سنة ٢٧٤ هـ - الفهرست ١٦٧

(٣) طبع مرات كثيرة أولها في ليدن (١٩٠٠ م) بعناية جرونرت ، وآخرها في بيروت (١٩٨٢) بعناية محمد الدالي .

(٣) الفهرست ٨٦ وهدية العارفين ٤٤١/٥ .

(٤ و ٥) ذكرهما السيد صقر في مقدمة تأويل مختلف القرآن ٢٢ نقلا عن بعض المصادر ، ولعلها كتاب ديوان الكتاب نفسه الذي ذكره ابن النديم وغيره من المتقدمين ولم يرد لهذين الكتابين عندهم ذكر .

(٦) ذكره ابن منظور في لسان العرب ١٤٣/١٣ (بولاق) و ٢٢٠/١١ (صادر) مادة خلل .

(٧) أدب الكاتب ١ - ١٦ .

(٨) وفيات الأعيان ٤٣/٣ .

(٩) المقدمة ١٠٧٠ .

وقد حظي هذا الكتاب بنصيب وافر جدا" من عناية المؤلفين والدارسين على مر العصور ، فألفت في الرد عليه أو التنبيه على أغلاطه فيه ، أو شرح خطبته أو شرح أبياته أو شرحه كاملا" ، أو تلخيصه كتب كثيرة[1] لعل أسبقها في الظهور كتاب " غلط أدب الكاتب لابن كيسان (– ٢٩٩ هـ)[2] " وشرح أدب الكاتب"[3] للزجاجي (– ٣٣٧ هـ) و " شرح خطبة أدب الكاتب "[4] للخازرنجي (– ٣٤٨ هـ) و " شرح أدب الكاتب "[5] للفارابي إسحق بن إبراهيم (– ٣٥٠ هـ) و " شرح أدب الكاتب "[6] للزهراوي (نحو ٣٥٠ هـ) و"شرح خطبة أدب الكاتب "[7] لعبد الباقي بن محمد (–٣٩٠ هـ) ، وألفت بعد القرن الرابع كتب أخرى كثيرة

---

(١) انظر بروكلمان ٢٢٦/٢ ومقدمة محقق تأويل مختلف القرآن ٢٢ ومقدمة عيون الأخبار ٣٢/١ – ٣٢

(٢) الفهرست ٨٩ وصناعة الكتاب ٣٥ ومعجم الأدباء ١٣٩/١٧ وتاريخ بغداد ٣٣٥/١ وإنباه الرواة ٥٩/٣ والأعلام ٣٠٨/٥ . وابن كيسان محمد بن أحمد بن ابراهيم أبو الحسن النحوي أخذ عن المبرد وثعلب وتوفي ٢٩٩ هـ وقيل ٣٢٠ هـ .

(٣) إنباه الرواة ١٦٠/٢ وفيه إنه شرح مقدمة أدب الكاتب ، ورد عليه فيها جماعة من العلماء " وذكر غيره أنه شرحه كاملا ، وانظر هدية العارفين ٥١٣/٥ ومنه عدة نسخ خطية ذكرها بروكلمان ٢٢٦/٢ والسيد صقر في مقدمة تأويل مختلف القرآن ٠٢٢ والزجاجي أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق النحوي من تلاميذ الزجاج وإليه ينسب ، ولد بنهاوند ودرس ببغداد ورحل إلى الشام وتوفي بطبرية ٣٢٧ هـ .

(٤) هدية العارفين ٦٣/٥ ومقدمة عيون الأخبار ٣٣/١ . والخازرنجي أحمد بن محمد البستي من أئمة أهل الأدب بخراسان ، قدم بغداد حاجا (٣٣٠ هـ) وشهد له مشايخ العراق بالتقدم وتوفي (– ٣٤٨هـ) وذكر بروكلمان أنه توفي (٤٠٨ هـ) وانظر إنباه الرواة ١٤٢/١ – ١٤٨

(٥) هدية العارفين ١٩٩/٥ ونسبه في ٢٠٩/٥ إلى الجوهري ابن أخت الفارابي ويبدو أنه كان يتحمل كتب خاله ويرويها . مقدمة تأويل مختلف القرآن ٢٢ ومقدمة عيون الأخبار ٣٢/١ . والفارابي اسحق بن ابراهيم أديب لغوي من فاراب وانتقل إلى اليمن وبها توفي نحو ٣٥٠ هـ . معجم الأدباء ٦١/٦ والأعلام ٢٩٣/١.

(٦) هدية العارفين ٣٩٦/٥ ومقدمة تأويل مختلف القرآن ٢٢ ومقدمة عيون الأخبار ٣٢/١ والزهراوي سليمان بن محمد أديب ولغوي أندلسي رحل إلى المشرق وأخذ عن الزجاجي والسيرا في ببغداد (– نحو ٣٥٠ هـ) .

(٧) ومنه عدة نسخ خطية ذكرها بروكلمان ١٢٦/٢ . وعبد الباقي بن محمد نحوي من أهل بغداد له " شرح حروف العطف " وغيره (– ٣٩٠ هـ) وانظر هدية العارفين ٥/ ٤٩٩ .

مماثلة لعل أهمها وأشهرها " كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب "[1] لابن السيد البطليوسي (– ٥٢١ هـ) الذي قسمه ثلاثة أجزاء: شرح في أولها خطبته ، ونبه في ثانيها على أغاليطه ، وشرح في ثالثها أبياته .

٣٩- رسالة في الكتابة والخط : لأبي العباس أحمد بن ثوابة الكاتب (–٢٧٧هـ)[2].

٤٠- الرسالة العذراء : لابراهيم بن المدبر[3] (– ٢٧٩ هـ) وهي من الرسائل التي وصلت إلينا ، واعتني بتحقيقها ونشرها د. زكي مبارك (١٣٥٠هـ–١٩٣١م) وتقع في نحو عشرين صفحة ، وعمد في صدرها إلى تحديد منهجه فيها فقال: واستكشفتني عن غوامض أدوات الكتابة ، وسألتني أن أقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته ، وحدود فخامة المعنى وجزالته ، ورشاقة نظم الكتاب، وحسن افتتاحه وختمه ، وانتهاء فصوله ، وابتداء وصوله ، وسلامتها من الزلل ، وبعدها من الخطل ، ومتى يكون الكاتب مستحقا" اسم الكتابة ، والبليغ مسلما" له بمعاني البلاغة في إشاراته واستعاراته، وإلى أي أدواته هو أحوج ، وبأي آلاته هو أعمل وأنا راسم لك من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك "[4].

وبدأ بالحديث عن ثقافة الكاتب ، وما يحتاج إلى تحصيله من ألوان المعارف الدينية واللغوية والأدبية وغيرها ، وأردف ذلك حديثا آخر عن صفاته وأخلاقه وشمائله ، وانتقل إلى الحديث عن أصول فن الترسل وأساليبه ، ورسومه وقواعده

---

(١) طبع عدة مرات لعل أولها في بيروت ١٩٩٠ م بعناية عبد الله البستاني وآخرها في بيروت ١٩٨٧ . وابن السيد البطليوسي أبو محمد عبد الله بن محمد من كبار العلماء بالنحو واللغة والأدب بالأندلس (– ٥٢١ هـ) وانظر إنباه الرواة ١٤١/٢٥ – ١٤٣ وبغية الملتمس ٣٣٧ .

(٢) الفهرست ١٤٤ ومعجم الادباء ١٤٦/٤ وهدية العارفين ٥١/٥ . وابن ثوابة أبو العباس أحمد بن محمد من كبار الكتاب ورؤساء الدواوين في الدولة العباسية (– ٢٧٧ هـ) .

(٣) ابراهيم بن محمد بن المدبر أبو اسحق : من الوزراء والكتاب الشعراء ، ولي خراج فلسطين للمهتدي ثم وزر وكان صديقا للجاحظ وبينهما مكاتبات (– ٢٧٩ هـ) . الفهرست ١٣٧ ومعجم الأدباء ٢٢٦/١ .

(٤) الرسالة العذراء ٥ – ٦ .

وآدابه ، وعرج في أثناء ذلك على بعض الجوانب النقدية والبلاغية ، فردد بعض الأقوال المعروفة في البلاغة ، والملاءمة بين الخطاب وأقدار المخاطبين ، وعلاقة اللفظ بالمعنى ، مستفيدا" في ذلك كله من رسالة عبد الحميد ، وأدب ابن قتيبة ، وبيان الجاحظ خاصة ، فجمع متفرق آرائهم ، وأعاد ترتيبها وتنسيقها وتنظيمها ، وأسبغ عليها شيئا" من خبرته بأصول صنعة الكتابة ، وقال في خاتمتها : " وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معان لم تفترعها بلاغة الناطقين ، ولا لمستها أكف المفوهين ، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين ، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين"(1) ، وقد تأثر بذلك بعض الدارسين فذهب بروكلمان إلى القول : " إن ابن المدبر أول من صنف في صناعة النثر"(2) وتابعه في ذلك بعض المؤلفين(3) وقد أتينا قبل قليل على ذكر عدد كبير من الكتب المؤلفة في صناعة النثر والكتابة قبل ابن المدبر، وسنقف بعد حين قريب على بعض آرائه فيها ، ونوازن بينها وبين غيرها من الآراء التي تأثر بها .

٤١- المنظوم والمنثور : لابن أبي طاهر طيفور(4) (- ٢٨٠ هـ) ذكر ابن النديم وغيره أنه في " أربعة عشر جزءا ، والذي بيد الناس ثلاثة عشر جزءا "(5) ، وصل إلينا منها الأجزاء الثلاثة الأخيرة ، وتشتمل على : بلاغات النساء ، وكل قصيدة ورسالة لا يوجد لشيء منها مثل ، وفصول مختارة من كل فن كتب بها الكتاب المتقدمون والمتأخرون ، وقد نشر معظم ما في هذه الأجزاء(6) ، وهي تدل على أنه من كتب الاختيار والنقد ، في الشعر والنثر ، وأنه يتضمن " بعض الرسائل القليلة للأمويين ، وبحرا" زاخرا" من رسائل العباسيين"(7) وأنه قد اعتمد في تأليفه منهجا"

---

(1) ن . م ٤٨ .
(2) تاريخ الأدب العربي ١١٧/٢ .
(3) العصر العباسي الثاني ١٢١ .
(4) أديب ومؤرخ بغدادي . الفهرست ١٦٣ وتاريخ بغداد ٢١١/٤ ومعجم الأدباء ٨٧/٣ .
(5) الفهرست ١٦٣ انظر هدية العارفين ٥٢/٥ ومعجم الأدباء ٩/٣ وبروكلمان ٢٧/٣ - ٢٨ وسزكين ٢١٥/٢/١ .
(6) نشر الجزء الحادي عشر بعنوان " بلاغات النساء " في القاهرة ١٩٠٨ بتحقيق أحمد الألفي . ونشر ما فيه من الرسائل في جمهرة رسائل العرب لصفوت ، ورسائل البلغاء لكرد علي ، كما نشر د. غياض منه " القصائد المفردات التي لا مثيل لها " .
(7) جمهرة رسائل العرب ٢ / ج (المقدمة)

خاصا" ، أفرد فيه بلاغات النساء في المنثور بجزء خاص ، وخصص قسما" منه للرسائل التي أجمع الناس على جودتها ، وآخر للرسائل المختارة موزعة بحسب الأغراض ، وكثيرا" ما يعمد إلى التصدير للنص المختار بمقدمة نقدية يجمل فيها أهم خصائصه ، كقوله في التصدير لرسالة ابن المقفع المعروفة باليتيمة : "ومن الرسائل المفردات اللواتي لانظير لها ولا أشباه وهي أركان البلاغة ، ومنها استقى البلغاء ، لأنها نهاية في المختار من الكلام ، وحسن التأليف والنظام ، الرسالة التي لابن المقفع اليتيمة ، فإن الناس جميعا" مجمعون أنه لم يعبر أحد مثلها ، ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها . ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرواة "[1] . وأتبعها عدة رسائل أخرى مما أجمع الناس على استحسانه من رسائل البلغاء .

٤٢- كتاب ديوان الرسائل ، أو كتاب الرسائل : للمرثدي (- ٢٨٦ هـ)[2] .

٤٣- كتاب آلة الكتاب للمفضل بن سلمة (- ٢٩٠ هـ)[3] .

٤٤- طبقات الكتاب : لأبي علي الأنباري المعروف بنطاحة (- ٢٩٠ هـ)[4].

(١) رسائل البلغاء ١٠٧ .

(٢) الفهرست ١٤٣ وهدية العارفين ٥٢/٥ وفيه : كتاب الرسائل . والمرثدي أحمد بن محمد بن بشر بن سعد : أخباري مصنف من أصحاب ابن الرومي الشاعر (- ٢٨٦ هـ) .

(٣) الفهرست ٨٠ وإيضاح المكنون ٥/٣ وإنباه الرواة ٣٠٦/٣ وفيها : " آلة الكاتب أو ما يحتاج إليه الكاتب " واكتفى صاحب الوفيات ٢٠٦/٤ بذكر " كتاب ما يحتاج إليه الكاتب " ولم يذكر آلة الكاتب مما يدل أنه المقصود . والمفضل بن سلمة عاصم الضبي أبو طالب نحوي كوفي من تلاميذ ابن السكيت وابن الأعرابي (- ٢٩٠ هـ) وانظر بروكلمان ٢٠٩/٢ .

(٤) الفهرست ١٣٨ ومعجم الأدباء ٢٢٧/٢ وهدية العارفين ٥٣/٥. ونطاحة هو أبو علي أحمد بن اسماعيل بن ابراهيم الخصيب الأنباري : مترسل شاعر بليغ من أصحاب ابن المعتز وكان كاتبا لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر (- ٢٩٠ هـ) . وانظر الإعلام ٩٦/١ .

٤٥- كتاب مختصر ما يستعمله الكاتب : لابن هبيرة النحوي المعروف بصعودا (- ٢٩٥ هـ)[١] .

٤٦- كتاب مكاتبة الأخوان بالشعر : لابن المعتز (- ٢٩٦ هـ)[٢] .

٤٧- كتاب الوزراء : لمحمد بن داود الجراح (- ٢٩٦ هـ) [٣] .

٤٨- كتاب مصابيح الكتاب لمحمد بن كيسان (- ٣٩٩ هـ) صاحب كتاب " غلط أدب الكاتب " الذي مر ذكره في أثناء الحديث عن كتاب ابن قتيبة أدب الكاتب[٤] .

٤٩- كتاب البراعة والفصاحة : لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر (- ٣٠٠ هـ)[٥].

٥٠- كتاب المنتهي في الكمال : لمحمد بن سهل بن المرزبان (بعد ٣٠٠ هـ) وهو من الكتب الضخمة التي تجمع بين الاختيار والنقد والتعليم ، ويحتوي على اثني عشر جزءا" أو كتابا" " وهي : كتاب مدح الأدب ، وكتاب صفة البلاغة ،

---

(١) الفهرست ٨٠ وقال : رأيته بإصلاح ابن المعتز . وإنباه الرواة ٨٥/٢ وقال : وهذبه ابن المعتز ، ومعجم الأدباء ١٠٥/١٩ . وهدية العارفين ٢٢/٦ وفيهما : كتاب في ما يستعمله الكاتب ، فلعله الأصل الذي اختصره ابن المعتز وهذبه . وصعودا هو محمد بن هبيرة الأسدي أبو سعيد من العلماء بالنحو واللغة ، وكان منقطعا إلى ابن المعتز (- ٢٩٥ هـ) .

(٢) الفهرست ١٣٠ والوفيات ٧٧/٣ وهدية العارفين ٤٤٣/٥ .

(٣) الفهرست ١٤٢ والوفيات ٤٢٧/١ ومعجم الأدباء ١٣٩/١٧ وهدية العارفين ٢٢/٦ وبروكلمان ٦٦/٣ والأعلام ١٢٠/٦ . ومحمد بن داود بن الجراح أبو عبد الله أديب مصنف كان من أصحاب ابن المعتز ووزر له في يومي خلافته وقتل في فتنته (- ٢٩٦ هـ) .

(٤) الفهرست ٨٩ ومعجم الأدباء ١٣٩/١٧ وتاريخ بغداد ٣٣٥/١ وإنباه الرواة ٥٩/٣ وهدية العارفين ٢٣/٦ . وابن كيسان محمد بن أحمد بن ابراهيم نحوي أخذ عن ثعلب والمبرد وتوفي ٢٩٩ وقيل ٣٢٠ هـ .

(٥) الفهرست ١٣١ والوفيات ١٢٣/٣ . وعبيد الله بن طاهر شاعر مترسل ولي شرطة بغداد وله عدة مؤلفات (- ٣٠٠ هـ) .

وكتاب الدعاء والتحاميد ، وكتاب الشوق والفراق ، وكتاب الحنين إلى الأوطان ، وكتاب التهاني والتعازي ، وكتاب الآمل والمأمول ، وكتاب التشبيبات ، وكتاب الحمد والذم ، وكتاب الاعتذارات ، وكتاب الألفاظ ، وكتاب نفائس الحكم "(١) . وقد عثرنا على الكتاب الحادي عشر منه ضمن مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، برقم ١٨٦٠٠ ، وجرى فيه على سنة المؤلفين في الألفاظ الكتابية ، وقال في صدره: "هذا كتاب جمعناه ضروبا" ، وألفناه فنونا" ، وصنعناه أجناسا" ، وفصلناه فصولا" من الفصول المتسقة ، والشذور المنتظمة ، والألفاظ المختلفة ، والمعاني المتفقة "(٢) وقسمه بعد ذلك أبوابا" ، ضمن كل باب منها طائفة من التعابير الكتابية ذوات المعاني المتفقة ، والألفاظ المختلفة ، موزعة على أغراض الترسل ، ومما ورد في بعض هذه الأبواب قوله في معنى التشوق في الرسائل الأخوانية : " كتابي وقد استقرت بي الدار ، وألقيت عصا الأسفار وتبوأت طمأنينة القرار ..."(٣) وقوله في باب يشتمل على بعض الألفاظ في معنى الوصف : " باب: عجمته الخطوب ، ونجدته الأمور ، وحنكته التجارب ... "(٤) .

٥١- كتاب طبقات الكتاب بالأندلس : للأفشيتين النحوي الأندلسي (-٣٠٧ هـ)(٥).

٥٢-٥٣- كتاب امتحان الكتاب وديوان ذوي الألباب ، وكتاب الرسائل : لابن حمادة

---

(١) الفهرست ١٥٢ وهدية العارفين ٢٧/٦ وإيضاح المكنون ٣٠٨/٤ ومحمد بن سهل بن المرزبان الكرخي أحد البلغاء الفصحاء من أهل بغداد كان يدعى : الباحث عن معتاص العلم توفي بعد ٣٠٠هـ ببغداد . وفي اليتيمة ٣٩١/٤ ذكر " لأبي نصر سهل بن المرزبان من أصبهان ومستوطنه الآن نيسا بور " شاعر ومصنف من أصحاب الثعالبي ، ترجم له الزركلي في الأعلام ١٤٣/٣ ونسب إليه كتاب الألفاظ وهو أحد أجزاء المنتهى في الكمال لمحمد بن سهل بن المزربان ، وهو غير سهل بن المرزبان المتوفي ٤٢٠هـ .

(٢) كتاب الألفاظ - المخطوط - ق ٢/أ .

(٣) ن ٠ م ق ١٠/أ .

(٤) ن ٠ م ق ٦٢/أ .

(٥) جذوة المقتبس ٨٨ وإنباه الرواة ٢١٦/٣هـ وهدية العارفين ٢٥/٦ وسزكين ٢٩/٥/٢ . والأفتشتين أبوعبدالله محمد بن موسى بن هاشم : لغوي نحوي متصرف في علم الأدب من أهل قرطبة ، له رحلة إلى المشرق . توفي - ٣٠٧هـ .

الكاتب (- ٣١٠ هـ)[١] .

٥٤- كتاب الزيادات في أخبار الوزراء : لابن عمار الثقفي الكاتب (-٣١٩هـ) زاد فيه على كتاب الوزراء لابن الجراح [٢] .

٥٥- الألفاظ الكتابية : لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني (-٣٢٠هـ)[٣] وهو من الكتب التى وصلت إلينا وتم تحقيقها ونشرها ، ويشتمل على مقدمة في فضل صناعة الكتابة ، وقلة اهتمام الكتاب في عصره بثقافتهم ، وعدم معرفتهم بأصول صناعتهم وأساليبها ، وندرة نقاد هذه الصناعة الذين تقع على كواهلهم أعباء تمييز جيدها من رديئها ، وإرشاد الكتاب إلى السبيل السوي فيها ، وأشار في أثنائها إلى أساليب الكتاب والمترسلين في أيامه ، وأخذ عليهم الكلف بالغريب حبا" بالتميز من العامة ، وتبجحا" بالحفظ والرواية ، وادعاءا" للفصاحة والبلاغة ، ووقف على بعض القضايا النقدية المهمة ، ففرق بين الأثر الثقافي والسرقة ، وأوجز القول في علاقة اللفظ بالمعنى ، وختم هذه المقدمة النقدية المهمة بالإشارة إلى أهمية معرفة الكاتب برسوم المكاتبات وأصول المخاطبات، وقال في ذلك : "والكتابة من أعلى الصناعات وأكرمها ، وأسمقها بأصحابها إلى معالي الأمور ، وشرائف الرتب ومن آفاتها أن المتأخر فيها لا يمتنع من ادعاء منزلة المتقدم ... والمتقدم لا يقدر على تثبيت نقص المتخلف..لدروس أعلام هذه الصناعة ، وقلة من يرجع إليه فيها ... وقد وجدت من المتأخرين في الآلة قوما" أخطأهم الاتساع في الكلام فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة..وألفيت آخرين يمزجون ألفاظا" يسيرة قد حفظوها من ألفاظ كتاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس،

---

(١) الفهرست ١٤٥ وهدية العارفين ٠٧٥/٥ وابن حمادة أحمد بن محمد البغدادي من أفاضل الكتاب .

(٢) الفهرست ١٦٦ وهدية العارفين ٥٨/٥ وفيه " أخبار الوزراء " . وابن عمار الثقفي هو أبو العباس أحمد بن عبيدالله بن محمد الكاتب صحب محمد بن داود الجراح وله كتب كثيرة في أخبار الشعراء والتواريخ (-٣١٩هـ) .

(٣) والهمداني عبدالرحمن بن عيسى الهمذاني كاتب بكر بن أبي دلف وكان شاعرا" كاتبا" (-٣٢٠هـ) الفهرست ١٥٢ وإنباه الرواة ١٦٦/٢ .

السليمة من التقعير . . . في كل فن من فنون المخاطبات . . فإذا عرفها العارف بها كانت له مادة قوية ، وعونا" وظهيرا"(١).

ثم قسم كتابه بعد ذلك أبوابا" تبدأ بباب ما في معنى إصلاح الفاسد ، وتنتهي بباب التشبيهات ، وضمن كل باب منها طائفة من الألفاظ والتعابير في معناه ، وكثيرا" ما يعمد إلى شرحها وإيضاح دلالاتها كقوله في " باب البلاغة ومدح البليغ : ومن أجناس البلاغة : البيان واللسان والذرابة والذلاقة والخلابة والفصاحة والخطابة . . . والخلابة : الخديعة باللسان . . . وتقول في مدح البليغ ووصفه : هو بحر لا ينزف وغمر لا يسبر ، يواتيه الكلام ويتابعه ، ولا يطاق لسانه ولا يطال ..."(٢). وقد تعلق الكتاب بهذا الكتاب ، وقنعوا به مادة ثقافية تغنيهم عن الدرس والتحصيل والمتابعة مما أثار حفيظة بعض الكتاب والنقاد ، فقال الصاحب بن عباد: " لو أدركت الهمذاني لأمرت بقطع يده ولسانه . . لأنه جمع شذور العربية في أوراق يسيرة ، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ، ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ "(٣) ، على حين قال الوزير القفطي في تقريظه : " وألفاظه من الألفاظ اللغوية المختارة ، وهي أحسن ما يستعمله الكتاب ، وقد شرحها جماعة من الكتاب "(٤) .

٥٦- أدب الكتاب : لابن دريد (- ٣٢١ هـ) ألفه "على مثال كتاب ابن قتيبة ، ولم يجرده عن المسودة فلم يخرج منه شيء يعول عليه"(٥) .

٥٧ - ٥٩ - كتاب فضل صناعة الكتابة ، وكتاب منية الكتاب ، وكتاب رسوم الكتب: لأبي زيد البلخي (- ٣٢٢ هـ) (٦) .

---

(١) الالفاظ الكتابة ح - ط
(٢) ن . م ١٨٤ .
(٣) ن . م : ص . ب
(٤) إنباه الرواة ١٦٦/٢ .
(٥) الفهرست ٦٧ وفي إنباه الرواة ٩٧/٣ والكشف ٤٨/١ " أدب الكاتب " . وابن دريد هو أبو بكر محمد ابن الحسن الأزدي ، من كبار العلماء باللغة والنحو والأدب ولد بالبصرة وأخذ فيها عن علمائها وقدم بغداد ٣٠٨ هـ وبها توفي (٢٢٣ - ٣٢١ هـ) . الوفيات ٣٢٣/٤ - ٣٢٩ .
(٦) الفهرست ١٥٣ ومعجم الأدباء ٦٦/٣ وهدية العارفين ٥٩/٥

٦٠-٦١- كتاب الدواوين ، وكتاب الرسائل : لابن أبي عون الأنباري (- ٣٢٢هـ) [١] .

٦٢- كتاب الوزراء : لابراهيم بن محمد المعروف بنفطويه (- ٣٢٣ هـ)[٢] .

٦٣- أخبار قدماء البلغاء : لابن أبي الأزهر البوسنجي (- ٣٢٥ هـ)[٣] .

٦٤- أدب الكتاب : لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (- ٣٢٨ هـ) قال ابن النديم : إنه لم يتمه . [٤] .

٦٥- رسالة في أسماء بلغاء الكتاب وأنواع المكاتبات : للوزير أبي علي بن مقلة (-٣٢٨ هـ) نقل منها ابن النديم أسماء بعض الكتاب وأنواع ما كتب فيه [٥].

٦٦- آيين مثالات كتب العهود للخلفاء والأمراء : للوزير الجيهاني (- ٣٣٠ هـ)[٦]

---

(١) الفهرست ١٦٤ وهدية العارفين ٥/٥ وابن أبي عون هو أبو اسحق أبراهيم بن أحمد المنجم البغدادي الكاتب من أصحاب الشلمغاني وقتل معه سنة (- ٣٢٢ هـ). وانظر الوفيات ١٥٦/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٢٧٢/١ ونفطويه هو أبو عبدالله ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي : لغوي نحوي كوفي أخذ عن ثعلب والمبرد وتوفي بالكوفة (٢٤٤ - ٣٢٣ هـ) . وانظر الفهرست ٩٠ والوفيات ٤٧/١ - ٤٨ والهدية ٥/٥ وليس فيها ذكر لهذا الكتاب .

(٣) الفهرست ١٦٥ وهدية العارفين ٣٤/٦ . والبوسنجي أبو بكر محمد بن أحمد بن فريد الخزاعي المعروف بابن أبي الأزهر : أخباري نحوي كان يكتب للمبرد (٢٣٨ - ٣٢٥ هـ) وانظر بروكلمان ١٣٨/٣ .

(٤) الفهرست ٨٢ ومعجم الأدباء ٣١٤/١٨ وإنباه الرواة ٢٠٨/٣ وكشف الظنون ٤٨/١ وابن الأنباري محمد بن القاسم أبو بكر من كبار العلماء باللغة والنحو والأخبار والأدب ، له مؤلفات كثيرة (٢٣١ - ٣٢٨ هـ) وبروكلمان ٢١٤/٢٥ .

(٥) الفهرست ١٣٩ - ١٤٠ وأبو علي محمد بن علي بن الحسن بن مقلة كاتب بليغ وخطاط بارع استوزره المقتدر والقاهر والراضي واتهم بالتآمر على ابن رائق فقطع يده وسجنه وتوفي في سجنه. (٢٧٢ - ٣٢٨ هـ) وانظر الوفيات ١١٣/٥ - ١١٨ وإنباه الرواة ٢١١/١ - ٢١٧ وبروكلمان ٣٣٠/٤ والأعلام ٢٧٣/٦ .

(٦) الفهرست ١٥٣ وهدية العارفين ٣٦/٦ وورد فيه محرفا إلى : الآيين في المقالات . والآيين: الدستور. والجيهاني أحمد بن محمد بن نصر أبو عبد الله وزير نصر بن أحمد الساماني في خراسان ، له مؤلفات في الخراج والكتابة (- ٣٣٠ هـ) وانظر بروكلمان ٢٤٤/٤ .

وهو – كما يبدو من عنوانه – من الكتب التعليمية ، وقد مر ذكر رسالة مشابهة للكندي رقم ٢٣ .

٦٧– كتاب مراسلات الأخوان ومحاورات الخلان : لعلي بن مهدي الكسروي (–٣٢٠هـ)(١) .

٦٨ – ٦٩ – رسالة الفرق بين المترسل والشاعر ، وكتاب الرسائل السلطانيات والأخوانيات : لسنان بن ثابت بن قرة (– ٣٣١ هـ) (٢) .

٧٠– الوزراء والكتاب : للجهشياري (٣٣١ هـ) وهو من الكتب التي وصلت إلينا، وقام بتحقيقه ونشره عدد من الأساتذة سنة ١٩٣٨ . ويعد من أهم ما وصل إلينا من المؤلفات التي تتناول تاريخ الكتابة العربية والدواوين وأخبار الكتاب والوزراء والمترسلين منذ زمن الرسول (ص) إلى خلافة المأمون ، وروى فيه بعض كتبهم ورسائلهم وبعض الآراء النقدية في الكتابة والكتاب ، وطرفا" من تاريخ الدواوين عند الفرس(٣).

٧١ –كتاب الكتاب والصناعة : لابن زنجي محمد بن إسماعيل الكاتب(–٣٣٤هـ)(٤)

---

(١) الفهرست ١٦٧ وورد فيه باسم : "مراسلات الاخوان ومحابات الخلان" ومعجم الأدباء ٩٥/١٥ وهدية العارفين ٦٧٨/٥ وفيهما : محاورات الخلان . وعلي بن مهدي الكسروي أبو الحسين البغدادي أديب حافظ كان يعمل مؤدبا لأولاد الخاصة وله بعض التصانيف (– ٣٣٠ هـ).

(٢) معجم الأدباء ٢٦٣/١١ وهدية العارفين ٤٨/٥ رسالة الفرق بين المترسل والشاعر فقط . وسنان بن ثابت الحراني طبيب مشارك في علوم كثيرة من أهل بغداد (– ٣٢١ هـ) الفهرست ٣٣٢ و ٣٥٩ ومعجم الأدباء ٢٦٣/١١ والأعلام ١٤١/٣ .

(٣) طبع بتحقيق السقا والأبياري وشلبي في القاهرة سنة ١٩٣٨ ونشره الصاوي في هذه السنة أيضا ، وذكر بروكلمان ٥٥/٣ أنه طبع قبل ذلك في ليبزغ سنة ١٩٢٦ بعناية فون مجيك . وللكتاب بقية لم تظهر بعد . والجهشياري محمد بن عبدوس أبو عبد الله الكوفي نشأ في بغداد وخلف والده في الحجابة للوزير علي بن عيسى ثم لحامد بن العباس ، وألف بعض الكتب في الشعر والأخبار والأسمار (– ٣٣١ هـ) وانظر الفهرست ١٤١ وهدية العارفين ٣٤/٦ وسزكين ١٧٥/٢/١ .

(٤) الفهرست ١٤٦ ومعجم الأدباء ٣٠/١٨ وهدية العارفين ٣٨/٦٠ وسزكين ٢٧٨/٢/١ وابن زنجي محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البغدادي الكاتب (– ٣٣٤ هـ) وفي الأوراق – أخبار الراضي ٨٥ أنه توفي ٣٢٤ هـ .

٧٢ - كتاب الكتاب وسياسة المملكة : للوزير علي بن عيسى (- ٣٣٤ هـ) (١).

٧٣ - ٧٤ - أدب الكتاب ، وكتاب الوزراء : لأبي بكر الصولي (- ٣٣٥ هـ)(٢)، وصل إلينا أولهما ، وقام بتحقيقه ونشره الشيخ محمد بهجة الأثري في القاهرة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م، وقسمه ثلاثة أجزاء ، يتضمن كل جزء منها عددا" من الأبواب ، تناول في أولها فضل صنعة الكتابة ، وتاريخ الخط العربي ، وأنواعه وأدواته ، وخصص الثاني للحديث عن صنعة الكتابة : أدواتها ورسومها وقواعدها وأصولها ، وتاريخ الدواوين عند العرب ، وجعل الثالث للحديث عن الخراج والأموال ، وأصول مكاتبة الرؤساء والعمال والأخوان ، وختمه ببعض المباحث اللغوية والفوائد الصرفية والإملائية التي تهم الكاتب ، وأكثر - في أثناء ذلك كله - من إيراد الشواهد الشعريه والنثرية ، ولم يخل الكتاب من بعض الآراء النقدية المهمة التي وردت في خطبته ، وتناثرت في ثنايا أبوابه ، والأخيرة منها خاصة ، كحديثه عن الإيجاز والبلاغة ومكاتبة الأخوان في الجزء الثالث(٣) ، على أن الكتاب بمجمله يبحث في أدب الكتابة وأدواتها دون الكتاب ، وإن كان يحمل اسمهم عنوانا" له ، وقد نقل إلينا الصولي نفسه آراء بعض معاصريه فيه ، فذكر في الأوراق أن الوزير ابن شيرزاد " وجه إلي يأمرني أن أحمل إليه كتاب الكتاب الذي ألفته فاستحسنه ، وكان جميع من يدخل إليه ممن يأنس به ، ويعلم أنه يفهم ، يقول له : لقد سرني أنه بقي في الزمان من يحسن أن يؤلف مثل هذا "(٤) .

(١) الفهرست ١٤٢ وهدية العارفين ٦٧٨/٥ . وعلي بن عيسى بن داود الجراح من كبار الكتاب والوزراء في الدولة العباسية ، وزر للمقتدر والقاهر وتوفي سنة ٣٣٤ هـ .

(٢) كتاب الوزراء : ذكره الصولي نفسه في الأوراق - أخبار الشعراء المحدثين ٢٠٦ فقال في صدر أخبار أحمد بن يوسف " وقد استقصيت أخباره في كتاب الوزراء الذي ألفته " كما ذكره في آخر أخباره ٢٣٦ وذكره ابن النديم في الفهرست ١٦٨ . والوفيات ٤٥/١ و ٣٥٦/٤ وصاحب الكشف ٤٨ والصولي راوية أديب ومؤلف نادم خلفاء بني العباس . الفهرست ١٦٧ - ١٦٨ والوفيات ٣٥٦/٤ - ٣٦١ وتاريخ بغداد ٤٢٧/٣ .

(٣) أدب الكتاب ٢٢٨ - ٢٣٦

(٤) الأوراق - أخبار الراضي ٩٠

٧٥-٧٨ كتاب جواهر الألفاظ ، وكتاب الخراج وصنعة الكتابة ، وكتاب سر البلاغة في الكتابة ، ورسالة النجم الثاقب : لقدامة بن جعفر (-٣٧٧ هـ) ، ولم يصل إلينا منها كاملا سوى جواهر الألفاظ الذي اعتنى بتحقيقه ونشره محمد محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٣٢م ، وهو من كتب الألفاظ المختارة ، والتعابير الكتابية المؤلفة وفق منهج محدد ومدروس أوضح حدوده في مقدمته فقال : " هذا كتاب يشتمل على معان متفقة مؤتلفة وأبواب موضونة بحروف مسجعة مكنونة ، متقاربة الأوزان والمباني ، متناسبة الوجوه والمعاني ، تونق أبصار الناظرين ، وتروق بصائر المتوسمين "(١) وأخذ على من سبقه إلى التأليف في هذا الباب حشد الألفاظ أو التعابير من غير أن يكون بينها صلة أو تناسب سوى صلة المعنى الواحد ، واشترط على من يقصد إلى تأليف هذه الكتب تنميق الألفاظ والتعابير ، وتحليتها بالسجع وألوان البديع ، فقال مشيرا" إلى كتاب سلفه الهمذاني : " إن مؤلف الكلام البليغ الفصيح ، واللفظ المسجع الصحيح كناظم الجوهر المرصع . . . وقد ألف الألفاظ غير كتاب ، فقيل : أصلح الفاسد ، وضم النشر . . . ولو قيل : أصلح الفاسد ، وألف الشارد . . . لكان في استقامة الوزن ، واتساق السجع عوض من تباين اللفظ"(٢) ، ثم أتى على سرد ما يحتاج الكاتب إلى معرفته واستعماله من فنون البلاغة والبديع ، فذكر منها ثلاثة عشر نوعا" كالترصيع والسجع والاستعارة وغيرها من الفنون التي سبقه ابن المعتز إلى كثير منها ، وإن لم يشر إلى ذلك أو ينبه عليه .

وقسم كتابه بعد ذلك أبوابا" كثيرة تبدأ بما " في معنى أصلح الفاسد وضده"(٣) وتنتهي بباب " في تساقط الشعر ونحوه"(٤) وضم فيها أشتاتا" متفرقة من الألفاظ في معنى واحد أو ضده ، فألف بين شواردها أو لاءم بين متنافرها وفق المعايير التي حددها في مقدمته ، معبرا" بذلك عن ولعه الشديد بالصنعة اللفظية ، وكلفه بالفنون البديعية ، فأصبح كتابه مثالا" للبيان الذى تطغى عليه أساليب التصنع والتعقيد ، وكان له تأثير بالغ في أساليب الكتاب والمترسلين في القرن الرابع وما بعده ، كما كان لكتابه نقد الشعر تأثير مماثل في ميدان الشعر كما هو معروف ، وأن كان الاستاذ كرد علي يشك في صحة نسبة جواهر الألفاظ إلى قدامة(٥) ولم يؤيد ذلك بأي دليل ، ويبدو أن للجدل الذي يدور بين الدارسين حول صحة نسبة ما سمي

(١) جواهر الألفاظ ١
(٢) ن . م ١ .
(٣) ن . م ٩ .
(٤) ن . م ٤٥١ .
(٥) كنوز الأجداد ١٤٥ .

بكتاب " نقد النثر "[١] إلى قدامة أثرا" في ذلك، وهو الكتاب الذي صحت نسبته إلى مؤلفه الحقيقي إسحق بن وهب ، كما صحت تسميته باسمه الحقيقي أيضا وهو : " البرهان في وجوه البيان " وكان لهذا الوهم – في نظرنا – ما يسوغه ، لما لقدامة من صلة قوية بنقد النثر كما سيتضح معنا بعد قليل .

فقد ذكر له ابن النديم كتابا" في الخراج وقال إنه " ثماني منازل وأضاف إليه تاسعة "[٢] وقال ياقوت :" وذكر له ابن الجوزي كتابا" في الخراج وصنعه الكتابة أتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب إليه ، وهو من الكتب الحسان ، ولم يزل يتردد في أوساط الخدم الديوانية بدار السلام "[٣] ، ووصل إلينا من هذا الكتاب المنازل الأربع الأخيرة التي صرفها للحديث عن شؤون الحسبة والخراج وجغرافية الأرض ونظم الحكم[٤] ، وما تزال المنازل الأخرى مفقودة ، ولعل أهمها من الناحية النقدية والبلاغية المنزلة الثالثة التي تحدث فيها عن النثر والبلاغة ، والرابعة التي تحدث فيها عن الترسل ووجوه المخاطبات والمكاتبات[٥] ، وقد نقل إلينا أبو حيان التوحيدي وصفا" لبعض ما ورد في المنزلة الثالثة منه ، وآراء بعض معاصريه ، فقال على لسان بعض شيوخه :"ما رأيت أحدا" تناهى في وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه . قال لنا علي بن عيسى الوزير: عرض علي قدامة كتابه سنة عشرين وثلاثمائة ، واختبرته فوجدته قد بالغ وأحسن ، وتفرد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريقة اللفظ والمعنى مما يدل على المختارالمجتنى ، والمعيب المجتنب ، ولقد شاكه فيه الخليل بن أحمد في وضع العروض ، ولكني وجدته هجين اللفظ ، ركيك البلاغة في وصف البلاغة ، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه ، وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه.قال : ولولا أن الأمرعلى ما ذكرت لكان ذلك الطريق الذي سلكه والفن الذي ظفر به ، قد برز في أحسن معرض ، وتجلى بألطف كلام"[٦] ، كما نقل

---

(١) انظر في ذلك بحث د . طه حسين ثم العبادى في مقدمة نقد النثر : ص٢٠-٣٩ . ومقدمة محقق البرهان في وجوه البيان ١-٢٥ .

(٢) الفهرست ١٤٤ .

(٣) معجم الادباء ١٢/١٧ – ١٣ .

(٤) طبعت في ذيل كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة – بريل – ليدن – ١٣٠٦ هـ ، وأعاد نشرها محققة د . محمد الزبيدي – بغداد ١٩٨١ .

(٥) الخراج وصناعة الكتابة – مقدمة المحقق ١١ .

(٦) الإمتاع والمؤانسة ٢/ ١٤٥ – ١٤٦ .

إلينا الخفاجي (– ٤٦٦ هـ) بعض آرائه البلاغية فيه ، فقال في أثناء حديثه عن علاقة اللفظ بالمعنى ، وتأليف الكلام : " وقد ذهب قدامة بن جعفر إلى أن المعاني في صناعة تعلم الكلام موضوع لها . . . وقال في كتابه في " الخراج وصناعة الكتابة " عند كلامه على البلاغة : إن اللغة تجري مجرى الموضوع لصناعة البلاغة . وهذان القولان على ما تراه مختلفان ، والصحيح منهما ما قدمناه ، وذكره في كتاب الخراج "(١) وليس في كلام قدامة تناقض أو اختلاف ، لما للصنعة اللغوية من قيمة في الأدب والكتابة ، ولذلك فقد آثر كثير من القدماء والمحدثين إضافتهما إلي لفظ الصناعة ، وعلل ذلك مؤلفا صناعة الكتابة بالقول : " وعندما نضيف الكتابة إلى الصناعة ، في مصطلح " صناعة الكتابة " فإننا نشير إلى قيمة الوسيلة أو الشكل ، فالصناعة وسيلة تجسد الكتابة ، أو قل : الكتابة روح جسده الصناعة . . . واللغة مادة الصناعة وأداتها "(٢) .

ومما يذكر في نقد النثر وصنعة الكتابة والترسل لقدامة من المؤلفات كتاب عنوانه : " سر البلاغة في الكتابة "(٣) لا نعرف من أمره شيئا" ، وإن كنا نظن أنه المقصود بحديث اليزدادي في صدر كتابه : كمال البلاغة إذ يقول : " كنت أنظر فيما ألفه قدامة بن جعفر بذكر الكتابة ، وأفرده من فصول مستخرجة من أثناء رسائل الكتاب ، وكلام البلغاء ، وأبان عنه من معان وألفاظ فصيحة وجد فيها ، ودل عليه من نظوم غريبة ، وذكر أنها في الحسن والجودة غاية ، فوجدت في رسائل الأمير قابوس كثيرا" مما ذكره وأشار إليه مما جمع تلك الأنواع بأفصح وأوجز من تلك الألفاظ ، وأكمل المعاني . . . لم يكن قد خطر ببال قدامة أن تتسع لمثله قدرة فصيح بليغ ، ويأتي به أحد من ذوي البراعة ، وأبت نفسي أن تبقى تلك البدائع في خفاء عن الأفهام ، ولم تقنع إلا بأن أتكلم عليها ، وأبين عما تفردت به . . . فيقف أهل هذه الصناعة على حقائق البلاغة وخصائص البراعة ، وجواهر الكلام ، ووجوه الصنعة . . . وقد كتبتها واحدة واحدة ، ودللت على ما وقع فيها من نظائر الأنواع التي ذكرها قدامة ، وما هو أحسن منها وأبرع . . . واستخرجت

---

(١) سر الفصاحة ٨٦ .
(٢) صناعة الكتابة ١٤ .
(٣) كشف الظنون ٩٨٦/٢٥ وهدية العارفين ٨٣٥/٥

من هذه الرسائل أنواعا" لم يكن وجدها قدامة فيما فتش من كلام الفصحاء ، وتوليت تسميتها بما شاكلها من النعوت عددها أربعة عشر "[1] .

ومن خلال هذا الحديث المطول يمكن أن نرسم صورة واضحة لكتاب قدامة الذي أشار إليه اليزدادي ، إذ هو يتناول فن الكتابة والترسل بدراسة نقدية تطبيقية ذات صبغة بلاغية ظاهرة ، تعتمد على النصوص المختارة من رسائل الكتاب ، والكشف عن مواطن الجمال والإبداع في ألفاظها ومعانيها ، وخصائص نظمها وتأليفها ، وما ورد فيها من فنون بلاغية . ومن المرجح أن يكون قد قسمه بحسب هذه الفنون أبوابا"، وجعل لكل باب منها عنوانا" يشتمل على فن من فنون البلاغة والبديع ، وضمنه أمثلة مختلفة من تلك الرسائل المختارة ، وليس من العسير معرفة عدد هذه الأبواب أو الفنون ، مادام اليزدادي قد صرح أنه قد وجد في رسائل قابوس كثيرا" مما ذكره قدامة من هذه الأنواع فكتبها واحدة واحدة ، ودل على ما وقع فيها من نظائر الأنواع التي ذكرها قدامة ، واستخرج منها أنواعا" جديدة لم يكن قدامة قد وقف عليها، وعدتها أربعة عشر نوعا" ، وما عدا ذلك فسائره مما ورد في كتاب قدامة .

على أن ذلك كله يظل ظنا" وترجيحا" ، ما دام اليزدادي لم يصرح باسم كتاب قدامة وعنوانه ، وإن كان ذلك محصورا" في كتاب سر البلاغة في الكتابة ، أو المنزلة الثالثة والرابعة من كتاب الخراج ، وليس من المستبعد أن يكون الوراقون أو الكتاب قد أفردوا هاتين المنزلتين واختاروا له عنوان : " سر البلاغة في الكتابة"الذي لم نجد له ذكرا" عند معاصري قدامة ، أو عند ابن النديم أو ياقوت في أثناء سردهم لمؤلفات قدامة ، أو حديثهم عنها .

ومما ذكروا له من هذه الكتب كتاب عنوانه : " النجم الثاقب "[2] وقالوا إنه

---

(١) كمال البلاغة ٨ - ١٦ .
(٢) الفهرست ١٤٤ ومعجم الأدباء ٧ / ١٣ .

رسالة في أبي علي بن مقلة الوزير الكاتب المعروف ، ولم نقف على شيء مما يمكن أن يوحي بمضمون هذه الرسالة ، وإن كان يغلب علي الظن أنها في أخباره، ورسائله وخطه الشهير[١] .

٧٩- ٨٠ - كتاب أدب الكتاب ، وكتاب صناعة الكتاب : لأبي جعفر النحاس (- ٣٣٨ هـ) ذكرهما معا" بعض المؤلفين ، واكتفى آخرون بذكر واحد منهما فحسب [٢] ولعلهما اسمان لكتاب واحد هو " صناعة الكتاب " الذي وصل إلينا ، كما رجح ذلك محققه د. بدر أحمد ضيف [٣] وقد قسم النحاس كتابه عشر مراتب ، خصص نصفها الأول للحديث عن أسماء الشهور ، ومفهوم الكتابة ، والخط والهجاء، واصطلاحات الكتابة ، وبعض المباحث النحوية ، وتحدث في نصفها الثاني عن البلاغة ، والفهاهة ، والخطابة ، وفضل الكتابة ، وما يخلط فيه الكتاب من أمور لغوية وألحق بهذه المراتب بابا" لأمور اللغة والنحو والصرف والخط وغير ذلك مما يتصل بآلة الكتابة وثقافة الكاتب ، وإن لم يخل من الاهتمام بالأمور النقدية والبلاغية في المرتبة السادسة [٤] خاصة وهي " مرتبة البلاغة " التي أورد فيها عددا" من تعاريفها وأنواعها ، وكانت له في ذلك بعض الآراء النافذة ، وقسمها من حيث مراتبها ثلاثة أقسام ، لكل واحد منها مقام يصلح فيه ، وأولها مساواة اللفظ للمعنى ، ويكون للنظراء والأكفاء في المكاتبات والمخاطبات ، والثاني لمحة دالة تصلح في مخاطبة أهل المراتب العالية من الأدب والفهم ، والثالثة الإطالة والإعادة التي تستعمل في المواطن الجامعة ، ومع العامة . كما قسم البلاغة من حيث أجناسها إلى بلاغة الألفاظ بنعوتها المعروفة ، وبلاغة المعاني وهي عنده أعلى مرتبة من بلاغة الألفاظ المعروفة كالاستعارة والسجع والازدواج ، وأورد عليها أمثلة كثيرة من

---

(١) ومما يجدر ذكره هنا : أن جعفر بن قدامة (- ٣١٩ هـ) والد قدامة كان من كبار الكتاب والمؤلفين في صنعة الكتابة كما تؤكد ذلك تراجمه التي وقفنا عليها وإن لم نجد فيها ذكرا" لأسماء تآليفه . وانظر تاريخ بغداد ٧ / ٢٠٥ والوفيات ١ / ٤١٠ وفوات الوفيات ١ / ٢٨٩ - ٢٩٠ ومعجم الادباء ٧ / ١٧٧ والأعلام ٢ / ١٢٦ .

(٢) معجم الأدباء ٤ / ٢٨٨ والوفيات ١ / ٩٩ وصبح الأعشى ٢ / ٣٢٥ و ٦ / ٣٣٤ و أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل المرادي : نحوي مصري رحل إلى العراق وأخذ عن علمائه ثم عاد إلى مصر وبها توفي (- ٣٣٧ هـ) .

(٣) صناعة الكتاب ٩ - ١١ .

(٤) ن . م ٢٠٢ - ٢٣٧ .

الكلام المنثور وأقوال الكتاب خاصة ، على أن قيمة كتابه الحقيقية إنما تتجلى فيما اشتمل عليه من أبحاث لغوية ونحوية ، وما تضمنه من شواهد من فقر البلغاء وفصولهم وأقوالهم .

٨١ – أدب الكتاب : للأبهري الأصبهاني (–٣٣٨ هـ) (١) .

٨٢ – صناعة الكتابة : لأبي نصر الفارابي (–٣٣٩ هـ)(٢) .

٨٣ – كتاب الكتاب(٣) : لابن درستويه (–٣٤٧ هـ) وهو من الكتب التي وصلت إلينا ، وعني بتحقيقه ونشره لويس شيخو – بيروت ١٩٢١م ، وأعاد تحقيقه ونشره د. السامرائي والفتلي – الكويت ١٩٧٧م ، وذكر في مقدمته أنه كان قد ألفه مختصرا" ، ثم تعقبه بالزيادة والتغيير ، وأخرجه إخراجا" جديدا" ، وقال إنه " الكتاب الجاري بين الخاصة والعامة في كتب علومهم وآدابهم ومراسلاتهم الذي لا يستغني متأدب عن معرفته(٤) ويشتمل على اثني عشر بابا" ، تنقسم فصولا" عدتها مائة وثلاثة عشر فصلا" ، معظمها في قواعد الخط والإملاء وأدوات الكتابة ورسومها ، ولانكاد نظفر فيها من آثار المادة النقدية على شيء ذي أهمية ، ويبدو أنه قد عمد إلى تخصيص هذا الكتاب لتلك الأمور الشكلية التي تهم الكتاب ، ووعد بتخصيص كتاب آخر يتناول فيه بعض ما يتصل بفن الكتابة وأساليبها ونقدها من أمور فقال في آخر كتابه هذا: "تم الكتاب . . . وأما ما يكثر استعمال الكتاب والأدباء له في ألفاظهم وكتبهم، فسنفرد له كتابا" نستقصيه فيه ، ونميز فصيحه من عييه ، ومختاره من رديه ، ونأتي منه على أكثر ما يمكن أن يحتاج إليه إن شاء الله "(٥) ولسنا نعلم إن كان قد ألف هذا الكتاب أو لم يؤلفه .

---

(١) الفهرست ١٥٢ والأبهري هو أحمد بن عثمان بن أحمد الجابري الأصبهاني صاحب بيان وتصانيف (– ٣٣٨ هـ) . الأعلام ١ / ١٦٧ .

(٢) هدية العارفين ٧ / ٤٠ والفارابي محمد بن طرخان المعلم الثاني من كبار الفلاسفة الحكماء (–٣٣٩ هـ) الفهرست ٣٢١ والوفيات ٥/١٣٥–١٥٧ وتاريخ حكماء الإسلام ٣٠ – ٣٥ .

(٣) ذكره صاحب الفهرست ٦٨ باسم أدب الكتاب المتمم ، وهو النسخة المعدلة من الأصل المختصر .

(٤) كتاب الكتاب ٦ (ط ٢ شيخو) و ١٥ (ط السامرائي) .

(٥) ن . م ١٠٠ (شيخو) و١٦٠ (السامرائي) .

٨٤-٨٥ - كتاب الاختيار من الرسائل ، وكتاب فقر البلغاء : لأحمد بن سعد الأصبهاني (-٣٥٠ هـ)(١) قال ياقوت عن أولهما إنه " لم يسبق إلى مثله(٢) ووصف ابن الصابي الثاني في قوله : " وجدت لأحمد بن سعد الأصبهاني كتابا" قد صنفه وترجمه بفقر البلغاء ، وضمنه فصولا" أخذها من كتب المترسلين المتقدمين ، وألحق بها قليلا" مما نسبه إلى نفسه ".(٣)

٨٦ - كتاب كنز الكتاب : لكشاجم (-٣٥٠ هـ)(٤) اعتمد عليه القلقشندي مصدرا" من مصادر صبح الأعشى ، وأكثر من الإشارة إليه ، ويبدو من خلال هذه الإشارات أن الطابع اللغوي غالب عليه ، فذكر أنه يشتمل على جملة من الأضداد التي يختارها الكتاب استحسانا" لها ، فقال في أثناء حديثه عن كيفية تصرف الكتاب في الألفاظ : " وفي الأمثلة التي أوردها كشاجم في كنز الكتاب حيث يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة ما يرشد إلى الطريق في ذلك ويهدي إلى سلوك الجادة الموصلة إلى القصد منه"(٥) .

٨٧- ٨٨ - كتاب صناعة البلاغة ، وكتاب النثر الموصول بالنظم : لخشكنانجة علي بن وصيف الكاتب (- نحو ٣٥٠ هـ)(٦) ذكرهما ابن النديم في الفهرست ، وقال عن مؤلفهما إنه " كان لي صديقا وأنيسا "(٧) ، ثم أتى بعد ذلك مباشرة على ذكر ابنه أحمد بن علي بن وصيف (-٣٧٠ هـ)(٨) ونسب إليه هذين الكتابين أيضا ،

(١) معجم الأدباء ٣ / ٣٨ وهدية العارفين ٥ / ٦٣ وغرر البلاغة ٦٩ . والأصبهاني أبو الحسن كاتب مؤلف ولي الخراج بأصبهان (٣٢١ - ٣٢٤ هـ) وتوفي (٣٥٠ هـ) .
(٢) معجم الأدباء ٣ / ٣٨ .
(٣) غرر البلاغة ٦٩ وابن الصابي هو هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابي من كبار الكتاب والمصنفين، سمع من أبي علي الفارسي والرماني وأسلم في آخر عمره (٣٥٩-٤٤٨هـ) الوفيات ٦ / ١٠١ وبروكلمان ٦ / ٣٥ .
(٤) صبح الأعشى ١ / ١٥٤ و ١٦٢ و ١٦٣ وغيرها . وذكر له صاحب الفهرست ١٥٤ كتاب الرسائل فلعله المقصود . وكشاجم هو أبو الفتح محمود بن الحسين من أهل الرملة بفلسطين وكان شاعرا" مجيدا" عمل في خدمة سيف الدولة . وكشاجم لقب منحوت من أوائل أسماء علوم كان يتقنها : فالكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من الجدل والميم من المنطق (- ٣٥٠ هـ) . الفهرست ١٥٤ وشذرات الذهب ٣٧/٣ وبروكلمان ٢ / ٧٧ .
(٥) صبح الأعشى ١ / ١٦٣ .
(٦) الفهرست ١٥٤ وخشكنانجه علي بن وصيف كاتب وشاعر من أهل بغداد ، وكان أكثر مقامه بالرقة ثم انتقل إلى الموصل (- نحو ٣٥٠ هـ) .
(٧) الفهرست ١٥٤ .
(٨) ن . م ١٥٥ .

كما نسب إليه ثالثا" كان قد ذكره قبل قليل في جملة مؤلفات أبيه وهو " كتاب الفوائد " ، وفي ذلك ما يدل على أن ابن خشكنانجة يروي هذه الكتب عن أبيه ، فنسبها ابن النديم إليه على سنة القدماء في ذلك ، وتابعه في نسبتها إليهما معا" بعض من أتى بعده من المؤلفين(١) .

٨٩- كتاب الرسائل : لابراهيم بن عيسى النصراني (- نحو ٣٥٠ هـ)(٢) .

٩٠-٩١ - كتاب جواب المعنت في الكتابة ، وكتاب أخبار الوزراء : لابن الماشطة (- نحو ٣٥٠ هـ)(٣) .

٩٢- كتاب تهذيب البلاغة : لابن البازيار (-٣٤٢ هـ)(٤) .

٩٣ - كتاب مناقب الكتاب : لأبي بكر الأهوازي (-٣٥٢ هـ)(٥) .

٩٤ - كتاب المذهب في البلاغات : لأبي الفضل بن العميد (-٣٥٩ هـ)(٦)

٩٥ - كتاب الوزراء : لأبي عبد الله الرازي (-٣٦١ هـ)(٧)

---

(١) معجم الأدباء ٣ / ٢٤٥ وهدية العارفين ٥ / ٦٦ .

(٢) الفهرست ١٤٥ وهدية العارفين ٥ / ٧ وإبراهيم بن عيسى النصراني من ظرفاء كتاب بغداد وأدبائها.

(٣) الفهرست ١٥٠ ومعجم الأدباء ١٣ / ١٥ وهدية العارفين ٥ / ٦٨٠ . وابن الماشطة علي بن الحسن ابن محمد الكاتب البغدادي له تقدم في صناعة الخراج (- نحو ٣٥٠ هـ) .

(٤) الفهرست ١٤٦ ومعجم الأدباء ٥ / ٨٠ وهدية العارفين ٥ / ٦٤ . وابن البازيار أبو علي أحمد بن نصر بن الحسين البغدادي من ندماء سيف الدولة (- ٣٥٢ هـ) وانظر - بروكلمان ٤ / ٢٠٥ .

(٥) الفهرست ١٥٥ ومعجم الأدباء ٤ / ١٤٤ وهدية العارفين ٥ / ٦٤ . وأبو بكر الأهوازي أحمد بن محمد بن الفضل كاتب من أهل بغداد (- ٣٥٢ هـ) .

(٦) الفهرست ١٤٩ وابن العميد أبو الفضل محمد بن الحسين وزير ركن الدولة البويهي ومن مشاهير الكتاب والأدباء في القرن الرابع (- ٣٥٩ هـ) وانظر يتيمة الدهر ٣ / ١٥٤ - ١٨٨ وبروكلمان ٢ / ١١٩ والأعلام ٦ / ٩٨ .

(٧) هدية العارفين ٦ / ٤٧ . هو أبو عبد الله الرازي محمد بن أحمد الرازي الفارسي الكاتب البغدادي (- ٣٦١ هـ).

٩٦- كتاب إنشاء الرسائل والكتب : لأبي بكر الشيرازي (بعد٣٦٤ هـ) قال ابن النديم إنه أخذه عن المطيع لله[١].

٩٧- رسالة في تفضيل النثر على النظم : لأبي إسحق الصابي (-٣٨٤ هـ) ذكرها التوحيدي في المقابسات ٣٧٢ المقابسة ٦٥. ولعلها رسالة الفرق بين المترسل والشاعر التي نشرها د. الهدلق في كتاب النادي الأدبي بجدة رقم ٥٩ سنة ١٩٨٨ (ص ٥٩٤ - ٥٩٧)[٢] .

٩٨- كتاب البراعة : لعلي بن نصر البغدادي (-٣٧٦ هـ)[٣] .

٩٩- كتاب الشوارد في الرسائل : لحكمويه بن عبدوس . ذكره ابن النديم في الفهرست[٤] .

١٠٠- كتاب عيون الكاتب : للحاتمي (-٣٨٨ هـ)[٥].

١٠١-١٠٢- كتاب الكافي في الرسائل ، وكتاب الوزراء : للصاحب بن عباد (-٣٨٥هـ)[٦] .

١٠٣- كتاب الكتاب : لابن الحرون (-٣٩٠ هـ)[٧] .

---

(١) الفهرست ١٧١ . وأبو بكر الشيرازي هبة الله بن الحسين من أدباء القرن الرابع في بغداد ، كتب للمطيع لله (- ٣٦٤ هـ) وله شعر مليح . وانظر يتيمة الدهر ٣ / ٤١٧ .

(٢) والصابي إبراهيم بن هلال أديب مترسل وشاعر تقلد ديوان الرسائل لمعز الدولة . الوفيات ١ / ٥٢ ويتيمة الدهر ٢ / ٢٤١ - ٣١١ .

(٣) الفهرست ١٤٥ وهدية العارفين ٥ / ٦٨٢ . وأبو الحسن علي بن نصر البغدادي كاتب ومؤلف من أصحاب ابن النديم (- ٣٧٦ هـ) .

(٤) الفهرست ١٥٤ قال ابن النديم " وهو من نواحي الجبل . ولا نعرف من أمره أكثر من هذا ". ومما لاشك فيه أنه ألفه قبل تأليف فهرست ابن النديم نحو ٣٨٤ هـ .

(٥) معجم الأدباء ١٨ / ١٥٦ وإنباه الرواة ٣ / ١٠٤ والحاتمي محمد بن الحسن بن المظفر كاتب شاعر عالم باللغة والأدب والنقد وله مؤلفات كثيرة .

(٦) الفهرست ١٥٠ ومعجم الأدباء ٦ / ٣٦٠ وهدية العارفين ٥ / ٣٠٦ والوفيات ١ / ٢٣٠ والصاحب ابن عباد الوزير من أعلام الأدب بالري (- ٣٨٥ هـ) وانظر أخباره في يتيمة الدهر ٣ / ١٨٨ - ٢٨٦ .

(٧) الفهرست ١٦٥ ومعجم الأدباء ١٧ / ١٣٤ وهدية العارفين ٦ / ٥٧ وفي الفهرست ١٤٣ ذكر لابن الحرون أيضا ولم يسمه ، وذكر له كتاب الرسائل فلعله أحد أقارب محمد بن أحمد بن الحسن بن الأصبغ بن الحرون البغدادي المصنف من أولاد الكتاب (- ٣٩٠ هـ).

١٠٤- كتاب الوزراء : للمطوق علي بن الفتح (نحو ٣٩٠ هـ) قال ابن النديم إنه " وصل به كتاب محمد بن داود بن الجراح ، وعمله إلى أيام الكلوذاني"(١) .

١٠٥- متخير الألفاظ : لأحمد بن فارس (-٣٩٥هـ) وهو من الكتب التي وصلت إلينا ، وعني بتحقيقه ونشره هلال ناجي - بغداد ١٩٧٠ . وقد تابع فيه مؤلفه جهود من سبقه إلى التأليف في هذا الباب كالعتابي والهمذاني وقدامة وغيرهم، ولم يقتصر فيه على الألفاظ الكتابية وحدها ، وإنما جمع إليها الألفاظ الشعرية ، ورتبه على المعاني في ١١٤ بابا" تبدأ بباب : " متخير ألفاظ العرب في الكلام .... والبلاغة "(٢) وتنتهي بباب " الألفاظ المفردة المستحسنه"(٣) ، ومهد له بمقدمة أوضح فيها منهجه في اختيار الألفاظ والتعابير وأبدى آراءه في لغة النص الأدبي شعره ونثره فقال : " هذا كتاب متخير الألفاظ مفردها ومركبها .... وهو كتاب كاتب عرف جوهر الكلام ، وآثر الاختصاص بجيده ، أو شاعر سلك المسلك الأوسط ، مرتقيا" عن الدون المسترذل ونازلا" عن الوحشي المستغرب ، وذلك أن الكلام ثلاثة أضرب : ضرب يشترك فيه العلية والدون، وذلك أدنى منازل القول ، وضرب هو الوحشي ، كان طباع قوم فذهب بذهابهم ، وبين هذين ضرب لم ينزل نزول الأول ، ولا ارتفع ارتفاع الثاني ، وهو أحسن الثلاثة . . . وإنما ألفت كتابي هذا على هذه الطريقة المثلى ، والرتبة الوسطى "(٤).

١٠٦- تحفة الكتاب في الرسائل : لأبي الحسن المغربي (-٤٠٠ هـ)(٥) .

١٠٧- ١٠٨- أخلاق الوزيرين ، وتقريظ الجاحظ : لأبي حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠ هـ) وقد وصل إلينا أولهما كاملا ، وعني بتحقيقه ونشره د. إبراهيم الكيلاني بدمشق ١٩٦١ بعنوان: مثالب الوزيرين ، وأعاد تحقيقه محمد بن تاويت .

---

(١) الفهرست ١٤٣ وهدية العارفين ٥ / ٦٨٤ وعلى بن الفتح أبو الحسن المطوق من كتاب بغداد ، وكان معاصرا لابن النديم (- نحو ٣٩٠ هـ) .
(٢) متخير الألفاظ ٤٥ وأحمد بن فارس من أعيان العلم بهمذان وكان كاتبا وشاعرا ولغويا وناقدا . انظر يتيمة الدهر ٣ / ٣٩٧ - ٤٠٤ .
(٣) ن . م ١٤٧ .
(٤) ن . م ٤٣ .
(٥) معجم الأدباء ١٧ / ١٧٢ وأبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد المغربي راوية المتنبي وكان من أئمة الأدباء وأعيان الشعراء مدح سيف الدولة الحمداني وجالس الصاحب بن عباد وله عدة كتب في الأدب والنقد (- ٤٠٠ هـ) .

دمشق ١٩٦٥ . أما الثاني فقد نقل إلينا ياقوت أطرافا" منه في تراجم أبي حنيفة الدينوري ، وأبي سعيد السيرافي ، وعلي بن عيسى الرماني ، والجاحظ[١] ، ويمثل هذان الكتابان الاتجاه النقدي الذي تبدو صورته واضحة في معظم كتب أبي حيان ويتجلى في النقد الشخصي الذي تظهر من خلاله طبيعة تكوينه الثقافي ، ومزاجه النفسي ، وميله الشديد إلى الإفراط في الثلب والذم ، أو التقريظ والمدح .

وقد تناول في أولهما الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد، وكان قد قصدهما في الري طامعا في الحظوة عندهما ، بعد أن تجهم له الحظ في بغداد ، فلم يجد في حضرتهما ما كان يأمل من إكرام وتقدير ، فعاد يجر أذيال الخيبة ، وألف هذا الكتاب في مثالبهما ، وكان حقده فيه على الصاحب أشد من حقده على أبي الفضل وأقسى ، ولم يخف ميله في ذلك عن جادة الحق والصواب فقال : " وقد ابتليت به ، وابتلي بي ، رماني عن قوسه مغرقا" ، وأفرغت ما كان عندي على رأسه مغيظا" ، وحرمني فأرديته ، وحقرني فأخزيته . . . . ولئن لم يرني أهلا" لنائله وبره، إني لا أراه أهلا" لقول الحق فيه ، ونث ما كان يشتمل عليه من مخازيه"[٢] أما ابن العميد : " فإنه كان بابا" آخر ، وطامة أخرى ، وكان فضله من جنس ليس لا بن عباد فيه نصيب ، ونقصه من ضرب لم يكن له فيه ضريب . . . وكان مع هذا سيء السيرة ، قليل الرحمة ، شديد القسوة ، وارم الأنف ، عظيم التيه، شديد الحسد لمن نطق ببيان "[٣].

وتدور مثالبه فيهما حول جانبين رئيسيين : أحدهما أخلاقي تحدث فيه عن بخلهما ومجونهما ورقة دينهما وغير ذلك مما اختبره فيهما أو عاينه ، والآخر أدبي تحدث فيه عن ادعائها الثقافي ، وأخطائهما الشنيعة ، وأساليبهما المعقدة في الترسل والشعر والحديث ، وهو أهم هذين الجانبين ، على الرغم من تحامله فيه عليهما ، إذ أبدى أبو حيان في أثنائه آراءه النقدية في قضايا الترسل والكتابة والشعر وغيرها من قضايا الأدب والنقد ، ونقل إلينا آراء عدد كبير من معاصريه فيها ، ولم يكن حديثه مقتصرا" على هذين الأديبين أو الوزيرين ، وإنما تجاوزهما إلى غيرهما من الأدباء

---

(١) معجم الأدباء ٣٧/٣ - ٣٨ و ٧٦/١٤ و ٩٧/١٦-٩٨ .
(٢) أخلاق الوزيرين ٨٦ - ٨٧ .
(٣) ن . م ٣٢١ .

والنقاد كأبي الفتح بن العميد وأبي إسحق الصابي وأحمد بن فارس وغيرهم(١) ممن تعرض إليهم في كتابه ، أو عرض آراءهم فيه ، أو اختار من رسائلهم وأشعارهم وأقوالهم ، ونقل إلينا صورا" كثيرة من مجالسهم ومناظراتهم ومحاوراتهم، ولم يخل في بعض ما أورد من آراء من الإنصاف كقوله في أبي الفتح : " إنه كان شابا" ذكيا"، حسن الشعر ، مليح الكتابة ، كثير المحاسن ، ولم يظهر منه كل ما كان في قوته ، لقصر أيامه ، واشتعال دولته "(٢).

ولعل من الطريف أن نجد التوحيدي في أواخر كتابه وقد خفف من غلوائه، بعد أن كان قد أربى فيها ، فلم يجد بدا" من الاعتراف بفضل صاحبيه ، وتقديمهما في الأدب والكتابة والشعر، وإن كان ما يزال مصرا" على صحة ما رماهما به من تهم ومعايب ذات صلة وثيقة – في نظره – بنقد الأديب ، وتقدير آثاره الإبداعية فقال مخاطبا" من قد يخالفه في ذلك أو يتلومه : " وابن عباد – حفظك الله – ليس بصغير القدر، وابن العميد ليس بخامل الذكر ، وما منهما إلا من هو غرة زمانه وتاريخ دهره لنباهته . . . ولكن حديث الدين والكرم والعقل والمجد والسيرة ليس من حديث الجد والفتح والسنا والدولة في شيء ، اللهم إلا أن يكون الفضل كله عند هذا المخالف في كتاب ينشأ ، ومعنى يقتضب ، وقصيدة تنشد ، ورسالة تحبر "(٣) .

وقد أكد في خاتمة هذا الكتاب أنه جمع فيه من فضائلهما وأدبهما ما يفي بالغرض ، ولم يبرىء نفسه من الهوى في ثلبهما شفاء لغليله فقال : " وقد شحنت هذا الكتاب من فضلهما وأدبهما وكرمهما ومجدهما بما إذا ميزته ، وأفردته شفى غليلك ، وبلغ مرادك . . . على أني لا أبريء نفسي من دبيب الهوى ، وتسويل النفس ، ومكايد الشيطان ، وغريب ما يعرض للإنسان "(٤) ومع ذلك فإن هذا الكتاب يظل من أهم الكتب التي تصور الحياة الأدبية ، وما يتصل منها بالترسل والكتابة خاصة ، في العراقين في النصف الأخير من القرن الرابع .

وإذا كان هذا الكتاب يمثل الوجه الأول من أوجه النقد الشخصي عند أبي حيان ، فإن تقريظ الجاحظ يمثل الوجه الآخر لهذا النقد ، إذ تدل الصفحات الطويلة التي نقلها إلينا ياقوت الحموي منه ، على أنه مخصص للإشادة بالجاحظ : شخصيته

---

(١) ن . م ٤٠٦ و ٤١٤ و ٤٤٨ وغيرها .
(٢) ن . م ٤٠٦ .
(٣) ن . م ٥٣١ .
(٤) ن . م ٥٤٨ – ٥٤٩ .

وأخلاقه وثقافته وفكره وأدبه وتآليفه وأسلوبه ، وآراء الأدباء والنقاد فيه ، وهو في ذلك منسجم مع منهجه النقدي الذي يعتمد على النظر في هذه العناصر مجتمعة في تقدير الأديب أو الكاتب ونقده ، مع الإفراط والمبالغة في ذلك ، فقال ياقوت في أثناء ترجمة أبي حنيفة الدينوري : " قال أبو حيان في كتاب تقريظ الجاحظ ، ومن خطه الذي لا أرتاب فيه نقلت : والذي أقوله وأعتقده وآخذ به وأستهم عليه ، أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ، لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزواله ، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، وأحدهم هذا الشيخ الذى أنشأنا له هذه الرسالة وأعني أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ "(١) .

ويبدو أن جل اعتماده فيها على شهادات معاصريه ، وآراء الأدباء والنقاد فيه ، إذ كانت معظم النصوص المتبقية منها إنما تتضمن هذه الآراء أو الشهادات ، فقال ياقوت في ترجمة السيرافي : " قرأت بخط أبي حيان في كتابه الذي ألفه في تقريظ الجاحظ ، وقد ذكر جماعة من الأئمة كانوا يقدمون الجاحظ ويفضلونه فقال : ومنهم أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ وإمام الأئمة"(٢) وذكر مثل ذلك في ترجمة الرماني فقال " قرأت بخط التوحيدي ..... وقد ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ فقال : ومنهم علي بن عيسى الرماني "(٣) وقال في ترجمة الجاحظ :
" قرأت بخط أبي حيان . . . قال ثابت بن قرة : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس . . . أولها عمر بن الخطاب . . . والثاني الحسن البصري . . . والثالث الجاحظ خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومدره المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكي سحبان في البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام في الجدال . . . شيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائل أفنان مثمرة . . . جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم . . . هذا قول ثابت بن قرة ، وهو قول صابي . . . قد انتقد هذا الانتقاد ، ونظر هذا النظر ، وحكم هذا الحكم ، وأبصر الحق بعين لاغشاوة عليها من الهول ، ونفس لا لطخ بها من التقليد "(٤).

ويلحق بهذه الكتب المؤلفة في القرنين الثالث والرابع مجموعة أخرى من

---

(١) معجم الأدباء ١ / ١٢٤ (ط ٢ مرجليوث) و ٣ / ٣٧ (الرفاعي) .
(٢) ن . م ٣ / ٨٦ (مرجليوث) .
(٣) ن . م ٥ / ٢٨٣ (مرجليوث) و ١٤ / ٧٦ (الرفاعي) .
(٤) ن . م ٦ / ٦٩ (مرجليوث) و ٩٧/١٦ (الرفاعي) .

الكتب التي عاش أصحابها الشطر الأعظم من أيامهم في القرن الرابع ، وألفوا معظم كتبهم فيه ، ومنها :

١٠٩- ١١٠ - كتاب أدب الكتاب ، وكتاب طبقات البلغاء : لأحمد بن محمد بن يوسف الأصبهاني (-٤٢٠ هـ) قال ياقوت عن ثانيهما " ولم يسبق إلى مثله"(١).

١١١- ذخيرة الكتاب : لعلي بن عبد العزيز (-٤٢٣ هـ)(٢).

١١٢- كتاب لطائف الكتاب : للوزير العتبي (-٤١٣ هـ)(٣) .

١١٣- كتاب كمال البلاغة : لعبد الرحمن بن علي اليزدادي من معاصري قابوس ابن وشكمير (- ٤٠٣ هـ) وهو من أهم الكتب التي وصلت إلينا في نقد الترسل والكتابة ، وقام بتحقيقه ونشره محب الدين الخطيب - القاهرة ١٣٤١ هـ . ووقفنا على نسخة تامة منه في الظاهرية بدمشق أدب ٦٧١٣ فيها عدة صفحات زيادة على المطبوع ، مع اختلاف في ترتيب بعض الفقر والفصول إذ وردت بعض أجزاء مقدمة المخطوط ق ٤ / أ - ٥ / ت موزعة في ثنايا المطبوع ٣٢ - ٣٣ .

ويعد هذا الكتاب من كتب النقد التطبيقي التي تعتمد على النص الأدبي مباشرة ، وقد مهد له بمقدمة نقدية طويلة تحدث فيها عن دواعي تأليفه ، فذكر أنه نظر في بعض كتب قدامة بن جعفر التي خصصها لنقد رسائل بعض الكتاب ، والدلالة على ما فيها من فنون البلاغة والبديع ، فوجد أن لقابوس في هذه الفنون ما ليس لسائر الكتاب ، وأتى على ذكر ما ورد منها في كتاب قدامة ، ومثل لها بفصول من رسائل قابوس ، وزاد عليها أربعة عشر نوعا" من أنواع السجع التي ابتكرها ابن وشكمير ، وتولى اليزدادي تسميتها بما يشاكلها من نعوت ومصطلحات، كالمجنح والمخلخل والمعكوس وغيرها ، وعرف كل نوع منها ومثل له بفقر من رسائل

---

(١) معجم الأدباء ٤ / ١٣٥ وهدية العارفين ٥ / ٧٢ وانظر أخباره في يتيمة الدهر ٤ / ٤٣٩ والأصبهاني ابن مردة أحمد بن محمد بن يوسف الكاتب (- ٤٢٠ هـ) .

(٢) صبح الأعشى ١ / ٥٢ وعلي بن عبد العزيز بن ابراهيم من بلغاء الكتاب في الدولة العباسية ، كتب للطائع والقادر (- ٤٢٣ هـ) . وكان أبوه المعروف بابن حاجب النعمان (- ٣٥١ هـ) ما هرا" بصناعة الكتابة ، وذكر له صاحب الفهرست ١٤٩ كتابا" في أشعار الكتاب . وانظر الأعلام ٤ / ١٢ و ٣٠٠ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ / ٣٩٧ وهدية العارفين ٦/٦٨ . والعتبي أبو النصر محمد بن عبد الجبار وزير السامانيين وكان أديبا مصنفا استوطن نيسابور في اواخر عمره وبها توفي ٤١٣ هـ . وقيل بعدها . وانظر الأعلام ٦/١٨٤ وبروكلمان ٦/١ .

قابوس ، وبالغ في الإعجاب بقدرته على الافتنان في وجوه السجع وابتكارها كقوله: " أما إبداع القرائن : فسميته به لأن القرينه الثانية فاضلة في البلاغة على الأولى كقوله : فقد شاع هذا الفعل في جميع البشر ، بل صار غرة على جبهة الشمس والقمر . وهذا كلام ينادي على نفسه بما هو فيه من البدعة ، ولا مطمع لأحد في الإتيان بمثله ، إذ هو معدوم النظير ، وليس في طوق أحد من بلغاء الكتاب أن يأتي بمثل هذا التمثيل البديع في معناه ، ولا يقدر عليه إلا المتبحر في العلم ، والقادر على تصريف الكلام "(١) .

وليس في تلك العبارة المسجوعة وأشباهها ما يسوغ هذه المبالغات التي أفرط فيها إلى حد إضفاء صفة الإعجاز على بعض فصوله كقوله في التعليق على بعض الفقر التي اختارها للدلالة على معنى ذي النوعين من السجع : كقوله: " كان الرجاء كنور في أكمام ، والوفاء كنوز في ظلام ، ولا بد للنور أن يتفتح ، وللنور أن يتوضح . وهذا كلام عظيم الشأن ، جليل الخطر ، معجز كلام الناس ... وأنا إن رمت العبارة عن بدايع هذه الرسائل عييت به لإعجازها فأقول بلسان طويل: ليس هذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والإدراك الطباعي بل هو إفاضة لقوة العلوية "(٢) .

وأتى – بعد هذه المقدمة الطويلة – على تقديم مختارات متنوعة من رسائل قابوس الأخوانية في أغراض مختلفة ، ولم يتعد في التصدير لبعضها أو التعليق عليه حدود آرائه المألوفة في مقدمته ، وإفراطه في التعبير عن إعجابه بقدرته على التصرف في وجوه البلاغة والبديع التي اتخذ منها مقاييس لتسويغ هذه الآراء وتعليلها كقوله في التصدير لرسالة له في المعاتبة : " وجاءت فريدة بديعة يتيمة في فنها ، بل معجزة على الحقيقة لما تشتمل عليه من كثرة البدايع وغرائب الاستعارات والتشبيهات ، وأشياء ممتنعة أوردها تمثيلا" وتهويلا" ، بألفاظ رائعة فصيحة وأسجاع غريبة يتعجب منها السامعون ، ويعجز عن مثلها الخلق قاطبة . . . وأعجب منه إتيانه عند باديء الفصول بكلمات مكررة مختلفة المعاني . . . وليس يعلم أن أحدا" من مبرزي الكتاب وأفاضل البلغاء تطرق إلى هذه الطريقة ، واهتدى إلى هذه المعاني السحرية منذ عرفت صناعة الرسائل ، والرسالة هذه : إن الانسان خلق ألوفا ، وطبع عطوفا ، فما لسيدي لا يحني عوده ، ولا يرجى عوده ، ولا يخال لفيئه مخيلة،

---

(١) كمال البلاغة ٢٦

(٢) ن . م . ٣ (المطبوع) و ٤ / أ (المخطوط) .

ولا يحال لتنكره بحيلة ، أمن صخر تدمر قلبه فليس يلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يميله الإعتاب "(١) . وعلي هذا النحو من الإسراف في التعبير عن إعجابه بهذه الرسائل يمضي معبرا" بذلك عما آل إليه حال الترسل في أواخر القرن الرابع من تصنع وتعقيد ، وكلف بفنون البلاغة والبديع ، مما حدا بالنقاد إلى الاعتماد عليها معايير أساسية لنقدها وتقديرها ، والتحول بالنقد نحو وجهة بلاغية بدا أثرها واضحاً في عدد من الكتب المؤلفة في نقد الشعر والنثر أو الصناعتين : الشعر والكتابة وأهمها :

١١٤- كتاب البرهان في وجوه البيان : لإسحق بن وهب (نحو ٣٥٠ هـ) . وهو من الكتب المطبوعة غير ما مرة (٢) ، وقد خص الترسل والكتابة فيه بصفحات طويلة ، أتى فيها على إيضاح حدودها ومفاهيمها ، وبيان أنواعها ووظائفها ، ونقد أساليبها وغير ذلك مما سيمربنا بعد قليل .

١١٥- كتاب صنعة الشعر والبلاغة : لأبي سعيد السيرافي (-٣٦٨ هـ) (٣) .

١١٦- كتاب الصناعتين : لأبي هلال العسكري (- نحو٣٩٥ هـ) (٤) ، وهو من أهم الكتب التي تتناول فن الترسل والكتابة بدراسة نقدية موسعة ، تعتمد المقاييس البلاغية أساسا" في نقد النصوص الأدبية وتقديرها كما سيمربنا في أثناء دراسة أساليب نقد الكتابة بعد قليل .

---

(١) ن . م ٥٢ - ٥٣ .

(٢) أبو الحسن إسحاق بن ابراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب : من أسرة معرقة بالكتابة والأدب ، ذكر في البرهان أن له خمسة مؤلفات ، ولم يصل إلينا منها سوى البرهان . وانظر البرهان (ط المصرية) مقدمة المحقق ص ٣٣ - ٣٦ . وطبع البرهان طبعة ناقصة منسوبا إلى قدامة بن جعفر بعنوان : نقد النثر ، بتحقيق عبد الحميد العبادي بمصر ١٩٣٣ - ط ١ . ثم طبع تاما وباسمه الصحيح منسوبا إلى مؤلفه بتحقيق د. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي - بغداد - ١٩٦٧ . ثم بتحقيق د. حفني شرف بمصر ١٩٦٩ . وسترد الإحالة إلى هاتين الطبعتين من البرهان معا .

(٣) الفهرست ٦٨ ووفيات الأعيان ٧٨/٢ ومعجم الأدباء ١٥٠/٨ وأبو سعيد السيرافي هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان أصله من سيراف وقدم بغداد فأخذ عن ابن دريد وطبقته ، وولي القضاء بها ، وكان عالما بالأدب واللغة والنحو (٢٨٠ - ٣٦٨ هـ) . وانظر بروكلمان ١٨٧/٢ .

(٤) أبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل أديب ناقد بلاغي وشاعر معروف (-بعد ٣٩٥ هـ). معجم الأدباء ٨ / ١٣٣ - ١٦٥ والأعلام ٢ / ١٩٦ . وكتاب الصناعتين مطبوع بتحقيق البجاوي وأبي الفضل .

الفصل الثاني

أســـاليب نقد الكتابة

- تمهيد
- الترسل والكتابة .... حدود ومفاهيم
- أنواع الكتابة
- أصول المكاتبات وقواعدها ورسومها
- أسلوب الكتابة



الفصل الثاني
أساليب نقد الكتابة والترسل

تمهيد :

يمكن حصر أساليب النقاد في نقد الكتابة والترسل في اتجاهين رئيسيين ، يتناول أولهما صنعة الكتابة : حدودها ومفاهيمها وأنواعها وقواعدها وأصولها وأساليبها، ويتناول ثانيهما الكتاب : صفاتهم وثقافتهم وآدابهم ، والموازنة بينهم وتفضيل بعضهم على بعض . وقد أولى النقاد العرب هذه الجوانب عناية تختلف باختلاف أهمية هذا الجانب أو ذاك ، وصلته بصنعة الكتابة ، وحاجة الكتاب إليه ، وكان جل اهتمامهم منصبا" على قواعد الكتابة وأصولها وأدواتها وأساليبها ، وثقافة أصحابها ، على حين لم نجد لدى كثير منهم اهتماما" بالجوانب التطبيقية ، أو الموازنة بين الكتاب ، مما يشكل ثغرة واسعة في أساليب نقد هذا الفن كما سيتضح معنا في أثناء تناولنا لهذه الجوانب بالدراسة معتمدين في ذلك على عرض آراء النقاد فيها ومناقشتها وتحليلها ، وترتيبها ترتيبا" تاريخيا" يمكن أن يدل على تطور هذه الآراء ، ويفصح عن معالم الابتكار والتجديد أو الاحتذاء والتقليد فيها.

الكتابة والترسل . . . حدود ومفاهيم :

الكتابة في لغة العرب مصدر كتب يكتب كتبا" وكتابة وكتبة فهو كاتب . ويؤول أصل معناها إلى: الجمع والضم ، فيقال : تكتبت الخيل : تجمعت ، وتكتبوا : تجمعوا ، ومنه قيل : كتب الكتاب لأنه يجمع حرفا" إلى حرف ، وكتبه : خطه ، والكتاب : اسم لما كان مجموعا" ، والكتابة : لمن تكون له صناعة ، مثل الصياغة ، والمكاتبة والتكاتب : بمعنى ، ورجل كاتب : حرفته الكتابة ، والكاتب عندهم : العالم ، لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة أن عنده العلم والمعرفة (١).

---

(١) لسان العرب : مادة " كتب " ١/٦٩٨-٧٠١ . وانظر القاموس المحيط ١/١٢١ ومقاييس اللغة ٥/١٥٩.

وعلى ذلك فإن معنى الكتابة غير مقتصر عندهم على الجمع بين الحروف والخط فحسب ، وإنما يتجاوزه إلى معنى آخر أعمق في الدلالة على مفهوم الكتابة وأدق، ويتجلى في الجمع بين أطراف الكلام، والربط بين أجزائه ، وإحكام نظمه وسبكه وتأليفه وصياغته(١) وفقا" لأساليب العرب في لغتها وكلامها، والكاتب عندهم هو العارف بهذه الأساليب ، والعالم بأصول صنعة الكتابة وتأليف الكلام ، فضلا "عما يمكن أن يكون عنده – بفضل معرفته بالقراءة والكتابة – من معرفة وعلم(٢).

ويشمل هذا المفهوم الواسع ضروب الكتابة المختلفة وأنواعها ، وفي جملتها فن الكتابة أو الترسل الذى يقصد به عادة : فن إنشاء الكلام المنثور ، وحسن صياغته وتأليفه للوفاء بأغراض المراسلة المختلفة، وليس يعد في نظر النقاد نوعا" أدبيا" إلا إذا كانت الغاية الفنية أو البلاغية ظاهرة فيه ومقصودة واتجه إلى الجمهور ولم يكن مقصورا" على المخاطب بالرسالة فحسب(٣) . كما لا تعد الرسائل الشعرية أو الأدبية أو العلمية التي لم يؤلفها أصحابها بقصد المراسلة من هذا الفن أيضا(٤) .

ولم يعن أوائل النقاد العرب بحد الكتابة أو الترسل وتعريفها ، على الرغم من اهتمامهم الواسع بأصولها وقواعدها وأساليبها ، شأنها في ذلك عندهم شأن الفنون النثرية الأخرى ، إذ لا نكاد نقع في رسالة عبد الحميد (–١٣٢ هـ) أو بيان الجاحظ (–٢٥٥ هـ) ورسائله ، أو أدب الكاتب لابن قتيبة (–٢٧٦ هـ) أو رسالة ابن المدبر (–٢٧٩ هـ) أو غيرها من الكتب والرسائل المؤلفة حتى أواخر القرن الثالث ، على ما يدل على

---

(١) وانظر في ذلك صناعة الكتابة ٦ – ٧ .
(٢) وللكاتب عند الفرس مفهوم مماثل ، فذكر ابن قتيبة أنه : " يقال للكاتب بالفارسية ديوان أي شيطان حاذق. عيون الأخبار ١/٥٠ .
(٣) نظرية الأنواع الأدبية ١٦٦ وأنظر أدب المراسلات في العصر الأموي – عالم الفكر مج ١٤ – ع ٣ – ص ٣١ .
(٤) وإلى ذلك ذهب د. نصار في قوله " إن الرسائل الشعرية فن آخر هو الشعر ، وليست من فن المراسلات الذي ينتمي إلى النثر " أدب المراسلات – عالم الفكر – مج ١٤ – ع ٣ – ص ٣٢ ، كما عد د. أحمد بدوي الرسائل الأدبية نوعا من أنواع الرسائل مع الديوانية والأخوانية ، وانظر أسس النقد الأدبي ٥٨٠ – ٥٨٣ .

الاهتمام بذلك ، وإن كنا نقف فيها على بعض الأقوال التي توحي بمفهومها عندهم ، ومن ذلك قول الجاحظ في رسالة له إلى أبي الفرج الكاتب ينوه فيها بعراقته في الكتابة والإشراف على الصناعة : " والكتاب هو القطب الذي عليه مدار علم العالم ، وآداب الملوك ، وتلخيص الألفاظ ، والغوص على المعاني السديدة والتخلص إلى إظهار ما في الضمائر بأسهل القول".(١) ويمكن لنا في خلال هذا القول أن نستنتج أن الكتابة بمفهومها العام لدى الجاحظ هي : إظهار ما في الضمائر من المعاني والأفكار بأسهل لفظ وأوجز عبارة ، وإلى ذلك ذهب ابن المدبر في قوله مخاطبا " الكاتب : " وإن حاولت صنعة رسالة، أو إنشاء كتاب ، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف . . وأد الألفاظ في أماكنها ، واعرضها على معانيها ، وقلبها على جميع وجوهها حتى تقع موقعها "(٢)، وفي ذلك ما يدل على أن مفهوم الكتابة لديه إنما يتجلى في القدرة على التعبير عن المعنى المراد بالألفاظ المشاكلة له ، والمعرفة بحسن سياسة الكلام وتأليفه وفقا" لما تقتضيه قواعد اللغة وموازينها ، على أن ذلك مما يدخل في أوصاف الكتابة الفنية وأساليبها ، ولا يعد تعريفا" لها ، وإن كان يوحي بمفهومها . وقد حاول بعض النقاد في القرن الرابع تضمين كتبهم تعريف الكتابة أو الترسل ، فلم يصلوا في ذلك إلى شيء ذي أهمية ، ومن ذلك قول ابي جعفر النحاس (-٣٣٧ هـ) في صدر كتابه : " الكتابة اسم مشترك يوقع على معان كثيرة ، فتارة يقع على كمالها واستيعاب أقسامها وتارة على بعض منازلها ، ويسمى به من يعلم البعض منها ، حتى إنه في عصرنا يوقع على من لبس لبسة أهلها"(٣) .

وهو في ذلك يحذو حذو ابن المقفع في وصف البلاغة وأنواعها في قوله : " البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة . . . "(٤) ووصل فيه إلى حد البلاغة،

---

(١) مجلة المورد – مج ٧ – ع ٤ – س ١٩٧٨ – ص ١٩٢ .
(٢) الرسالة العذراء ٢٩ .
(٣) صناعة الكتاب ٣٤ .
(٤) البيان والتبين ١ / ١١٥

على حين لم يصل النحاس إلى حد الكتابة ، فعاد إلى هذا الحد في المرتبة الثانية من كتابه ، فلم يتجاوز فيه حدود دلالاتها اللغوية ومعانيها ، واكتفى بنقل قول الأصمعي: " إنما سميت كتابة لأنه يجمع بها بعض الحروف إلى بعض . . . وقيل للكاتب كاتب : لأنه يضم بعض الحروف إلى بعض ويؤلفها "(١).

أما اسحق بن وهب (نحو ٣٥٠ هـ) فقد ماز الترسل من غيره من أنواع الكتابة وهي عنده ذات مفهوم واسع يشمل : كتابة الخط أو الوراقة أو التحرير ، وكتابة العقود والأحكام والتدبير ، ثم كتابة اللفظ أو الترسل وهو وحده الذى يعد أدبا" أو وجها" من وجوه البيان عنده(٢) وقال في حده : " والترسل : من ترسلت أترسل ترسلا" فأنا مترسل ... ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرر فعله في الرسائل ، ويقال لمن فعله مرة واحدة . . . مرسل ، أو مراسل "(٣) فكان بذلك أول ناقد يميز الترسل من الكتابة ، ويستعمل مصطلح الترسل للدلالة على فن إنشاء الرسائل وكتابتها ويجعله مقصورا" على من تكرر فعله في الترسل واشتهر به ، أو اتخذه حرفة وصناعة واستوفى الشروط الفنية التي أتى على تفصيلها في كتابه ، وأوضح من خلالها مفهوم الترسل .

وقد ذاع استعمال مصطلح الترسل بعد ذلك لدى كثير من النقاد والمؤلفين ، وإن كان قد ظل مرتبطا" بمصطلح الكتابة ومعادلا" له في الدلالة لدى عدد منهم ، ومن ذلك قول أبي الفرج الأصبهاني (- بعد٣٦٢ هـ) في صدر أخبار الحسن بن وهب إنه : "كاتب شاعر مترسل . . . عريق في الكتابة . . وأخوه سليمان فحل من الكتاب "(٤) ، وقوله عن العطوي : " وكان شاعرا" كاتبا" "(٥) وقوله عن أحمد بن يوسف الكاتب : "وكان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وله رسائل معروفة "(٦) دون أن يكون هنالك فرق

---

(١) صناعة الكتاب ٩٥
(٢) البرهان في وجوه البيان ٣١٤/٢٥٥
(٣) ن . م ١٥٢ / ١٩٣ .
(٥) الأغاني ١٢٣/٢٣ .
(٦) ن . م ٢٣ / ١١٨

واضح بين الكتابة والترسل والإنشاء لديه ، على حين نجد لدى ابن النديم ميلا" واضحا" إلى استعمال مصطلح الترسل للدلالة على من اشتهر بهذا الفن . وخلف فيه آثارا" مدونة ومعروفة ، والتفريق بينهم وبين غيرهم من الكتاب كقوله في بعض عناوين كتابه : "أخبار الملوك والكتاب والخطباء والمترسلين [ومنهم] ابراهيم بن المهدي : وله ترسل وشعر . . . وعبد الله بن طاهر : شاعر مترسل "(١) أو قوله في عنوان آخر : " تسمية الكتاب والمترسلين ممن لرسائله كتاب مجموع [ومنهم] عبد الحميد الكاتب وعنه أخذ المترسلون . . . وهو الذي سهل سبيل الترسل "(٢) .

ومع أن أبا هلال العسكري (– ٣٩٥ هـ) قد جعل الكتابة عديلة للشعر في الصناعتين ، إلا إنه لم يعن بتعريفها ، واكتفى من ذلك بالقول في معرض حديثه عن المفاضلة بين الشعر والنثر : "واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية "(٣) وإن كان قد أولى أساليب الكتابة وقواعدها وأنواعها عناية كبيرة في كتابه ، وأفرد فيه صفحات طويلة للبلاغة وفنونها ، لما لها من صلة بفن الترسل والكتابة ، إذ طالما وجدنا النقاد والأدباء والمؤلفين يكتفون بمصطلح البلاغة للدلالة على معنى كتابة اللفظ ، ومن ذلك ما رواه صاحب الأوراق فقال : " قيل للقاسم ابن يوسف : أقبلت على الترسل وتركت البلاغة : فقال : امتحنوني ، فقيل له : فاكتب إلى محمد بن المنصور في الرضا عن هذا الرجل ، فكتب إليه . . . "(٤) وقول التوحيدي في بعض مقابساته التي يتحدث فيها عن الشعر والترسل والبلاغة : " وكذلك الشعر الذي منها ، قائم في نفس صاحبه . . . وكذلك البلاغة التي قد علم صاحبها وطالبها ما ينتهي إليه ويقف عليه من تنميق لفظ ، وتزويق غرض وتغطية مكشوف "(٥) على حين نجد صاحب الفهرست يكتفي بالبلاغة مصطلحا" للدلالة على معنى الترسل أوالكتابة كقوله

---

(١) الفهرست ١٢٩ .

(٢) ن . م ١٣١ .

(٣) كتاب الصناعتين ١٣٩

(٤) الأوراق – أخبار الشعراء المحدثين ١٩٧

(٥) المقابسات ١٢٠

عن أبي اسحق الصابي (-٣٨٤ هـ) إنه " شاعر والغالب عليه صناعة الكتابة والبلاغة"[١] ، أو قوله عن الصاحب بن عباد (- ٣٨٥ هـ) إنه " أوحد زمانه في البلاغة والفصاحة والشعر "[٢] ، أو قوله في بعض عناوين كتابه "أسماء البلغاء "[٣] ، يريد المترسلين والكتاب الذين سرد أسماء عددمنهم كسالم وعبد الحميد وابن مسعدة وقال بعد ذلك : " وبلغاء الناس عشرة "[٤] ، وسرد أسماء عشرة من أعلام الكتاب والمترسلين وأمراء البلاغة والبيان كابن المقفع وعمارة بن حمزة وأحمد بن يوسف وغيرهم ، وقد مر بنا في أثناء سرد أسماء الكتب المؤلفة في الترسل والكتابة أسماء عدد من الكتب التي تحمل اسم البلاغة عنوانا" لها للدلالة على الكتابة والترسل ، ومنها كتاب " تهذيب البلاغة " لابن البازيار (-٣٥٢ هـ) وكتاب " المذهب في البلاغات" لابن العميد (- ٣٥٩ هـ) وغيرها[٥] من كتب الترسل والبلاغة المؤلفة في القرن الرابع، وهو القرن الذي بدأ الترسل فيه يميل نحو التصنع والتعقيد ، ويعتمد على الافتنان في أوجه البلاغة والبديع وتفتيقها ، وفي ذلك كله ما يدل على صلة هذا الفن بالبلاغة العربية ، وعلاقته بنشأتها وتطورها .

وإذا كان حد صناعة الكتابة والترسل قد ظل قاصرا" عن الوفاء بمفهوم هذه الصناعة لدى النقاد والمؤلفين حتى نهاية القرن الرابع ، فإن حظ هذا الحد لم يكن أحسن حالا" ، وأوضح بيانا" عند من أتى بعدهم من النقاد وعلى رأسهم علي بن خلف (بعد٤٣٧ هـ) الذي خصص الباب الأول من كتابه للحديث عن : " حد صناعة الكتابة " واعتمد في ذلك على بعض المفاهيم الفلسفية التي استمدها من صاحب المنطق فقال:"إنها صناعة ترسم صورا" دالة على الألفاظ دلالة الألفاظ على الأوهام وهذا الحد وإن كان ظاهر لفظه يدل على أن جملة هذه الصناعة إنما هي رسم الصور الخطية فإنه إذا تدبر

---

(١) الفهرست ١٥٠ .
(٢) ن . م ١٣٩ .
(٣) ن . م . ١٤٠ .
(٤) ن . م . ص
(٥) انظر رقم ٩٢و٩٤ ص٦٢

وجد مشتملا على حواشيها . . . وقد قال صاحب المنطق : النطق : نطقان : داخل : وهو صور المعاني القائمة في النفس، وخارج : وهو الألفاظ المعبرة عن تلك الصور"(١) وقد تولى القلقشندي (-٨٢١ هـ) الرد على هذا التعريف ، فبدأ حديثه عن مدلول الكتابة بقوله : " والكتابة في اللغة : مصدر كتب . . . وفي الاصطلاح: فقد عرفها صاحب مواد البيان بأنها صناعة روحانية تظهر بآلة جثمانية دالة على المراد بتوسط نظمها... ولم يبين مقاصد الحد وتفسيره . . . غير أنه فسر في موضع آخر معنى الروحانية فيها بالألفاظ . والجثمانية بالخط والآلة بالقلم ، ولاشك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يسطره القلم . . ويدخل تحته مطلق الكتابة كما هو المستفاد من المعنى اللغوي"(٢) . ومن الملاحظ أن معظم هذه التعريفات والحدود إنما تحوم حول هذا المعنى اللغوي وتقتصر فيه على معنى جمع الحروف وتصويرها ، وتقتصر عن النفاذ في جوهره ، فلا تفي بغاية الكتابة وتعريفها كما أشرنا إلى ذلك في صدر هذا البحث(٣) .

أنواع الترسل والكتابة :

ذكرنا من قبل : أن العرب عرفوا أنواعا" من الرسائل والمكاتبات في الأغراض المختلفة ، وقد آثر النقاد العرب تقسيم هذه الرسائل إلى نوعين رئيسيين هما : الرسائل الديوانية أو السلطانية والرسائل الشخصية أو الأخوانية ، ولكل منهما عندهم شعب كثيرة وفروع .

والرسائل الديوانية هي الرسائل الرسمية التي تصدر عن ديوان الرسائل أو الإنشاء ، ويدبجها باسم الخليفة أو الوزير أو العامل أو غيرهم من رجال الدولة كتاب محترفون للوفاء بأغراض المراسلات من أمر ونهي وتوجيه وترغيب وترهيب وتهنئة

(١) مواد البيان ٣٠ – ٣١

(٢) صبح الأعشى ٥١/١ (ط مصر) و ٨٢/١ (ط بيروت) .

(٣) وانظر صناعة الكتابة ٦٥ – ٧٤ .

وتعزية وإنهاء خبر وغيرها ، ويعرف كاتبها باسم : كاتب اللفظ أو كاتب الرسائل أو المترسل تمييزا" له من غيره من الكتاب ككاتب الخراج أو الجند أو الحكم أو المظالم أو الخط أو غيرهم ، وذكر علي بن خلف أنه " يرأس طبقات الكتاب ويتقدمهم "(١). وتكتسب هذه الرسائل الرسمية صفتها الأدبية بما تشتمل عليه من صنعة فنية وبلاغية تعد بها صنفا" من أصناف الأدب ووجها" من وجوه البيان .

أما الرسائل الأخوانية فهي الرسائل الشخصية التي يتبادلها الأفراد في الأغراض المختلفة كالتهنئة والتعزية والمودة والعتاب والاعتذار وغيرها ، ويعبرون فيها عن عواطفهم ومشاعرهم ، وقد يفصح فيها البلغاء منهم عن قدرة فنية وبراعة في تجويد الكلام وتحبيره ، وحسن صياغته وتأليفه ، فتعد رسائلهم بذلك نوعا" من أنواع الأدب هو أقرب أنواع النثر إلى الشعر ، لما في كثير من نماذجه من روعة التعبير، وقوة التأثير ، فعدها بعض الدارسين شعرا" منثورا" أو قصائد نثر(٢).

ولم نجد لدى أوائل النقاد والمؤلفين اهتماما" بالتفريق بين هذين النوعين الرئيسيين، أو عناية بالرسائل الأخوانية ، إذ كان جل اهتمامهم منصبا" على الكتابة الديوانية وأربابها ، كما يتجلى ذلك في رسالة عبد الحميد (١٣٢- هـ) إلى الكتاب ، وأدب الكاتب لابن قتيبة (-٢٧٦ هـ) والرسالة العذراء لابن المدبر (- ٢٧٩ هـ) وغيرها من الكتب التي مر ذكرها من قبل(٣) ومعظمها مما يتعلق بالكتابة الديوانية وآداب أصحابها وثقافتهم وآلاتهم وأدواتهم ، وذلك مرتبط بظروف العصر ، وحاجة كتاب الدواوين ، وإسهام كثير منهم في تأليف هذه الكتب وترويجها.

---

(١) مواد البيان ٧٥ .
(٢) النثر الفني في القرن الرابع ١٣١/١ والمرشد الى فهم أشعار العرب ٧٩٣/٣ وأسس النقد الأدبي عند العرب ٥٨٠.
(٣) راجع الفصل الأول الكتاب رقم : ١ و ٢٧ و ٤٠ .

وفي أواخر القرن الثالث بدأت تظهر بعض الكتب التي تدل على الاهتمام بالرسائل الأخوانية ، ككتاب : "المنظوم والمنثور"[١] الذي ضمنه ابن طيفور (-٢٨٠ هـ) عددا" كبيرا" من هذه الرسائل[٢] ، كما ألف ابن المعتز (-٣٩٦ هـ) كتابا" عنوانه : مكاتبات الأخوان بالشعر[٣] وفيه دلالة واضحة على تميز هذا اللون من المكاتبات من غيره من ألوان المكاتبات الأخرى ، وإن كان مضمونه غير داخل في باب فن الترسل المنثور ، وربما كان كتاب صاحبه عبيد الله بن طاهر (-٣٩٦ هـ) الذي ضمنه " مراسلاته لابن المعتز "[٤] يشتمل على المنظوم والمنثور إذ كان " شاعرا" مترسلا" "[٥] كما كان كاتبه نطاحة (-٢٩٠ هـ) " يكتب عن نفسة لأخوانه ، وبينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات ، وله ديوان رسائل نحو ألف ورقة يحتوي على كل حسن من أصناف الرسائل "[٦] ، وألف علي بن علي بن مهدي الكسروي (-٢٩٠ هـ) كتاب مراسلات الأخوان ومحاورات الخلان "[٧] ، وكانت معظم كتب " المنتهي في الكمال "[٨] لابن المرزبان (- نحو ٣٠٠ هـ) - إن لم نقل كلها - وعدتها إثنا عشر كتابا" أو بابا" - في الأخوانيات مثل " كتاب الشوق والفراق ، والحنين إلى الأوطان ، والتهاني والتعازي، والآمل والمأمول ، والحمد والذم ، والاعتذارات "[٩] وغيرها .

وظهرت في القرن الرابع بعض المؤلفات التي تميز الرسائل الديوانية من الأخوانية ، وتخص كلا" منهما بكتاب مفرد ، أو تجمع بينهما في كتاب واحد ، أو تقتصر على نوع محدد من الأخوانيات ، أو تتحصر برسائل كاتب واحد فحسب ، ومن أهمها :

---

(١) انظر الفصل الأول الكتاب رقم ٤١
(٢) وقد نقل عنه صاحب جمهرة رسائل العرب عددا منها كرسالة سالم لبعض أخوانه في الشكر ٤٣١/٢ وفي الاعتذار ٤٣٢/٢ ورسالة عبد الحميد في التعزية ٤٣٣/٢ وفي المودة والإخاء ٢٣٤/٢ .
(٣) انظر الفصل الأول الكتاب رقم ٤٥ .
(٤) انظر الفصل الأول الكتاب رقم ٤٩ .
(٥) الفهرست ١٤٠ وأخباره في الأغاني ٤٠/٤-٤٨
(٦) الفهرست ١٤٠ .
(٧) انظر الفصل الأول الكتاب رقم ٤٤ .
(٨) انظر الفصل الأول الكتاب رقم ٥٠
(٩) الفهرست ١٥٢ .

" كتاب الدواوين " و " كتاب الرسائل "[1] لابن أبي عون (-٣٢٢ هـ) وكتاب فرح المهج"[2] للوشاء (-٣٢٥ هـ) وهو - كما ذكر مؤلفه - مخصص للرسائل الغرامية التي يتبادلها العشاق ، وقد جمع فيه " من كتبهم الملاح ، وألفاظهم الصحاح ، ووصف ما يتوسلون به من الوسائل ، وما يضمنونه كتبهم من الرسائل "[3] ، و " كتاب الرسائل السلطانيات والأخوانيات "[4] لسنان بن ثابت (-٣٣١ هـ) وهو - فيما نعلم - أول كتاب يفرق بين هذين النوعين ، ويجعل منهما عنوانا" لكتاب مفرد ، كما كان كتاب " كمال البلاغة "[5] لليزدادي (بعد٤٠٣ هـ) أول كتاب يتناول رسائل كاتب بدراسة تطبيقية موسعة ومعظمها من الأخوانيات ، وفي ذلك كله ما يدل على تطور النظر النقدي إلى فن الكتابة والترسل ، والتفريق بين أنواعه ، إضافة إلى ما اشتملت عليه الكتب المؤلفة في آداب الكتاب وصناعتهم وغيرها من كتب الأدب والنقد من أقوال وآراء في أنواع الرسائل وأغراضها وغاياتها وأصناف كتابها وطبقاتهم ومراتبهم .

ولعل من أقدم ما نقف عليه في ذلك ما روي عن عمرو بن مسعده (٢١٧ هـ) إذ صادف في بعض أسفاره رجلا" منقطعا" ، فحمله معه في مركبه فسأله الرجل : " ما صناعتك ؟ فقال : كاتب . قال : من أي الكتاب أنت ، فإنهم خمسة ؟ فقال له : سمهم لي، قال : كاتب خراج : يحتاج إلى أن يكون عارفا" بالطسوج والمساحة والحساب والمقاسات ، وكاتب رسائل : يحتاج إلى أن يكون عارفا" بالفصول والوصول ، حاذقا" بالعقود والفتوح ، والترهيب والترغيب ، والابتداء والجواب ، وكاتب قاض : يحتاج أن يكون عارفا" بالحلال والحرام . . . وكاتب جند : يحتاج أن يكون عارفا" بحلي الرجال ، وشيات الدواب ، وكاتب معونة : يحتاج إلى أن يكون عارفا" بالقصاص والجراحات .

---

(١) انظر الفصل الأول الكتاب رقم ٦٠ .
(٢) انظر الفصل الأول رقم ٦٠ .
(٣) الموشى أو الظرف والظرفاء ١٢٣ . والوشاء هو أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحيى نحوي لغوي روى عن المبرد وثعلب وله مشاركة في الأدب (٢٤٦ - ٣٢٥ هـ) تاريخ بغداد ١/٢٥٣ - ٢٥٤ وإنباه الرواة ٣/٦١-٦٢ ومعجم الأدباء ١٧/١٣٢ .
(٤) انظر الفصل الأول : الكتاب رقم ٩٩ .
(٥) انظر الفصل الأول الكتاب رقم ١١٣ .

فمن أيهم أنت ؟ قلت كاتب رسائل . قال : أخ من إخوانك . . . تزوجت أمه ، كيف تكتب إليه ، أتهنئه أم تعزيه ؟ قلت : هو إلى التعزية أقرب ، قال : فاكتب إليه بذلك . فلم يتجه لي شيء . . "[1] وفي هذا النص تصنيف واضح ودقيق لأنواع الكتاب وما يحتاج إليه كل كاتب منهم من ثقافة وأدوات ، وتميز كتاب الرسائل منهم بثقافة أدبية وبلاغية خاصة ، مع الإشارة إلى أهمية إتقانهم لأنواع المكاتبات الديوانية والأخوانية ، ومعرفة أصولها وأساليبها .

وقد اختلف النقاد والمؤلفون في أصناف هؤلاء الكتاب ومراتبهم ، وأنواع المكاتبات وذلك لاختلاف البيئات الزمانية والمكانية وتطور الدواوين وأنواع الترسل ، فروى صاحب الاقتضاب عن ابن مقلة (-٣٥١ هـ) ، أن " الكتاب خمسة : كاتب خط وهو الوراق والمحرر ، وكاتب لفظ : وهو المترسل، وكاتب عقد : وهو كاتب الحساب، وكاتب حكم : وهو الذي يكتب للقاضي ، وكاتب تدبير : وهو كاتب السلطان أو الوزير"[2] ثم أتي على ما يحتاج إليه كل كاتب منهم وزاد على ذلك البطليوسي(-٥٢١ هـ) أصنافا أخرى من الكتاب ككاتب المظالم والجيش والتوقيع وغيرهم [3] .

واقتصر اسحق بن وهب (- نحو ٣٥٠ هـ) على ما ذكر ابن مقلة من أصنافهم وقال إن " لكل واحد منهم مذهب من الكتابة يخالف مذهب غيره "[4] مشيرا" بذلك الى صلتهم جميعا" بكتابة الرسائل في أعمالهم ، وإن كان لا يسبغ عليهم صفة

---

(١) صناعة الكتاب ٣٢ - ٣٣ والعقد الفريد ١٧٥/٤ - ١٧٧ . الطسوج : ما يقرر من الخراج على الأرض ، فارسي معرب ، والشيات : العلامات . وعمرو بن مسعدة الصولي أبو الفضل من كتاب البرامكة ، ثم اتصل بالمأمون فولاه ديوان الرسائل ، وكان جوادا ممدحا ماهرا بصنعة الكتابة رفيع القدر فيها (-٢١٧ هـ) معجم الأدباء ١٢٧/١٦ والوفيات ٤٧٥/٣ وتاريخ بغداد ٢٠٣/١٢ .
(٢) الاقتضاب ٦٦ .
(٣) الاقتضاب ٧٠ - ١٠١ .
(٤) البرهان ٣١٥/٢٥٦.

الترسل ، إذ هي عنده خاصة بكتابة اللفظ ، وهي وحدهـا التـي يمكـن أن تعـد مـن وجـوه البيان التي فصل القول فيها في كتابه ، وأرجأ حديثـه عـن هؤلاء الكتـاب إلـى أواخـره ، فذكر ما يحتاج إليه كل واحد منهم من ثقافة وأدوات ، واكتفى في حديثه عن كاتب اللفظ بالقول : " وهو المترسل ، وقد مضى من ذكر الرسائل والخطب ما فيه كفاية . . . وكـل ما حسن في الشعر حسن في القول "(١) وكان قد خص الترسل بحديث مطول بدأه بتحديد أنواعه فقال بعد أن أجمل ذكر أنوع الخطـب وأغراضهـا مـن " إصـلاح ذات البيـن . . . وحمالة الدماء ، والتشييد للملك ، والتأكيد للعهد ، وفي عقد الإمـلاك وفـي الدعـاء ، وفـي الإشادة بالمناقب . . . والترسل : في أنواع من هذا، وفـي الاحتجـاج علـى مـن زاغ مـن أهل الأطراف ، وذكر الفتوح ، وفي الاعتذارات ، والمعاتبات وغير ذلك مما يجرى فـي الرسـائل والمكاتبـات والبلاغـة في الجميع واحـدة ، والعي فيه قريـب من قريـب "(٢).

ولعل من الغريب أن نجد ناقدا متمـيزا كإسحق بـن وهـب الـذي خصـص كتابـه للأنواع الأدبية وخصائص كل نوع منها وميزاته وغاياتـه وخـص الترسـل فيـه بأحـاديث مسهبة ، لا يحسن التفريـق بيـن هـذا الفـن الأدبـي وغيره ، فيجعـل أغــراض الخطابــة وأنواعها من جملة أغراض الترسل وأنواعه ثم لا يكتفي بذلك إذ يرى أن أســاليب الشـعر وخصائصه الفنية وميزاته توافق الترسل وتناسبه فيوجـه الكتـاب والمترسلين إلـى تقليـب النظر فيها والنسج على منوالها ، وفي ذلك إغفال واضح لخصـائص النـوع الأدبـي التـي تميزه من غيره ، وإن كان ابـن وهـب قد أطـال الوقــوف علـى خصائــص الترســل ، وأبدى فيهــا آراء نافــذة ، شأنه في ذلك شـأن أبـي هـلال العسكري (-٣٩٥ هـ) الـذي قرن الخطابة إلى الكتابة ، ولم يجد بينها وبين الشعر من فـارق سـوى الـوزن والتقفيـة ، فقال : " واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلان في أنهما كـلام لا يلحقـه وزن ولا تقفيـة ، وقد يتشــاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصــل ، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسـائل ، ولا فـرق بينهمـا إلا أن الخطبة يشـافه بها، والرسـالة يكتب بها والرسـالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسـالــة

(١) ن . م ٢٨٤ / ٣٤٠ .
(٢) ن . م ١٥٠ / ١٩١ .

في أيسر كلفة " (١) .

على أن الفارق النوعي بينهما في نظره إنما يتجلى في وظيفة كل منهما وغايته "فالكتابة عليها مدار السلطان والخطابة لها الحظ الأوفر من أمر الدين "(٢) ومن الواضح أن حديث أبي هلال إنما يقتصر على نوع واحد من أنواع الكتابة فحسب ، وهو الكتابة السلطانية أو الديوانية ، ولذلك نراه يضيق مجال الترسل ويرى أنه غير صالح للجري في مختلف الأغراض التي يجرى الشعر فيها فيقول : " إن الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك . . . جاء في غاية القباحة ، وإن عمل في ذلك أبياتا من الشعر احتمل "(٣) .

وقد اقتصر من أنواع الكتابة والترسل على ذكر أنواع الرسائل الديوانية ، وفصل القول في خصائص كل نوع منها ، وسماته وأساليبه فقال : " وحكم ما ينفذ من السلطان في كتبه شبيه بحكم توقيعاته من اختصار اللفظ ، وتوكيد المعنى هذا إن كان الأمر والنهي واقعين في جملة واحدة ، فأما إذا وقعا في [غير] ذلك الجنس فإن الحكم فيها يخالف ما ذكرناه ، وسبيل الكلام فيها يحمل على الإطالة ... وذلك مثل ما يكتب عن السلطان من أمر الأموال . . . ومنها الإحماد والذم : وسبيل ذلك أن تشبع الكلام فيه ليرتاح بذلك قلب المطيع . . . فأما ما يكتبه العمال إلى الأمراء ومن فوقهم فإن سبيل ما كان واقعاً في إنهاء الأخبار ، وتقرير صور ما يلونه من الأعمال أن يمد القول فيه . . وسبيل ما يكتب به في باب الشكر : ألا يقع فيه إسهاب ، فإن إسهاب التابع في الشكر نوع من الإبرام والتثقيل . . . وسبيل ما يكتب به في الاعتذار : أن يتجنب فيه الإطناب والإسهاب ، ولا يمكن في تبرئة ساحته من الإساءة فإن ذلك مما يكرهه الرؤساء ، ليكون لهم فيما يعقبون ذلك من العفو موضع منه ". (٤) ومما يثير الانتباه ، ويدعو إلى الإعجاب

---

(١) كتاب الصناعتين ١٣٩ .
(٢) ن . م ١٤٠ .
(٣) ن . م ١٤٦ .
(٤) ن . م ١٦٢ - ١٦٣ .

في هذا النص هو تنبه أبي هلال على الفوارق الأسلوبية بين أنواع المكاتبات الديوانية ، وإحكام الصلة بين مضمون الرسالة وأسلوبها ، ورصد أصدائها في نفس من تكتب إليه ، وتلمس أثر أسلوبها في تحقيق غاياتها وأغراضها ، وتلك أمور قلما وجدنا أحدا" من النقاد يتنبه عليها ، أو يشير إليها في أثناء أحاديثهم عن أنواع الترسل .

على أن من هؤلاء النقاد من تنبه على قيمة العاطفة وأهميتها في الرسائل الأخوانية ، واتخذ منها معيارا" للتفريق بينها وبين الرسائل الديوانية ، فروى الصولي (-٣٣٥ هـ) عن الحسن بن وهب الكاتب (-٢٥٠ هـ) قوله : " كاتب رئيسك بما يستحق، ومن دونك بما يستوجب ، واكتب إلى صديقك كما تكتب إلى حبيبك "(١) وكان الصولي قد خص " مكاتبة الأخوان "(٢) بحديث وجيز اقتصر فيه على ذكر هذا القول وقول آخر مشابه له ، ورواية بعض الأشعار في المودة ، بيد أنه لم يول أنواع الترسل أي اهتمام في كتابه الذي انصب جهده فيه على ثقافة كتاب الدواوين وآدابهم وأدواتهم ، وأصول مكاتباتهم وقواعدها فحسب .

كما تنبه الثعالبي (-٤٢٩ هـ) على قيمة الأثر العاطفي ، وأهمية الاتفاق في الأفكار والثقافة في الرسائل الأخوانية ، واتخذ من ذلك معيارا" للحكم عليها وتقديرها ، وعلل على أساسه ما في بعض رسائل ابن العميد من عناصر الإحسان والتجويد فقال : " إن أحسن رسائله الأخوانيات ما كاتب به أبا العلاء السروي : لصدوره عن صدر مائل إليه ، محب له ، مناسب بالأدب إياه "(٣) ويبدو أن هذا المعيار كان حاضرا" في ذهنه حين أشار إلى قدرة بعض الكتاب على الترسل في نوع محدد ، والتجويد فيه دون غيره، شأن أبي القاسم الإسكافي : " ومن عجيب أمره أنه كان أكتب الناس في السلطانيات ، فإذا تعاطى الأخوانيات كان قاصر السعي ، قصير الباع . وكان يقال:

---

(١) أدب الكتاب ٢٣٦ – ٢٣٨

(٢) ن . م ٢٣٦ .

(٣) يتيمة الدهر ١٦٠/٣ .

إذا استعمل أبو القاسم نون الكبرياء ، تكلم ما في السماء "[١] وفي ذلك إشارة واضحة إلى ارتباط تقصير هذا الكاتب في الأخوانيات ، وتجويده في السلطانيات بما جبل عليه من صلف وكبر يبعدانه عن مجال الأخوانيات ، ويقر بأنه من الديوانيات لما فيها من أمر ونهي وتوجيه ، وكان الإسكافي من كبار رجال الدولة ، ورؤساء الدواوين في خراسان .

ولأبي حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠ هـ) في أصناف الكتاب ومراتبهم ، وقدراتهم على إنشاء الرسائل وإملائها ، وتجويدهم فيها أو تقصيرهم ، رأي طريف ، وقسمة بدع، ومصطلحات فريدة ، فنسب إلى بعض شيوخه : " أن الكتاب سبعة : الكامل : وهو الذي له في الإنشاء والإملاء حظ ، والأعزل : الذي يملي ولا يكتب ، والمبهم : الذي يكتب ولا يملي ، والرقاعي : الذي يبلغ في الرقاع حاجته ولا يصلح لعظيم الكتابة ، والمخيل : الذي له عارضة وبيان ورواية وتعرف بالآداب ولا طبع له في الكتابة ، والمخلط : الذي يرى له في الكتاب الواحد بلاغة جيدة وفدامة عجيبة ، والسكيت المتبلد : وربما جاء بالشئ المحتمل إذا تعنى له "[٢] والترسل أو كتابة الإنشاء عند أبي حيان تشمل سائر كتاب الدواوين ولا تقتصر على كتاب ديوان الرسائل وحدهم ، وفي ذلك يقول في معرض المفاضلة بين كتابة الحساب وكتابة البلاغة أو الإنشاء :" إن أعمال الدواوين التي تفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب في فنون ما يصنفونه ويتعاطونه ، بل لا سبيل لهم إلى العمل إلا بعد تقدمة الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان ، وهذه الدواوين معروفة فمنها : ديوان الجيش وبيت المال والتوقيع ..."[٣] ولذلك وجدنا علي بن خلف (بعد٤٣٧ هـ) يشترط أن يكون كتاب الدواوين على اختلاف أصنافهم ومراتبهم ، وعدتها عنده خمس عشرة مرتبة : " على حظ من الترسل"[٤] سواء في ذلك كاتب الخراج أو الجند أو المظالم أو غيرهم ، وإن كان حظ بعض الكتاب من ذلك عنده أوفر من بعض ككاتب القص إذ اشترط " أن يكون بليغاً ماهراً في صناعة

---

(١) ن. م ٤/٩٧ وانظر أخباره في اليتيمة ٤/٩٥ – ١٠٠ . (٢) أخلاق الوزيرين ١٣٧ .
(٣) الإمتاع والمؤانسة ١/٩٧-٩٨ . (٤) مواد البيان ٨٤ وانظر ما بعدها . وفي ذلك ما يفسر سبب اهتمام النقاد والمؤلفين بهؤلاء الكتاب، ويصحح ما ذهب إليه د . طه حسين في قوله : " إن الذين درسوا تاريخ الأدب العربي لا يفرقون بين كتابة الدواوين وبين كتابة الرسائل . . . فالأولى ضرب من الحساب " . وانظر من حديث الشعر والنثر ٣٧

الترسل ، قادرا" على جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلـــة"(١) فكـان بذلـك مـن أسـبق النقاد إلى التنبه على أهمية هذا النوع من الكتابة التي تتعلق - على الأغلب - بالعامة من النـاس ، ونقـل همومهـم وشـكاواهم إلـى أصحـاب الدواويـن والحكـم بهـذه القصـص التـي يدبجها لهم كتاب محترفون قلما وجدنا من يوليهم عناية نقدية ، وقد اشترط ابن خلف فيهم البلاغة والمهارة والقدرة على الإيجاز والاختصار ، مع الوفاء بحقوق المعاني والأفكار ، شأنهم في ذلك عنده شأن أصحاب التوقيعات وكتابها ، إذ يرى أنه : " قد يحتمـل تقصـير الكاتب . . . فأما صاحب التوقيع فلا يحتمل تقصيره في شيء بالجملة"(٢) .

والتوقيع نوع من أنواع الكتابة الديوانية " يستعمل في كل كتـاب يكتبـه الملـك أو من له أمر ونهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه أو على ظهره أو في عرضه بإيجـاب أو منع "(٣) ويتضمن توجيها" أوردا" على رسالة بعبارة موجزة إيجازا" شـديدا" قد يبلـغ حـد الإعجاز ، ويفي مع ذلك بالغرض المراد ، وقد يكتفي صاحب التوقيع بذكـر آيـة أو مثـل أو بيت شعر ، فيدل على نباهته وسعة ثقافته ، وكثيرا" ما يعمد الخلفاء والرؤساء أنفســهم إلى التوقيع ، أو يوقع بين أيديهم أو في ديوان التوقيع عنهم كاتب محترف يعد مـن أمهـر الكتاب وأبلغهم .

وقد أعجب العرب بهذا اللون من الكتابة لما فيه من فطنة وبلاغة وذكاء ، فكـان الكتــاب والمتأدبــون يحفظــون توقيعــات البلغاء ويتدارســونهــا ، فذكـــر الجهشياري أن

---

(١) مواد البيان ٨٥ .
(٢) ن . م ٧٤ .
(٣) الاقتضاب ١٠١ وانظر كتاب الكتاب لابن درستويه ١٥٩ وصبح الأعشى ٥٢/١ (ط مصر) و ٨٣/١ (ط بيروت) و مقدمة ابن خلدون ٤٣٧ - ٤٤٠ وذكر د. شوقي ضيـف فـي العصـر العباسـي الأول ٤٨٩ أن " ملوك الفرس ووزراءهم تعودوا أن يوقعوا على ما يقدم إليهم مـن تظلمـات وحاكـاهم خلفـاء بنـي العبـاس ووزراءهم " بيد أن العرب عرفوها قبل ذلك كما سيمربنا .

" جعفربن يحيى البرمكي كان إذا وقع نسخت توقيعاته ، وتدورست بلاغته فيها "(١)
وقال ابن خلدون : " وكان جعفريوقع القصص بين يدي الرشيد، ويرمي بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل إنه كانت تباع كل قصة بدينار (٢) وفي ذلك دلالة على ما كانت تحظى به التوقيعات من إعجاب وتقدير ، فكانت تجمع في كتب مفردة مثل كتاب رسائل الوزير المهلبي وتوقيعاته(٣)، وخصها النقاد والمؤلفون بصفحات طويلة ، وأبواب مفردة ، سردوا فيها أمثلة كثيرة منها ، ووقفوا في أثنائها على خصائصها الفنية وميزاتها التي تكاد تنحصر بالإيجاز فكانت بذلك مرادفة للبلاغة عندهم ، فقال ابن عبد ربه في صدر كتاب التوقيعات والفصول في العقد : " إن أشرف الكلام وأرفعه قدرا" ... مادل بعضه على كله ، وكفى قليله عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه ، وذلك أن تقل حروفه، وتكثر مَعانيه "(٤) وضرب لذلك مثلا" ببعض التوقيعات الوجيزة ، ثم أتى على سرد عدد كبير من توقيعات الخلفاء الراشدين ومن تلاهم من الخلفاء والوزراء والكبراء ، ومن ذلك توقيع الإمام علي (ر) في كتاب صعصعة بن صوحان يسأله في شيء : " قيمة كل امرئ ما يحسن "(٥) ، وتوقيع هارون الرشيد " في قصة رجل من البرامكة : " أنبتته الطاعة ، وحصدته المعصية"(٦) وتوقيع جعفر بن يحيى إلى بعض عماله : " قد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما عدلت ، وإما اعتزلت "(٧) وكان جعفر بن يحيى مغرما" بالتوقيعات لما فيها من إيجاز ، فطالب كتابه أن يحتذوا حذوها في رسائلهم وقال : " إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا "(٨) على حين اقتصر أبو هلال العسكري من ذلك على ما ينفذ عن السلطان من الرسائل والكتب التي يكتب بها إلى عماله في الأمر والنهي فقال : " وحكم ما ينفذ عن السلطان من كتبه فسبيله بحكم توقيعاته من اختصار اللفظ وتوكيد المعنى "(٩) مشيرا" بذلك إلى ماتتماز به التوقيعات في اللفظ والمعنى من اختصار وتوكيد ، ولم يجد النقاد في هذا اللون من الخصائص والسمات

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٠٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٣٧ .
(٣) الفهرست ١٤٩ .
(٤) العقد الفريد ١٥٦/٤ .
(٥) ن . م ٢٠٦/٤ .
(٦) ن . م ٢١٣/٤ .
(٧) ن . م ٢١٩/٤ ونسبه صاحب البرهان٢٠٣/١٦٠ إلى المأمون .
(٨) البيان والتبين ١١٥/١ وأدب الكتاب ٢٢٨ .
(٩) كتاب الصناعتين ١٦٢ .

ما يمكن أن يفسح المجال للقول فاكتفى معظمهم بسرد بعض نماذجها الرفيعة ، والإشارة إلى صفة الإيجاز فيها ، شأن إسحق بن وهب في قوله : " ومن موجز التوقيعات ما رفع به صالح بن يزداد إلى رجل أذنب : قد تجاوزت عنك ، فإن عدت أعدت إليك ما صرفته عنك "(١) وروى عدة مختارات أخرى من توقيعات البلغاء .

أصول المكاتبات وقواعدها ورسومها :

للرسائل والمكاتبات عند سائر الشعوب آداب وقواعد وأصول تختلف باختلاف عاداتها وتقاليدها وبيئاتها ، وتتطور بتطور مظاهر العيش والحياة فيها ، وتدل على طرق التواصل ، وأساليب التعامل بين الناس في مجتمعاتهم ، وتكشف عن كثير من الجوانب الخفية في علاقاتهم .

وتدل الآثار التي بين أيدينا على معرفة العرب منذ الجاهلية بعض آداب المخاطبة وأصولها ، ولزوم بعض قواعد المكاتبة ورسومها ، وكانت هذه القواعد والأصول قليلة وبسيطة ، تعبر عن بساطة الحياة في بيئاتهم ، وتفصح عن قلة التعقيد في حياتهم ، فلم تكن تتجاوز حدود افتتاح الكتاب وعنوانه ، وفصل الخطاب وختامه ، فذكر أصحاب الأوائل وغيرهم أن " العرب قبل الإسلام كانت تكتب في أوائل كتبها : باسمك اللهم ، وكان الرسول (ص) يكتبها كذلك ، فلما نزلت عليه : " باسم الله مجراها ومرساها "(٢) كتب في أوائل كتبه : باسم الله ، ثم نزلت عليه : "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن "(٣) فكتب : باسم الله الرحمن ، ثم نزلت " إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن الرحيم (٤) " فكتبها "(٥) وذكروا أن " أول من كتب :

(١) البرهان في وجوه البيان ٢٠٢/١٦٠
(٢) سورة هود ٤١/١١ .
(٣) سورة الإسراء ١١٠/١٧ .
(٤) سورة النمل ٣٠/٢٧ .
(٥) كتاب الكتاب ٧٦ (ط شيخو) و١٢٩ (ط السامرائي) وانظر الأوائل للعسكري ١٤٠/١ وللحنبلي - المخطوط ق١٢/ب والعقد الفريد ١٥٨/٤ وصناعة الكتاب ٦٣ .

من فلان إلى فلان ، قس بن ساعدة الإيادي "[1] وهو العنوان ، وكانت الكتب قبل ذلك : " مشهورة وغير معنونة ولا مختومة حتى كتبت صحيفة المتلمس، فلما قرأها ختمت الكتب وعنونت ، وكان يؤتى بالكتاب فيقال : من عني به ، فسمي عنوانا "[2] وكان الرسول (ص) : أول من ختم الكتاب من قريش وأهل الحجاز حين احتاج إلى مكاتبة الملوك ، فقيل له : إنهم لا يقبلون الكتب إلا مختومة ، فاتخذ خاتما" ... ونقش عليه : محمد رسول الله "[3] وكان لبعض صحابته وكتابه فضل إرساء بعض قواعد المكاتبات وأصول المخاطبات فذكروا أن " أول من كتب في آخر الكتاب : وكتب فلان : أبي بن كعب ، وهو أول من كتب للرسول حين قدم المدينة "[4] ، كما ذكروا أن عمر بن الخطاب : " أول من أرخ الكتب ، وختم على الطين "[5] .

وعلى ذلك جرت عادة الصدر الأول من العرب والمسلمين في مكاتباتهم ، فلم يكونوا يتجاوزون بها حدود هذه القواعد الأساسية ، والرسوم العملية التي تهدف إلى تحقيق غاية الرسالة ، وإبلاغ مضمونها دونما تعقيد أو تفخيم أو تطويل ، وظل ذلك ديدنهم حتى أواسط العصر الأموي ، فذكر صاحب العقد أن " الرسول (ص) كان يكتب إلى أصحابه وأمراء جنوده : من محمد رسول الله إلى فلان ، وكذلك كانوا يكتبون إليه ... وكذلك كتب الصحابة والتابعون حتى ولي الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ) فعظم الكتب وأمر ألا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضا" ، فجرت به سنة الوليد إلى يومنا هذا "[6] وفي ذلك ما يدل على بداية مرحلة جديدة من مراحل التطور والتعقيد في الحياة العربية ، وانعكاس أثره على أساليب الترسل وقواعده ورسومه التي ازدادت تعقيدا" في العصر العباسي ، وأصبحت معرفتها ركنا" أساسيا" من أركان ثقافة الكاتب ، ولم يعد ينهض بأعباء الكتابة من الأدباء والبلغاء إلا

---

(١) الأوائل للحنبلي – المخطوط ق ١٢/ب وانظر الأوائل العسكري ٨٨/١ .
(٢) العقد الفريد ١٥٨/١-١٥٩ .
(٣) الأوائل العسكري ١٤١/١ .
(٤) ن . م ٢٢٢/٢ .
(٥) الأوائل لابن قتيبة ٣٥ .
(٦) العقد الفريد ١٥٨/٤ .

من ثقف هذه الأصول ، وأتقن تلك القواعد من الكتاب الذين أخذوا يشكلون طبقة خاصة في هذه المدة نفسها ، وراح النقاد يؤلفون في أصول صنعة الكتابة وآدابها الرسائل والكتب ، ويخصون هذه القواعد والرسوم بصفحات طويلة منها ، وليس يقدر على النهوض بأعباء هذه الصناعة إلا كل من عرف هذه القواعد المعقدة وأتقنها، فيعد بعد ذلك من أهلها ، ولايسد مسده فيها غيره من الأدباء ، فذكر التوحيدي أنه لايكون الكاتب كاملا" ، ولا لاسمه مستحقا" حتى ينهض بهذه الأثقال"(١) وروى ياقوت عن بعض كتاب الوزير الصيمري (-٣٣٩هـ) قوله : " كنت أكتب بين يدي الصيمري ، فالتمسني يوما" لأن أجيب أبا الفضل بن العميد عن كتاب ، فلم يجدني ، وكان أبو سعيد السيرافي بحضرته ، فظن أنه لفضل العلم أقوم بالجواب ، فتقدم إليه أن يكتب ويجيب فكتب ... فوجده مخالفا" لجاري العادة لفظا" ، مباينا" لمأثوره ترتيبا" ، فقال : خفف عنك أيها الشيخ ، وادفع الكتاب إلى أبي عبد الله تلميذك "(٢) .

وكان الاهتمام بهذه القواعد والأصول قد بدأ في أواسط القرن الثالث بالتنبيه على بعض آداب المكاتبات وأصولها ، ورسم بعض صورها ورسومها كما هو الشأن في مقدمة ابن قتيبة (-٢٧٦هـ) لأدب الكاتب التي أتى في أواخرها على تأكيد أهمية مراعاة أقدار المخاطبين في الكتاب ، وأخذ على الكتاب تسامحهم في ذلك فقال: " ونستحب له أن ينزل ألفاظه من كتبه ، فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وأن لايعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس وضيع الكلام ، فإني رأيت الكتاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم ، وخلطوا فيه ، فليس يفرقون بين من يكتب إليه : فرأيك في كذا ، وبين من يكتب إليه : فإن رأيت كذا . ورأيك إنما يكتب بها إلى الأكفاء والمساوين ، ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرؤساء والأستاذين ،

---

(١) الامتاع والمؤانسة ٩٩/١ .
(٢) معجم الأدباء ١٨٣/٨ والصيمري ، أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمد وزير معز الدولة البويهي (-٣٣٩هـ) وانظر الأعلام ٣١٠/٥

لأن فيها معنى الأمر . ولا يفرقون بين من يكتب إليه : ونحن فعلنا ذلك ، ونحن : لايكتب بها عن نفسه إلا آمر أدناه ، لأنها من كلام الملوك والعظماء. وربما صدر كتابه بأكرمك الله وأبقاك ، فإذا توسط كتابه ، وعدد على المكتوب إليه ذنوبا" له قال: فلعنك الله وأخزاك ، فكيف يكره الله ويلعنه ويخزيه في حال ، وكيف يجمع بين هذين في كتاب "(١) .

وقد اتسع نطاق هذا الاهتمام بشكلٍ واضح في رسالة ابن المدبر (-٢٧٩هـ) التي جمع فيها آراء سابقيه في أصول الترسل ورسومه ، وأضاف إليها عناصر جديدة استمدها من خبرته الطويلة في الكتابة ، وبدأها بتقسيم طبقات الكلام بحسب طبقات المخاطبين " ثمانية أقسام : أربعة منها للطبقات العلوية ، وأربعة دونها ، ولكل طبقة منها درجة ، ولكل قسمة حظ لايتسع للكاتب البليغ أن يقصر بأهلها عنها ... فالعليا : الخلافة ... والثانية : الوزراء والكتاب ... والثالثة : الأمراء والقواد ... والرابعة : القضاة ... أما الطبقات الأربع الأخرى : فالملوك الذين أوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب ... والثانية وزراؤهم وكتابهم وأتباعهم الذين بهم تقرع أبوابهم ، وبعنايتهم تستباح أموالهم ... والثالثة العلماء : الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم ... والرابعة : لأهل القدر والجلالة والظرف والعلم والأدب : فإنهم يضطرونك بحدة أذهانهم ، وشدة تمييزهم وانتقادهم إلى الاستقصاء عن نفسك في مكاتباتهم ... ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب أن تراعيها في مراسلاتك إليهم ... فمن الألفاظ المرغوب عنها ، والصدور المستوحش منها في كتب السادات والأمراء والملوك على اتفاق المعاني مثل : أبقاك الله طويلا" ، وعمرك مليا" ، وإن كنا نعلم أنه لافرق بينها وبين قولهم : أطال الله بقاءك ولكنهم جعلوا هذا أرجح وزنا" وأرفع قدرا" في مخاطبة الملوك ، كما أنهم جعلوا : أكرمك الله وأبقاك ، أحسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء من : جعلت فداك ... ولم يجيزوا أن يكتبوا بمثل : أبقاك الله ، وأمتع بك ، إلا في الحرة والأهل والتابع والمنقطع إليك ، وأما في كتب الأخوان فغير جائزة ... لذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى ابن الزيات :

(١) أدب الكاتب ١٤-١٥ .

إن جـفـاء كـتـاب ذي أدب   أن يكتب في صدره : وأمتع بك

فكتب إليه ابن الزيات :

أنكرت شيئا" فلسـت فاعله   فـلـن تـراه يـخـط فـي كـتـبـك

وأما صدور السلف ، فإنما كانت : من فلان إلى فلان ، وكذلك جرت كتب رسول الله وأصحابه والتابعين حتى استخلص الكتاب هذه المحادثات من بدائع الصدور ، واستنبطوا لطيف الكلام ، ورتبوه لكل رتبة ... ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب ألا يتجاوز به عنه ، ولايقصر به دونه ، فامتثل هذه الرسوم والمذاهب ... وليكن ما تختم به فصولك في موضوع ذكر الشكوى بمثل : والله المستعان ... وفي ذكر النعم بمثل : والحمد لله ، فإنها مواضع ينبغي للكا تب تفقدها، فإنما يكون كاتبا" إذا وضع كل معنى موضعه "(١) .

وأتى بعد ذلك على ذكر بعض القواعد الشكلية في الخط وضرورة تحسينه والتاريخ وأهمية إثباته لأنه يدل على تحقيق الأخبار ، وطرق ختم الكتب وفض خواتيمها وتضمينها الأسرار بتبديل الحروف أو الكتابة بالحبر السري ، وأساليب كتابتها وقراءتها ، وفي ذلك كله ما يدل على تطور صنعة الكتابة ، وتغير أصولها وقواعدها ورسومها من عصر لآخر ، ومجاراتها لتطور المجتمع ، وترتيب الطبقات فيه . ولم يخفف ابن الدبر إعجابه بما لحق هذه القواعد والأصول من تطوير يدل – في نظره – على قدرة على استنباط لطيف الكلام ، فعمل على رسم بعض صورها وأمثلتها ، وطالب الكتاب بالاقتداء بها ، والنسج على منوالها ، وجعل إتقانها شرطا" أساسيا" من شروط صنعة الكتابة ، وأكد أهمية التقيد بها في مخاطبة المكاتبين بحسب طبقاتهم ومراتبهم ، ونبه على ضرورة توخي الدقة

(١) الرسالة العذراء ١٠–١٧ والبيتان في العقد الفريد ١٨٠/٤

فى مكابتة العلماء والأدباء خاصة ، لقدرتهم على تمييز الكلام ، ومعرفتهم بأصوله وقواعده ، ولم يقتصر في ذلك كله على الرسائل الديوانية فحسب ، وإنما تجاوزها إلى الأخوانية أيضا" ، فرسم أصولها وقواعدها اعتمادا" على مقاييسه الطبقية نفسها، مفصحا" بذلك عن موقف طبقته من هذه القواعد والأصول ، إذ كان من كبار كتاب الدولة العباسية ووزرائها .

وقد كان لهذه الآراء أثر ظاهر في معظم ما ألف في صنعة الكتابة وأصولها بعده ، فاكتفى ابن عبد ربه (-٣٢٨هـ) بنقلها في أثناء حديثه عن استفتاح الكتب وختمها وعنونتها وتأريخها وما يجوز فيها من أصول المكاتبات وأساليبها وما لايجوز[١] ، وعمد الصولي (-٣٣٥هـ) إلى اختصارها في حديثه عن هذه الجوانب كلها ، ونبه على بعض الأمور التي لم يعرها ابن المدبر اهتماما" ، كضرورة التفريق بين قواعد مكاتبة المسلم وغيره [٢] ، وأثر العاطفة والمودة في التخفيف من كثير من القواعد والقيود في الرسائل الأخوانية[٣] .

أما أبو جعفر النحاس (-٣٣٨هـ) فإنه وإن كان قد اعتمد على هذه القواعد في ترتيب طبقات المكاتبين[٤] ، وأصول مكاتبة الرئيس من دونه ، ومكاتبة النظراء ، ومكاتبة المرؤوس رئيسه ، ومكاتبة ولي العهد والوزير والأمراء والقضاة وغيرهم ، إلا أنه أضاف إليها أبوابا" جديدة في أصول مكاتبة الرجل ابنه ، ومكاتبة الفتيان والأدنياء والنساء ، فكان بذلك من السابقين إلى الكشف عن أصول مكاتبة هذه الفئات وربما وجدناه يشير إلى بعض ما لحق أصول المكاتبة في عصره من تطور كقوله في باب مكاتبة المرؤوس رئيسه : " والمستعمل في هذا الوقت في مكاتبة الوزير الإمام : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وأدام عزه وأيده ، وأتم نعمته عليه"[٥] وكثيرا ما يعمد إلى الإستئناس بأخبار النبي (ص) وأقواله ، ويتخذ منها مقياسا" لنقد هذه المخاطبات وتقديرها كقوله : " وكرهوا أن يقال : عبدك ، واحتجوا بالحديث عن النبي : لايقل أحدكم : عبدي ... وكلكم عبيد الله ... وكرهوا أن يقال : مولاي ، لقول رسول الله : لايقل أحدكم مولاي فإن مولاكم الله جل وعز"[٦] .

---

(١) أدب الكاتب ٢٢٥

(٢) ن . م ٢٣٦ .

(٣) العقد الفريد ١٥٨-١٦٠ ثم ١٨٠-٢٠٥

(٤) انظر المرتبة الرابعة من صناعة الكتاب . ١٦-١٧٦

(٥) صناعة الكتاب ١٦٥ .

(٦) صناعة الكتاب ١٦٩ وانظر صحيح مسلم ١٧٦٤/٤ (ط عبد الباقي) كتاب الألفاظ من الأدب . وفيه : لايقل العبد لسيده مولاي .

وعزا جملة هذه الأساليب في الكتابة إلى الزنادقة ، ولم يخف ميله إلى أساليب العرب الأصيلة في المكاتبة والمخاطبة ، مخالفا في ذلك رأي ابن المدبر فقال : " وجملة هذا أن هذه المكاتبات كلها محدثة ... وأول من كاتب بأطال الله بقاءك: الزنادقة ... ومكاتبة المسلمين كانت : من فلان إلى فلان ، أما بعد ، سلام عليك ... ثم إن الزنادقة أحدثوا هذه المكاتبات " (١) .

ولم يعن ابن درستويه (٣٤٧هـ) بطبقات المخاطبين ومراتبهم ، واكتفى بضرب الأمثلة في أصول افتتاح الكتب ، وما تصدر به من أنواع المخاطبات ، وماتردف به أو تختم ، مستفيدا" في ذلك كله من آراء ابن قتيبة وابن المدبر والصولي وغيرهم ، على حين قام ابن وهب (نحو ٣٥٠هـ) بتقسم طبقات المخاطبين إلى ثلاث مراتب ، وقسم كل مرتبة منها عدة أقسام ، فقال : " فأما مراتب المكاتبين فهي ثلاث : مرتبة من فوقك ونظيرك ومن دونك ، والمرتبة العليا تنقسم ثلاثة أقسام: فأعلاها مرتبة الخليفة ووزيره ... والأمراء ... والرؤساء "(٢) ورسم أصول مكاتبة كل طبقة منها أو مرتبة وقواعدها ، ولم يتجاوز في ذلك حدود ما ورد في رسالة ابن المدبر من قواعد ورسوم .

وخصص أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) لقواعد المكاتبة وأصولها في الصناعتين بابا" عنوانه : " فيما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته "(٣) اعتمد فيه التقسيم الطبقي أساسا" للمكاتبة ، ونبه فيه على بعض ما يقع فيه الكتاب من أخطاء لعدم معرفتهم أصول المخاطبة ورسومها ، وأكثر من الإشارة إلى تطور هذه الرسوم وتغيرها في عصره ، دون أن نجد في ذلك كله جديدا" كقوله : " وفرق بين من تكتب إليه : فإن رأيت ، وبين من تكتب إليه : فرأيك . وأن تعرف مقدار المكتوب إليه من الرؤساء والنظراء والغلمان والوكلاء ، فتفرق بين من تكتب إليه بصفة الحال وذكر السلامة ، وبين من تكتب إليه بتركها إجلالا" وإعظاما" ، وبين من تكتب إليه : أنا أفعل كذا ... ونحن نفعل كذا ، فأنا : من كلام الأخوان والأشباه، ونحن : من كلام الملوك ... وكان الناس فيما مضى يستعملون في أول

---

(١) ن . م ١٦٩ وكتاب الكتاب ٧٦-٩٨ (ط بيروت) .

(٢) البرهان في وجوه البيان ٢٧١/٣١٠

(٣) كتاب الصناعتين ١٦٥

فصول الرسائل : أما بعد، وقد تركها اليوم جماعة من الكتاب .فإن استعملتها اتباعا" للأسلاف فهو حسن، وإن تركته توخيا" لمطابقة أهل عصرك لم يكن ضائرا" (١).

ومما نظر فيه هؤلاء النقاد من قواعد المكاتبات وأصولها مسألة الاستشهاد بالقرآن ، فاتفقوا على أنها مما يزين الكتاب ، واستثنى ابن المدبر من ذلك استشهاد الكاتب بشعر غيره في كتب الخلفاء والرؤساء ، فقال : " إن تضمين المثل السائر والبيت الغابر مما يزين كتابك ، ما لمَ تخاطب خليفة أو ملكا" جليل القدر، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلة الرؤساء عيب واستهجان للكتب ، إلا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر ، والصانع له ، فإن ذلك مما يزيد في أبهته ، ويدل على براعته.(٢) على حين وجدنا ابن وهب يجعل هذا المبدأ عاما" فيقول : " وإذا استعمل المترسل في كتبه التمثل بآداب الأوائل والاستشهاد بالقرآن كان ذلك أحلى لمنطقه ، وأحسن عند سامعيه " (٣) .

ومن خلال ذلك كله يمكن أن نلاحظ أن اهتمام النقاد العرب بأصول المكاتبة وقواعدها إنما يعتمد على أساس التقسيم الطبقي لأصناف المكاتبين ، واتفاقهم على أهمية هذا التقسيم في الرسائل الديوانية خاصة ، وإن كان معظمهم يميل إلى تعميم هذا التقسيم على الرسائل الأخوانية أيضا ، ولم يخف أكثر هؤلاء النقاد إعجابه بما لحق هذه القواعد والأصول من تطور وتعقيد ، وإن كنا قد وجدنا لدى النحاس ميلا" واضحا" إلى العودة إلى أساليب العرب البسيطة في المكاتبات فنسب هذه الأساليب المحدثة إلى الزنادقة ، وفي ذلك دلالة على تنبهه على بعض العوامل المؤثرة في تطور أساليب الكتابة العربية ، والاتجاه بها نحو المبالغة والتعقيد كما سيتضح معنا في أثناء تناولنا لهذه الأساليب بعد قليل .

---

(١) ن . م ١٦٥-١٦٦

(٢) الرسالة العذراء ٧-٨

(٣) البرهان ٢٨٤/٣٥٥ .

أسلوب الكتابة :

للأسلوب الأمثل في الترسل والكتابة عند النقاد العرب شروط محددة تتصل باللفظ المفرد ، والعبارة المركبة ، ومن أهمها في نظرهم : سهولة اللفظ ، وإيجاز العبارة ، وجودة التأليف ، والبعد عن التكلف والتعقيد وغير ذلك من الشروط التي طالبوا الكتاب بلزومها ومراعاتها في كتبهم ورسائلهم ، واتخذوا منها معايير أساسية في نقدها وتقديرها .

وقد أولى هؤلاء النقاد لغة الكتاب عناية كبرى ، فألفوا الكتب الكثيرة فيما يحتاجون إليه من أصول الثقافة اللغوية والنحوية والصرفية والألفاظ الكتابية ، كأدب الكاتب لابن قتيبة ، وصناعة الكتاب للنحاس ، والألفاظ الكتابية للهمذاني ، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر وغيرها من الكتب التي ذكرنا عددا" كبيرا" منها من قبل .

ويتفق سائر النقاد العرب في الدعوة إلى سهولة الألفاظ ، وهجر الوحشي والغريب منها ، ورائدهم في ذلك قول ابن المقفع لبعض الكتاب : " إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعا" في نيل البلاغة فإن ذلك العي الأكبر"(١) . وتوسع في ذلك بشر ابن المعتمر فحدد للألفاظ عددا" من المقاييس التي تدل على جودتها ، فاشترط أن تكون واسطة في الاختيار ، ومشاكلة للمعنى ، ومناسبة للمقام ، وبعيدة من التعقيد ، وجعل ذلك أعلى مراتب البلاغة فقال : " إياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ... ومن أراغ معنى كريما" فليلتمس له لفظا" كريما" ... وكن في ثلاث منازل، فإن أدنى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا" عذبا" ، وفخما" سهلا" ، ويكون معناك ظاهرا" مكشوفا" ... فإن استطعت أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لاتلطف عن الدهماء، ولاتجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام "(٢).

---

(١) البصائر والذخائر ٧-٨ .

(٢) البيان والتبيين ١٣٦/١ .

وقد لاحظ الجاحظ أن هذه الصفات والمقاييس إنما تنطبق على الكتاب دون غيرهم من أرباب البلاغة والبيان ، فقال في التعليق على كلام بشر ومنوها" برهافة حس الكتاب في تخير الألفاظ وانتخابها : " فأما أنا فلم أر أمثل طريقة في البلاغة من الكتاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا" وحشيا" ، ولا ساقطا" سوقيا"(١) . وأخذ على بعضهم استعمال الغريب تفاصحا" في رسائلهم فقال :"ورأيت الناس يتداولون رسالة يحيى بن يعمر : إنا لقينا العدو ، فقتلنا طائفة ، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعراعر الأودية ، وأهضام الغيطان .[قال الجاحظ] فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة ، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة"(٢) . فغاية الألفاظ عنده إنما تتجلى في الدلالة الواضحة على المعنى دونما إغراب أو إسفاف أو تعقيد ، وذلك هو المقياس الأساسي لجودة الكلام لديه فيقول : " وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه حتى لايحتاج السامع لما فيه من الروية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه عن غريب الأعراب ، ووحشي الكلام "(٣) .

ومقاييس جودة الألفاظ عنده إنما تتبدى في الرقة والسهولة ، والخلو من الاشتراك واللبس ، والإحاطة بالمعنى ، والاستغناء عن التفسير ، وقد أجمل هذه المقاييس في قوله : "وأعجب الألفاظ مارق وعذب ، وخف وسهل ، وكان موقوفا" على معناه ومقصورا" عليه دون ما سواه ، لا فاضل ولا مقصر ، ولا مشترك ولا مستغلق ، قد جمع خصال البلاغة . فإذا كان الكلام على هذه الصفة ، وألف على هذه الشريطة ، لم يكن اللفظ أسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقائل ، والمتعلم كالمعلم ، وخفت المؤونة ، واستغني عن الفكرة ، وماتت الشبهة ، وظهرت الحجة"(٤) . وهو في ذلك يجري على مذاهب اهل الاعتزال في الاهتمام بدقة المعاني ووضوح الأفكار ، واتخاذ البلاغة والبيان وسيلة للإقناع والتأثير ، فروى عن جعفر بن يحيى البرمكي قوله وقد " سئل : ما البيان ؟ فقال:

---

(١) ن . م ١/١٣٧ وأنظر ٤/٢٤ .
(٢) ن . م ١/٢٧٧-٢٧٨
(٣) الحيوان ١/٨٩
(٤) التربيع والتدوير ٢٠

أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلي عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ولاتستعين عليه بالفكرة . والذي لابد منه أن يكون سليما" من التكلف ، بعيدا" من الصنعة ، بريئا" من التعقيد ، غنيا" عن التأويل [قال الجاحظ] وهذا هو تأويل قول الأصمعي: البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر"(١) .

وعلى ذلك فإن أهم شرائط الألفاظ عنده : الدقة في استعمالها في مواضعها، والتعبير بها عن معانيها ، ومثله الأعلى في ذلك القرآن الكريم فيقول : " وقد يستخف الناس ألفاظا" يستعملونها وغيرها أحق بذلك منها . ألا ترى أن الله لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لايذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لأنك لاتجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لايفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث "(٢) . ولذلك نراه يكثر من تأكيد أهمية مشاكلة اللفظ للمعنى ، ويأخذ على الكتاب ولوعهم بتحفظ ألفاظ بأعيانها ، واستعمالها في غير مواضعها فيقول : " إن لكل معنى شريف أو وضيع ضرب من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه ... فمن قرأ كتب البلغاء ليستفيد المعاني فهو على سبيل صواب ، ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها ، والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ، ويضعها في غير مكانها ... والوجه الضار أن يتحفظ ألفاظا" بأعيانها ... فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ، وجها بذة المعاني استخفوا عقله ، وبهرجوا علمه "(٣) . على أنه – مع ذلك – لاينكر أن يكون لكل قوم أو صنف من الأدباء ، أو اديب معجم لغوي خاص يشتمل على ذخيرة من الألفاظ المألوفة ، والتعابير المميزة فيقول : " ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر وصاحب كلام

---

(١) البيان والتبيين ١٠٦/١ .

(٢) ن . م ٢٠/١ .

(٣) فصل من كتاب المعلمين – مجلة المورد – مج ٧ –ع٤ – س ١٩٧٨ – ص١٥٤ . وانظر رسالته في تفضيل النطق على الصمت في العدد نفسه ١٧٥ والبيان والتبيين ١٥٤/١ و ١٤٥ و٧/٢ .

موزون ، فلابد أن يكون قد ألف ألفاظا" بأعيانها ليديرها في كلامه "[1] يريد بذلك الخصائص اللغوية ، والسمات الأسلوبية المميزة للفرد أو الجماعة وهو موضوع قد اتسع مجال القول فيه لدى أصحاب الدراسات اللسانية والأسلوبية من المعاصرين ، وكان الجاحظ من أسبق النقاد إلى التنبه عليه (٢) .

وعلى الرغم مما هو شائع بين الدارسين ومعروف من أمر انحياز الجاحظ إلى جانب اللفظ وتقديمه له على المعنى ، إلا أن هذه النصوص تؤكد أن اهتمامه بجلاء المعنى ودقة التعبير عنه بألفاظ مشاكلة له ، دون أن يعني ذلك تقديم أحدهما على الآخر أو تفضيله كما قد يفهم من قوله : " والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ... وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك "[3] وهو القول الذي يرتبط – في نظرنا – بالقدرة على نظم الكلام وتأليفه ، إذ ليس للمعاني والأفكار قيمة فنية أو أدبية بذاتها ، وإنما تكتسب هذه القيمة من خلال حسن الصياغة، وروعة التصوير ، وبراعة التعبير ، وذلك ما يميز العمل الأدبي من غيره كما هو معروف .

وقد خص ابن قتيبة لغة الكاتب وتقويم يده ولسانه بمعظم أبواب " أدب الكاتب " وتحدث في مقدمته عن صفات الألفاظ الكتابية وخصائصها ، مستفيدا" في ذلك من أراء أسلافه في الدعوة إلى تجنب الغريب ، وتوخي الدقة في استعمال الألفاظ وجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه فقال : " ونستحب له أن يدع في كلامه التقعير والتقعيب ووحشي الغريب وتعقيد الكلام ، كقول بعض الكتاب : وأنا محتاج أن تنفذ إلي جيشا" لجبا" عرمرما"... وكان هذا الرجل قد أدرك صدرا" من الزمان ، وأعطى بسطة في العلم واللسان ، وكان لايشان إلا بتركه سهل

---

(١) الحيوان ٣/٣٦٦

(٢) انظر اللغة والإبداع ٤٥ .

(٣) الحيوان ٣/١٣٢ .

الألفاظ ... ونستحب له أيضا أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه"(١) . وإلى ذلك ذهب ابن المدبر في حديثه عن لغة الكتاب وألفاظهم ، فدعا إلى التوسط والاعتدال في تخيرها ، وقال مخاطبا" الكاتب : " وتجنب ما قدرت الألفاظ السخيفة ، واقتضب كلاما" بين الكلامين "(٢) وتابع الجاحظ في التنبيه على ضرورة مشاكلة الألفاظ لمعانيها ، وإنزالها في منازلها الصحيحة بعد تقليب النظر في موازين تصريفها فقال : " وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب ، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف ... وأدر الألفاظ في أماكنها ، واعرضها على معانيها ، وقلبها على جميع وجوهها حتى تقع موقعها ، ولاتجعلها قلقة نافرة ... واعلم أن الألفاظ في غير أماكنها ، والقصد بها إلى غير مظانها كترقيع الثوب ... وليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ ، وقصدك بها إلى مواضعها "(٣) .

وحدد أبو هلال العسكري لجودة الألفاظ عددا" من المعايير ، ومن أهمها عنده :السهولة والوضوح ، والبراءة من الركاكة والغثاثة ، وتجنب التكرار، والفصل بين حروف الصلات والرباطات ، ووضع الألفاظ في مواضعها فقال : " وأجود الكلام ما يكون جزلا" سهلا" لاينغلق معناه ، ولايستبهم مغزاه ولايكون مستكرها" ، ومتوعرا" ، ويكون بريئا" من الغثاثة "(٤) وأكد أهمية حفظ المترادفات الكثيرة لتجنب التكرار فقال : " وينبغي أن تكثر الألفاظ عنده ، فإن احتاج إلى إعادة المعاني أعادها بغير اللفظ الذي ابتدأ به "(٥) وحذر الكاتب من الموالاة بين حروف الصلات، وبين أثرها في تعقيد الكلام ، وضرب لذلك عدة أمثلة تطبيقية فقال : " وينبغي أن تتجنب إعادة حروف الصلات والرباطات في موضع واحد إذا كتبت ، مثل قول القائل : ومنه له عليه ، أو : عليه فيه ... وسبيله أن تداوبه حتى تزيله بأن تفصل ما بين الحرفين فتقول : أقمت به شهيدا" عليه" (٦) ، وجعل وضع الألفاظ في مواضعها

---

(١) أدب الكاتب ١٢-١٤ والتقعير والتقعيب : الغوص على معاني الكلام الغريب .
(٢) الرسالة العذراء ٣٦ .
(٣) ن . م ٢٩-٣١
(٤) كتاب الصناعتين ٧٥
(٥) ن . م ١٦٤
(٦) ن . م ١٦٥

الصحيحة دليلا" على حسن النظم ، وجودة التأليف فقال : " وحسن الرصف أن تضع الألفاظ في مواضعها ، وتمكن في أماكنها".[1] وردد آراء الجاحظ في أثر جودة اللفظ، وصحة السبك في الارتقاء بالكلام إلى مستوى الأدب والفن فقال : " وليس الشأن في إيراد المعاني ... وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه ... مع صحة السبك والتركيب ... ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط ... ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة "[2] وأرجع د. طبانة ذلك إلى أنه : " كان من مدرسة الجاحظ ، يتشيع للصياغة ، ويتعصب للفظ ، ويجحد المعنى فلا يجعله شيئا" "[3].ولم نجد فيما وقفنا عليه من آراء الجاحظ ومن شايعه فيها من النقاد ما يدل على جحود المعنى وإنما يدل على الاهتمام بجلائه ووضوحه، وإبرازه من أبهى حلة لفظية ، والعناية بحسن تأليف الكلام وصياغته ، ولسنا نعرف للأدب دون ذلك من معنى ، كما مر بنا قبل قليل .

وأدلى التوحيدي بدلوه في هذه المسألة ، فنقل إلينا آراء عدد من شيوخه ومعاصريه فيها ، وحدد موقفه النقدي منها ، وأرسى عددا" من المعايير التي بنى عليها نقده التطبيقي للغة بعض الكتاب وألفاظهم ، فجعل من سهولة اللفظ مقياسا" أساسيا" لجودة الكلام والكتابة فقال : " والذي ينبغي أن يهجر رأسا" ، ويرغب عنه جملة التكلف والإغلاق واستعمال الغريب والعويص وما يستهلك المعنى ويفسده ... فالهجنة التي ليس بعدها هجنة ، والركاكة التي ليس فوقها ركاكة الولوع بالغريب وما يشكل فيه الإعراب ويتجاذبه التأويل "[4] وطبق هذا المقياس في نقد أساليب بعض الكتاب فقال : " قلت لأبي عبيد الكاتب وكان سهل البلاغة حلو اللفظ ، حسن الاقتضاب ... كيف ترى كتابة ابن عباد ؟ فقال : هي شوهاء ، فيها شيء في غاية

---

(١) ن . م ١٦٧

(٢) ن . م ٦١

(٣) أبو هلال ومقاييسه ١٢٦ .

(٤) أخلاق الوزيرين ١٣٤–١٣٥ وانظر البصائر ٦٧٥/٣

التنقيح ، وشيء في غاية الركاكة "(١) ونسب إلى بعض معاصريه قوله في أسلوب الصاحب بن عباد في الترسل والكتابة إنه : " يشين اللفظ ، ويحيل المعنى . فأما شينه اللفظ : فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة ، وأما إحالته المعنى : فبالإبعاد من حرمة القصد والإرادة "(٢) فبدا بذلك منسجما" مع رأيه في غاية الأدب والبلاغة وهي عنده في ثلاثة مستويات وأغراض مترابطة : " فالغرض الأول : في صحة المعنى ، والثاني : في تخير اللفظ ، والثالث : في تسهيل النظم وحلاوة التأليف "(٣).

ومن الملاحظ أن هؤلاء النقاد قد اعتمدوا في استخلاص مقاييسهم النقدية في لغة الكتابة والترسل على أسليب الكتاب في أزمانهم ، أو ما يعرف عادة بلغة العصر وأسلوبه ، وقاموا بتطبيق هذه المقاييس على أساليب من سبقهم من الكتاب ، وحكموا عليها من خلالها ، وفي ذلك إغفال واضح لأثر البيئة والعصر في لغة الكتابة وأساليبها ، وقد تنبه على ذلك علي بن خلف فقال : " وقد استعمل كتاب الدولة الأموية من الألفاظ العربية الفحلة ما لم يستعمل مثله كتاب الدولة العباسية ، وذلك لأن أولئك قصدوا ماشاكل زمانهم ... وهؤلاء استعملوا من التسهيل والألفاظ البينة ماشاكله ، فينبغي على الكاتب أن يراعي هذه الأحوال ، ويوقع المشاكلة بين ما يكتب وبينها "(٤) . وفي ذلك دعوة صريحة إلى تحقيق الواقعية والمعاصرة في الأساليب الأدبية ، والتجاوب مع لغة العصر وأسلوبه في أثناء نقد هذه الأساليب وتقديرها ، وتلك مبادئ نقدية وأدبية مهمة وجليلة طالما وجدنا الأدباء يدعون إليها ، وينبهون عليها في عصرنا .

كما تنبه على مايشبه ذلك بعض الكتاب في أثناء النظر في تطور أساليب الترسل والكتابة من الإيجاز والاختصار إلى الإطناب والتطويل ما بين العصرين الأموي والعباسي . فعلل قصر الرسائل الديوانية خاصة في دولة بني أمية بأعرابية رجالها ، وما جبلوا عليه من صراحة وصرامة وصدق، وعزا التطويل في رسائل

---

(١) أخلاق الوزيرين ١٣٣-١٣٤

(٢) الامتاع والمؤانسة ٦٢/١

(٣) أخلاق الوزيرين ١٣٥

(٤) مواد البيان ١١٢-١١٣

العباسيين إلى فساد هذه الروح ، وتغير أساليب الحكم والادارة والتعامل ، فروى المعافي بن زكريا عن بعض الكتاب قوله : " كنت أكتب بين يدي يحيى بن خالد البرمكي ، فدخل شيخ جميل الهيئة ، فأعظمه وحادثه ثم قال له : ما بالكم كنتم تكتبون الكتب إلى عمالكم في ساير أموركم فلا تطيلون ، ونحن نطيل لايمكننا غير ذلك ؟ فقال : اعفني ، فأبى عليه إلا أن يجيبه ، فقال : وأنت غير ساخط ، قال : نعم، فقال : إن بني أمية كانت لاتكتب في الباطل أنه حق ، ولا في الحق أنه باطل، ولاتعقب أمرا" قد نفذ بخلافه أمر ، فلا يحتاجون إلى الإطالة وطلب المعاذير والتلبيس ، وأنتم تكتبون في الشيء الحق أنه باطل ، والباطل أنه حق ، ثم تعقبون ذلك بخلافه ، فلابد لكم من الإطالة قال : فسألت عن الشيخ ، فقيل لي : هذا رجل من كتاب بني أمية القدماء من أهل الشام ".وقد لاحظ المعافي آثار التعصب في هذا الخبر فقال بعد روايته : " ولكثرة ما كتب بنو أمية في عظيم الآثام ... ولكثرة الإطالة في كتبهم ، فالعجب من يحيى كيف أمسك عن جواب هذا المتكلم "(١) .

ومع ذلك فإن مجمل ما بين أيدينا من كتب العرب ورسائلهم يدل على أن سمة الإيجاز والاختصار كانت غالبة عليها حتى أواخر العصر الأموي ، فلما ظهر عبد الحميد الكاتب (-١٣٢هـ) أطال الرسائل بما كان يستعمل من التحميدات في فصولها ، وما كان يعتمد عليه في كتابته من ترادف وازدواج وتقسيم وحلية لفظية ، ولذلك ما قيل : " وهو الذي سهل البلاغة في الترسل "(٢) . وكنا قد تحدثنا عن تطور أساليب الترسل من الإيجاز إلى التطويل ، ووقفنا في أثناء ذلك على أهم مراحل هذا التطور كما مر بنا في صدر هذا الفصل.

وقد أسهب النقاد في الحديث عن قضية الإيجاز والإطناب ، وهي في نظرنا ذات وجهين : أحدهما بلاغي يهتم بأساليب إيجاز العبارة بالحذف والقصر ، أو

---

(١) الجليس والأنيس : المخطوط ٣/٤/أ-٥/ب
(٢) الفهرست ١٣١ وانظر النثر الفني ٦٨ والفن ومذاهبه في النثر العربي ١١٤ والعصر الأموي ٤٦٧ و٤٧١ و٤٧٨ وبلاغة الكتاب في العصر العباسي ٦٦ .

الإطناب فيها بالتكرار والاعتراض والتذييل وغيرها[١] ، والآخر نقدي يعنى بمواضع الاختصار والإطالة في الكتابة وفقا" للظروف والمناسبات والأحوال ، وهو الجانب الذي يهمنا في هذا البحث .

ومن المعروف أن العرب كانوا يؤثرون الإيجاز والاختصار ويكرهون الفضول والإسهاب في سائر انواع الكلام ، فذكر ابن المقفع أن : " البلاغة ... منها ما يكون شعرا" ، ومنها ما يكون سجعا" وخطبا" ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامة ما يكون من هذه الأبواب فالوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة "[٢] . على أنهم مع ذلك كانوا لاينكرون أهمية الإطناب في بعض المقامات والأحوال ، وفرقوا بينه وبين الخطل والإسهاب فقالوا : " البلاغة : الإيجاز في غير عجز ، والإطناب في غير خطل "[٣] . وعد الجاحظ الإسهاب والتوسع في الكلام دونما حاجة أو داع هذرا" وخطلا" معيبا" فقال : " وللكلام غاية ... وما فضل عن قدرالاحتمال فذلك هو الهذر وهو الخطل وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه"[٤] . وللإطالة والإطناب عنده دواع وموجبات ، كتشعب المعاني ، وحاجتها إلى الإيضاح والتأكيد، ودفع الاشتراك واللبس فقال في بعض كتبه : " وقد بقيت – أبقاك الله – أبواب توجب الإطالة ، وتحوج إلى الإطناب ، وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة ، ووقف عند منتهى البغية ، وإنما الألفاظ على أقدار المعاني ، فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها . والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني المشتركة ، والجهات الملتبسة "[٥] . بيد أنه مع ذلك يفضل الإيجاز على الإطناب في الكتابة والترسل خاصة ، ويرى فيه مذهبا" يميز أساليب الكتاب من غيرهم ، فقال في أصول تعليم طالب البلاغة أساليبها التي

---

(١) وانظر التخليص – نيل صناعة الكتابة ٥٠٧–٥١٢ . وفيه أن إيجاز الحذف كقوله تعالى : " واسأل القرية " أي أهل القرية . والقصر كقوله : " ولكم في القصاص حياة " والتكرار كقوله : " كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون " والاعتراض كقوله " ويجعلون لله البنات – سبحانه – ولهم ما يشتهون". والتنييل كقوله : " قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " .

(٢) البيان والتبين ١/١١٥–١١٦ .

(٣) ن . م ١/٩٧ .

(٤) ن . م ١/٩٩ وانظر ٤٤ و٢٠١ والحيوان ٣/٨٦ .

(٥) الحيوان ٦/٧ .

تعتمد – في نظره – على : سهولة اللفظ ، وإيجاز العبارة : " وخذه بتعريفه حجج الكتاب ، وتخلصهم باللفظ القريب المأخذ إلى المعنى الغامض ، وأذقه حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية "(١).

ويبدو أن ابن قتيبة قد لاحظ إغراق كثير من الكتاب والنقاد في الدعوة إلى الإيجار والاختصار في الكتابة ، وتأثرهم في ذلك ببعض آراء الفرس ، دون أن يجد لهذه الآراء ما يسوغها على الدوام ، لحاجة الكاتب – في نظره – إلى الإطناب والتطويل في كثير من الأحوال ،كمخاطبة العامة في كتب الفتوح ، والاستصلاح ، والدعوة إلى الطاعة ، والتحذير من المعصية فقال : " وقال أبرويز لكاتبه ... اجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول . يريد الإيجاز. وهذا ليس بمحمود في كل موضع ، ولا بمختار في كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ... فليس يجوز لمن يكتب إلى عامة كتابا" في فتح أو استصلاح أن يوجز ، ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة ، والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد حين بلغه عنه تكلؤه في بيعته : أما بعد ، فإني أراك تقدم رجلا" وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيها شئت ، والسلام . لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ، ويعيد ويبدي ، ويحذر وينذر "(٢).

ولاشك أن الصولي قد وقف على هذه الآراء ، واعتمد عليها في الباب الذي خصصه " لمدح الإيجاز في ابتداء المكاتبة والجواب " (٣) في " أدب الكتاب " ، وبدا ميله فيه واضحا" إلى تفضيل الإيجاز والاختصار فقال : " وكان جعفر بن يحيى يقول لكتابه :إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا، وقال بعضهم : الإيجاز في الابتداء أمكن منه في الجواب ، مالم يكن منه في إعذار وإنذار وفتوح . والذي عندي أنه يحتاج الكاتب والخطيب والشاعر الى أن يخرجوا معانيهم في أقواتها من الألفاظ

---

(١) فصل من كتاب المعلمين – مجلة المورد – مج٧ ع٤ – س ١٩٧٨ – ص١٥٤ .

(٢) أدب الكاتب ١٤-١٥

(٣) أدب الكتاب ٢٢٨

على الإختصار مالم يحتج الى الإكثار ، فإن احتاج إلى ذلك جئ بما لابد منه " (١).

وقد لاحظ النحاس اختلاف المواقف النقدية من هذه القضية بين النظرية والتطبيق ، فوجد ان الكتاب يميلون – من الناحية النظرية – إلى تفضيل الإيجاز في الألفاظ ، فإذا مارسوا الكتابة عمدوا إلى تحقيق المساواة بينها وبين المعاني ، فإن احتاجوا إلى الإطالة في بعض المواضع أسهبوا ، فدعا إلى التوسط والاعتدال مابين الإطالة والإيجاز ، وتحقيق التناسب بين المقام والمقال فقال : " يستحسن الكتاب أن تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة ، فإذا كتبوا حسن عندهم أن تكون الألفاظ غير ناقصة عن المعاني ولا زائدة عليها ، إلا أن تكون في موضع يحتاج فيه إلى الإسهاب . ويستحسن في مثل هذا ما قاله جعفر بن يحيى : إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرا" ، وإذا كان الإيجاز كافيا" كان الإكثار عيا" (٢) . وقد وجد البلاغيون والنقاد في هذا القول وأشباهه مخرجا" من مأزق المفاضلة بين الإيجاز والإطناب ، ففرقوا على أساسه بينهما وبين التقصير والتطويل فقال الرماني : " الإيجاز بلاغة ، والتطويل عي ... ولكل من الإيجاز والإطناب موضع يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد " (٣) .

وعلى أساس هذا المقياس الواسع الذي يرتبط بالحاجة أو المقام بنى معظم النقاد مواقفهم من هذه المسألة ، وحددوا مقاييسهم فيها ، على الرغم من اختلاف مفاهيمهم لطبيعة العلاقة بين المقام والمقال ، فغاية الإيجاز عند ابن وهب إنما تتجلى في رغبة الكاتب في تيسير حفظ كتبه ، وتسهيل نقلها ، أما الإطناب فيكون لغاية تعليمية تدعو إلى الشرح والتفصيل والإطالة وفي ذلك يقول : " وممن استعمل في قوله وكتبه الإيجاز والاختصار ليهون بذلك حفظ كتبه ... ويقرب نقلها : أرسطاليس ... وممن استعمل الشرح والإطالة ليفهم المتعلم ، ويفصل المعاني للمتفهم : جالينوس " (٤) . وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي يقول : " يختصر الكتاب ليحفظ ،

---

(١) ن.م ٢٢٨
(٢) صناعة الكتاب ١١٢
(٣) النكت في إعجاز القرآن – ثلاث رسائل ٧٠/١ وانظر إعجاز القرآن ٢٦٣
(٤) البرهان في وجوه البيان ١٥٢/١٦٢

ويبسط ليفهم "(1) .

وخص أبو هلال العسكري الإيجاز والإطناب بباب واسع في الصناعتين أتى فيه على إجمال ما انتهت إليه آراء النقاد والبلاغيين فيهما ، وعقد في صدره موازنة طريفة بينهما ، عرض فيها حجج أنصار كل منهما ومفضليه ، وحدد موقفه النقدي في ذلك ، فذكر أن أصحاب الإيجاز يرون أنه : " مصور للبلاغة على الحقيقة ، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضلٌ داخل في باب الهذر والخطل ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة "(2) . وأما أصحاب الإطناب فيرون أن : المنطق إنما هو بيان ، والبيان لايكون إلا بالإشباع ، والشفاء لايقع إلا بالإقناع ، وأفضل الكلام أبينه ، وأبينه أشده إحاطة بالمعاني ، ولايحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء ، والإيجاز للخواص ، والإطناب يشترك فيه الخاصة والعامة ، والعيي والفطن ، ولمعنى ما أطيلت الكتب السلطانية في إفهام العامة "(3) .

ثم أتى على تحديد موقفه ، فاختار أن يقف موقفا" وسطا" بين هذين الموقفين، فجعل لكل من الإيجاز والإطناب موضعا" يصلح فيه ، معتمدا" في ذلك على ما قرره أسلافه من النقاد فقال : " والقول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام ، وكل نوع منه ، ولكل واحد منهما موضع ، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه ، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته ، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ "(4) ، ثم فصل القول في بيان هذه المواضع ، وبني ذلك على جملة من المقاييس النقدية التي تتصل بأنواع الكتب ، وأصناف المكاتبين ، والغاية الفنية أو البلاغية ، فذكر أن ما يكتب في الشكر والاستعطاف والاعتذار " فسبيله أن يتجنب فيه الإطناب والإسهاب إلى إيراد النكت التي يتوهم أنها مقنعة "(5) . وذلك على خلاف "الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة ، والفتوح الجليلة ، وفي تفخيم النعم الحادثة ، والترغيب في الطاعة ، والنهي عن المعصية ، فسبيلها أن

---

(1) كتاب الصناعتين ١٩٨ .
(2) ن . م ١٧٩ .
(3) ن . م ١٩٥
(4) ن . م ١٩٦ .
(5) ن . م ١٦٤ .

تكون مشبعة مستقصاة "(١) .

ومن الواضح أن الأساس الذي اعتمد عليه أبو هلال في تقرير هذه القواعد إنما يرتبط بطبيعة العلاقة بين الكاتب والمكتوب إليه ، فالكاتب في الأحوال الأولى أدنى مرتبة أو أضعف موقفا" من المكتوب إليه ، وفي ذلك ما يدعو إلى إيجاز القول واختصاره دفعا" للملل أو التثقيل ، وفي الثانية هو السلطان يكتب للناس عامة ، فلا بد له من الاطناب والتفصيل ، وقد تكون الغاية الفنية أو البلاغية سببا" في هذا الإطناب في كثير من الأحيان كما أكد ذلك أبو هلال في قوله : " ولابد للكاتب في أكثر أنواع مكاتباته من شعبة من الإطناب يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين ولايعاب ذلك منه ، مثل أن يكتب : عظمت نعمتنا عليه ، وتظاهر إحساننا لديه" (٢).

ولعل أظهر صور هذه الغاية الفنية إنما يتجلى في السجع الذي يعد من أقدم الحلى اللفظية التي استعملها العرب في سائر أنواع القول التي عرفوها ، وجروا في أكثره على السليقة والطبع دونما تكلف أو قصد ، وأخذ يغلب على أساليب بعض الكتاب في القرن الثالث الهجري ، وأوغل فيه كثير منهم في القرن الرابع ، وأصبح غاية مقصودة عندهم ، وعلى رأسهم : ابن العميد والصاحب بن عباد والخوارزمي والهمذاني وقابوس بن وشكمير وغيرهم كثير من أصحاب السجع والتصنع والبديع(٣).

وقد اختلف النقاد في السجع ، وكانت آراؤهم فيه تسير في اتجاهين رئيسين : أحدهما ديني يبحث في تحليل السجع أوتحريمه ، والآخر فني يتناول طرقه وأنواعه وأثره في أساليب الكتاب ورسائلهم. وكان الجاحظ من اوائل النقاد

---

(١) ن . م ١٩٦ .

(٢) ن . م ٢٠٠ .

(٣) انظر في ذلك: النثر الفني ١/٧٥-١٥٢ والفن ومذااهبه في النثر ١٩٤-٢٦٤ وبلاغة الكتاب في العصر العباسي ١٣٣-١٨٣ .

الذين تناولوا هذه المسألة بشقيها ، فنفى تحريمه أو كراهته اعتمادا" على قول النبي (ص) لبعض من تكلم بين يديه بكلام يشبه أسجاع الكهان : "أسجع كسجع الجاهلية"(١) . واحتج لذلك بحجج كثيرة أهمها : أن السجع والمزدوج أدنى مرتبة في الصنعة والتكلف من الشعر الذي صح أن النبي (ص) قد استمع إليه واستحسنه وأمر به شعراءه ، كما استحسنه صحابته وقرضه كثير منهم ، ولو كان التحريم واقعا" على ضرب من القول لوقع على الشعر أولا" . أما كراهية السجع فترتبط – في نظره – بأسجاع الكهان وأشباهها من الأسجاع كالمنافرات والمفاخرات ، فوقع النهي عن هذه الأسجاع لما تدل عليه أو تذكر به من روح جاهلية ، وفي ذلك يقول :" وجدنا الشعر في القصيد والرجز وقد سمعه النبي (ص) واستحسنه وأمر به شعراءه ، وعامة أصحابه قد قالوا شعرا" واستمعوا واستنشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل ... وكان الذي كره الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئيا" من الجن ... فوقع النهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم . وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فيكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة فلا ينهونهم" (٢) . وروى من أقوال العرب المسجعة وخطبها أطرافا" كثيرة ، وخصص لهذه الأسجاع بابا" مفردا" في البيان (٣).

وانتقل من ذلك إلى تأكيد قيمة السجع وأهميته في حفظ االكلام وتخليده ، وأثره في نفوس السامعين وآذانهم ، فروى عن عبد الصمد الرقاشي السجاع أنه : "سئل : لم تؤثر السجع على المنثور ؟ ... فقال : إن كلامي لو كنت لاآمل فيه إلاسماع الشاهد لقل خلافي عليك ، ولكنني أريد الغائب والحاضر ... فالحفظ إليه

(١) البيان والتبين ٢٨٧/١ وصحيح مسلم ١١١/٥ .

(٢) ن . م ٢٨٧/١-٢٩٠

(٣) ن . م ٢٩٧/١ وانظر ٤٠٨ ومواضخ أخرى .

أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت "(١) وحدد للجيد من السجع مقياسين مترابطين هما : قصر الكلام المسجع ، وعدم التكلف في اجتلابه فقال : " وإذا لم يطل القول ، ولم تكن القوافي مطلوبة مجتلبة أو ملتمسة متكلفة ، وكان ذلك كقول الأعرابي لعامل الماء : حلئت ركابي ، وخرقت ثيابي ، وضربت صحابي ... لأن الكلام إذا قل وقع وقوعا" لايجوز تغييره ، وإذا طال وجدت في القوافي ما يكون مجتلبا" ومطلوبا" مستكرها" " (٢) . على أنه مع ذلك يبدو كارها" أن ينسب إلى السجع في صناعة الكلام ، أو يظهر في كتبه ورسائله ، لما فيه من دلالة على التكلف فيقول : " إني أستحي ... من السجع أن يظهر مني ، ومن الصنعة أن تعرف في كتبي ... وقديما" كره ذلك أهل المروؤة والأنفة ، وأهل الاختيار للصواب، والصد عن الخطأ ، حتى إن معاوية أملى كتابا" إلى رجل فقال فيه: لهو أهون علي من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة . ثم قال : أمح واكتب : من الكلاب . كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع " (٣) .

وتقفى إسحق بن وهب أثر الجاحظ في السجع ، فنظر في تحليله أو تحريمه، وعزا استنكار النبي (ص) له إلى ما كان منه على طريقة الكهان في أسجاعهم المتكلفة ، وبني على ذلك موقفه النقدي من استعماله على السجية والطبع في موضعه ، فيكون إذ ذاك من البلاغة ، أما استعماله في سائر الكلام فجهل وعي وتكلف لديه إذ يقول: "ومن أوصاف البلاغة السجع في موضعه ، وعند سماحة القول به ، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه ... فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه فذلك جهل من فاعله . وقد رؤيت الكراهية في وجه رسول الله لذلك ، فروي أن رجلا" سأله فقال :أرأيت من لاشرب ولا أكل ولاصاح ولااستهل أليس مثل ذلك يطل ؟ فقال :"أسجع كسجع الجاهلية ". وإنما أنكر الرسول ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا" كله ، وتكلف فيه السجع تكلف الكهان ، فأما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه ، ولم تكن القوافي مجتلبة متكلفة ... وكان ذلك

(١) ن . م ٢٨٧/١ والرقاشي عبد الصمد قاص سجاع من معاصري الجاحظ . البيان والتبيين ١٩٩/١ و ٢٨٧ و ٢٩١ و ٣٠٨

(٢) ن . م ٢٨٨/١ حلئت ركابي : أي منعت إبلي من الماء .

(٣) فصل من رسالته في مدح التجار مجلة المورد مج ٧-ع٤ - ص١٧٦ .

عن سجية وطبع ، فهو غير منكر ولا مكروه "(١) . وروى عدة صور من مطبوع السجع ومتكلفه .

وخص أبو هلال العسكري السجع والازدواج بباب مفرد من أبواب الصناعتين ، ولم يخف فيه إعجابه الشديد بهما جريا" على سنة أهل عصره وبيئته في ذلك ، ففصل القول في أنواع السجع وألوان الازدواج ، ووقف على محاسنها وعيوبها ، واستحسن أن يكون الكلام مزدوجا" ومسجعا" معا" ، وأوجب أن يكون مزدوجا" متوازنا" على الأقل ، واشترط عدم التكلف في ذلك ، وجعل ذلك معيارا" لجودة السجع وحلاوة الازدواج ، على الرغم من سعة مفهوم التكلف عنده ، ووقف في أثناء ذلك على مسألة تحريم السجع وتحليله ، فأورد فيهما بعض الحجج الجديدة وقال : " لايحسن منثور الكلام ولايحلو حتى يكون مزدوجا"، ولاتكاد تجد لبليغ كلاما" يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ... وجميع ما في القرآن مما يجري على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى ، وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء لما يجري في كلام الخلق ، ألا ترى قوله عز وجل : " والعاديات ضبحا" . فالموريات قدحا" . فالمغيرات صبحا" . فأثرن به نقعا". فوسطن به جمعا" "(٢) قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هذا المجرى كقول الكاهن: والسماء والأرض ، والقرض والفرض ، والغمر والبرض . ومثل هذا من السجع مذموم لما فيه من التكلف والتعسف ، ولهذا ما قال النبي (ص) : " أسجعا" كسجع الكهان " لأن التكلف في سجعهم فاش ، ولوكرهه لكونه سجعا" لقال : أسجعا" !! ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه ، وإذا سلم من التكلف لم يكن في صنوف الكلام أحسن منه ... والسجع على وجوه : فمنها أن يكون الجزءان متوازيين متعادلين مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه كقول الأعرابي : سنة جردت ، وحال جهدت، وأيد حمدت ... ومنها أن تكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة فيكون سجعا" في سجع كقول الكاتب : حتى عاد تعريضك تصريحا" ، وتمريضك تصحيحا" ... وهذا الجنس اذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع ..... والذي لابد منه هو

---

(١) البرهان ١٦٥/٢٠٨

(٢) سورة العاديات ١/١٠٠-٥

الازدواج ، فإن أمكن أن تكون كل فاصلتين على حرف واحد أو ثلاث أو أربع لايتجاوز ذلك كان أحسن ، وإن جاوز ذلك نسب إلى التكلف ، وإن أمكن أن تكون الأجزاء متوازنة كان أجمل "(١) . وفي ذلك ما يعبر عما آلت إليه حال الكتابة في أواخر القرن الرابع من كلف بالسجع والزخرف والبديع ، ومواكبة النقد لهذا التيار وإسهامه في تفتيق شعبه وفروعه وإغنائه ، والبلوغ به إلى أبعد غاياته ، على الصورة التي رأيناها في رسائل قابوس بن وشكمير ونقد اليزدادي لها في " كمال البلاغة " الذي كشف فيه عن أنواع كثيرة من الأسجاع التي ابتكرها قابوس ، وأبدى اليزدادي إعجابه الشديد بها ، وبالغ في ذلك إلى حد الإعجاز كما مر بنا من قبل .

وقد ارتفعت بعض الأصوات التي حاول أصحابها الحد من تنامي هذه الظاهرة الأسلوبية وطغيانها ، والعودة بأساليب الكتابة والترسل إلى الأسلوب العربي الأصيل المتمثل في مذهب الطبع والاسترسال الذي دعا إليه التوحيدي ، وحدد عناصره في قوله : " إن نظام البلاغة وعقدتها أن يكون طالبها مطبوعا" بها ، مفطورا" عليها ، قد أعين بشهوة النفس ، وادب الدرس ... والآفة فيها من الدخلاء إليها ، والذين يستعملون الألفاظ ولا يعرفون موقعها ، ويعجبهم الاتساع ويجهلون مقداره ، أو يروقهم المجاز ويتعدون حدوده ... والسر أن تكون ملاطفا" لطبعك ، مع مجانبة المجتلب ، وكراهة المستكره ... وأن يكون السجع في الكلام كالملح في الطعام ، فإنه متى ظفر منه بمقدار الرتبة ، وحسب الكفاية حلا منظره ... ومتى زاد على المقدار ضارع كلام النساء أو كلام المستعمربين من العجم ... فلا تلهجن بالسجع فانه بعيد المرام ... والذي يجب أن تعهد في ذلك هو مقدار يجري مجرى الطراز في الثوب ، وقد يسلمن السجع في مكان دون مكان ، والاسترسال أدل على الطبع ، والطبع أعفا ، والتكلف مكروه ، والمتكلف معنى ، والناس بين عاشق للمعاني وتابع لها فالألفاظ تواتيه عفوا" ، وكلف بالألفاظ والمعاني تعصيه أبدا" ، فأما من جمع بين هذه وهذه ... فإنه الحاوي قصب الرهان "(١) . وهو في ذلك يتقفى أثر الجاحظ في مذهبه النقدي ، وقد حذا حذوه في مذهبه الفني في الكتابة أيضا" ،

---

(١) كتاب الصناعتين ٢٦٦-٢٧٠ . وتجدر الاشارة هنا إلى قول د . طبانة " إن الازدواج مقياس جديد اخترعه العسكري " دون ان يكون لذلك مايسوغه لكثرة تردد هذا المصطلح على السنة النقاد والبلاغين قبل العسكري كالجاحظ وقدامة وابن وهب وغيرهم . وأنظر أبو هلال ومقاييسه ١٣٢ .

(٢) البصائر والذخائر ٣٦٤/١ .

على الرغم من تطاول العهد بينهما ، وهو المذهب الذي يعتمد على السلاسة والوضوح ، وينأى عن التكلف والتصنع والتعقيد الذي طغى على أساليب الكتابة العربية في عصره ، وتجلت صورته في مذهب السجع الذي نسبه أبو حيان إلى الكهنة من العرب ، والمستعمرين من العجم ، فكان بذلك أول من أشار إلى أصول هذا المذهب وفروعه ، وتنبه على دور الأعاجم وأثرهم فيه . وقد أكثر من توجيه النقد اللاذع لأنصار هذا المذهب كقوله عن الصاحب بن عباد : " وكان كلفه بالسجع في الكلام والقلم عند الجد والهزل ... ولو رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ... لكان يخف عليه أن لايخرج عنها ويخليها ... والسجع لهذا الرجل بمنزلة العصا للأعمى ، والأعمى إذا فقد عصاه فقد أقعد "(١) دون أن يكون لذلك كله أثر في الحد من قوة هذا التيار الجارف الذي أودى بالكتابة العربية إلى الهوة التي تردت فيها بعد ذلك في عصور الانحدار كما هو معروف .

---

(١) أخلاق الوزيرين ١٢٤ وأنظر ١٣٤ ، ١٣٩ ، ٣٩٣ ..

الفصل الثالث

نقد الكتاب والمترسلين

- صفات الكاتب وثقافته
- النقد الشخصي والموازنة بين الكتاب



الفصل الثالث

نقد المترسلين والكتاب

صفات الكاتب وثقافته :

لم تكن صفات الكاتب وثقافته محل اهتمام أحد من الأدباء والنقاد قبل أن يظهر الكتاب طبقة خاصة وواسعة لها شأنها وخطرها وتأثيرها ، وتبرز الكتابة فنا" أدبيا" متميزا" له رجاله وأعلامه ، وكتبه المدونة وآثاره ، في أواخر العصر الأموي، وبدأت تظهر في هذه المدة بعض الآثار المدونة التي تدل على الاهتمام بهذا الفن وأربابه ، وتعنى بصفات الكتاب وثقافتهم وأدواتهم ، وإن كان الاهتمام بهذه الجوانب من الناحية العملية قائما" قبل ذلك كما مر بنا من قبل ، إذ كان لفظ الكاتب عند العرب يدل على معنى العالم ، وكان كتاب العرب في الجاهلية من السادة والشعراء والمثقفين عادة ، وكان النبي (ص) يختار كتابه من كرام صحابته ، كما كان خلفاؤه يختارون كتابهم من الفقهاء وأهل العلم والورع والدين ، وكذلك كان بنو أمية يفعلون في اختيار كتابهم من أهل العفة والأمانة والأدب ، فروي أن الحجاج ، كتب إلى عبد الملك بن مروان في شأن بعض الكتاب يقول : " فإن أردت رجلا" مأمونا" فاضلا" عاقلا" وديعا" مسلما" كتوما" تتخذه لنفسك ، وتضع عنده سرك ... فاتخذ محمد بن يزيد"(١) ، وأوصى عبد الملك أخاه عبد العزيز حين وجهه إلى مصر عاملا" عليها بحسن اختيار كاتبه وتفقده فقال : " تفقد كاتبك ... فإن الغائب يخبره عنك كاتبك"(٢)، وكانوا يقولون : أول صناعة الكتابة كتمان السر"(٣) .

وفي ذلك كله ما يدل على مكانة الكاتب ، وما ينبغي ان يتحلى به من الشمائل والصفات التي تؤهله للقيام بأعباء هذه المهنة ، لما لها من صلة بأسرار الدولة ، وملابسة لرجالها ، وعلاقة برعيتها ، فكان لابد أن تتوفر في الكاتب جملة من الشروط التي تصلح لها كالعفة والأمانة وكتمان السر وحسن الخلق والأمانة والثقافة والبلاغة ، وغيرها من الخصائص والخصال التي كان الكتاب يروضون أنفسهم عليها ، ويتحلون بها ، ويتوارثونها عن أسلافهم ، ويورثونها أبناءهم

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٢/٢٤٠ .
(٢) البصائر والذخائر ٣/٥٦٨ .
(٣) عيون الأخبار ١/٤٤ .

وتلامذتهم ، دون أن تكون مدونة في صحيفة أو كتاب ، قبل أن يظهر عبد الحميد ابن يحيى (-١٣٢ هـ) ويكتب صحيفته الشهيرة إلى الكتاب ، ويضمنها جملة من النصائح والإرشادات التي استمدها من تلك التقاليد الموروثة ، وأضاف إليها عصارة خبرته الطويلة بصنعة الكتابة ، ومعرفته العميقة برجالها وربما يكون قد أفاد فيها من بعض ما كان يؤثر عن الفرس من وصايا لكتابهم ، لصلته بالثقافة الفارسية ، كما يرى بعض الدارسين ، دون أن يكون بين أيدينا دليل قاطع عليه (١).

وقد تناول عبد الحميد في هذه الرسالة عددا" من القضايا التي تتصل بصفات الكاتب وأخلاقه وعلاقته برؤسائه وأصحابه من الكتاب ، ومن يتعامل معه من الناس، وحدد عناصر ثقافته ، واستهلها ببيان فضل صنعة الكتابة وشرفها ومكانة أصحابها ، لينفذ من ذلك إلى ما يجب أن يتحلى به أصحابها من الشمائل ، ويتصفون به من الصفات التي تشاكلها وتناسبها فقال : " وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة منكم أيها الكتاب ، إذ كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ، أن يكون حليما" في موضع الحلم ، فهيما" في موضع الحكم ، مقداما" في موضع الإقدام ، مؤثرا" للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوما" للأسرار ، وفيا" عند الشدائد ، عالما" بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور في مواضعها ، والطوارق في أماكنها "(٢) .

وأوصى الكتاب بالاقتصاد والاعتدال ومجانبة السرف والتبذير في سائر أمور معاشهم وحياتهم لما في ذلك من دلالة على العفة ، وعون على الأمانة ، وصون للكرامة فقال : " ولايجاوزن الرجل منكم في هيئته ومجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه وبنائه وخدمه وغيرذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم – مع مافضلكم الله به من شرف صنعتكم – خدمة لاتحملون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة

(١) انظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ١١٦ . والعصر الإسلامي ٤٧٤ . وأمراء البيان ٨٢ .
(٢) رسائل البلغاء ص ٢٢٢ .

لاتحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ماذكرته لكم ، واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب ، ويفضحان أهلهما ، ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب " (١) .

ونظر في علاقة الكاتب برؤسائه فأوصاه بالإخلاص له ، والنصح في تدبير أمره وشكره فقال : " وقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ، فواجب عليه أن يعتقد له شكره ونصيحته وتدبير أمره "(٢)، كما نظر في علاقته بمن يتصل به أو يتعامل معه من الناس فنصحه بالحكمة والرفق والمداراة في معاملتهم وتدبير أمورهم فقال : " والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ... أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة " (٣) .

وأسهب في الحديث عن علاقة الكتاب ببعضهم ، فأشار إلى ما يمكن أن يقع بينهم – بسبب ظروف المهنة – من تنافس وتحاسد وتباغض ، وبين أسبابها ، وحذر الكتاب منهافقال : " ولايقول أحد منكم إنه أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ، ومصاحبه في خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأحمد في طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولاتزكية لنفسه ، ولاتكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره "(٤)

وحث الكتاب على التعاون والتآزر والتراحم ، وضمن حديثه عن ذلك دعوتهم إلى تأليف رابطة للكتاب أو اتحاد غايته تقوية أواصر المودة والتعاون بينهم، ومساعدة من نبا به الزمان منهم ، ومواساة من أصابه ضر أو مكروه ، والوفاء بحقوق من أقعده السن من الكتاب ، والإفادة من خبراتهم وثقافتهم وتقديرهم، فقال : " وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع اليه أمره

---

(١) ن . م ٢٢٣ – ٢٢٤
(٢) ن . م ٢٢٣
(٣) ن . م ٢٢٣
(٤) ن . م ٢٢٤

وإن أقعد أحد منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته ، وقديم معرفته "(١) .

وانتقل إلى ثقافة الكاتب فحدد عناصرها ومقوماتها وأهمها في نظره : التفقه في الدين وأصول اللغة ، وجودة الخط ، ورواية الشعر والسير والتواريخ ، والأخذ من كل علم بطرف يفي بحاجة الكاتب ، ونبه كتاب الخراج خاصة على أهمية معرفة الحساب فقال : " إن الكاتب يحتاج ان يكون ... قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ... فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ... والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم أحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولاتضيعوا الحساب فإنه قوام كتاب الخراج " (٢) .

وقد أصبحت هذه الرسالة دستورا" للكتاب بعده ، وفتح بها الباب واسعا" أمام المؤلفين والنقاد ، فتوجهت جهود كثير منهم لخدمة طبقة الكتاب ، فألفوا الكتب الكثيرة والرسائل في آدابهم وأدواتهم وأصول صناعتهم ، فضلا" عما كانوا يؤلفونه من كتب المعارف العامة والأدب والنقد والأخبار والاختيار التي نقف فيها على بعض الفصول أو الأبواب التي تعني بصفات الكتاب وثقافتهم ، وتعتمد آراء عبد الحميد أساسا" لها ، وقد نجد في بعضها آراء جديدة تدل على تطور صنعة الكتابة وآدابها ، ومن ذلك ما روي ... عن بعض الكتاب وقد سأله الحسن بن سهل(-٢٣٦هـ) : " ما منزلة الكاتب في قوله وفعله ؟ فقال : أن يكون مطبوعا" ، محنكا بالتجربة ، عالما" بحلال الكتاب والسنة وحرامها ، وبالدهور في تداولها وتصرفها ، وبالملوك في سيرها وأيامها،مع براعة اللفظ وحسن التنسيق ...فإذا كان ذلك فهو كاتب مجيد "(٣) وتلك أهم مقومات ثقافة الكاتب وصناعته .

وكان بعض الرؤساء والوزراء يشترط أن يجمع الكاتب إلى تلك المقومات: العفة والأمانة والحكمه وغيرها من الخصال التي ذكرها الحسن بن سهل في رسالته

---

(١) ن . م ٢٢٥ .
(٢) ن . م ٢٢٣ - ٢٢٥
(٣) كتاب الصناعتين ٤٦٠ والحسن بن سهل وزير المأمون وكان كاتبا أديبا شاعرا.الوفيات ٢/١٢٠-١٢١

إلى محمد بن سماعة القاضي (-٢٣٣ هـ) يستعين به على اختيار كاتب فيقول : " إني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة ونزاهة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بضنين في رأيه ، ولا بمطعون في نسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهما" من الأمور أجزأ فيه ، له سن من أدب ولسان ، تقعده الرزانة ، ويسكته الحلم ، قد فرعن ذكاء وفطنه ، وعض على قارحة من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام في أمورهم فحمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ... يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة"(١).

وعلى الرغم من إعجاب الجاحظ برشاقة عقول الكتاب (٢) ، وإشادته بحسن بيانهم وبلاغتهم (٣) ، وتأليفه رسالة لم تصل إلينا من مدحهم (٤) ، إلا أنه-مع ذلك- قد ألف رسالة أخرى في ذم أخلاقهم (٥) ، والانتقاص من فضل صناعتهم وشرفها، والزراية بأقدارهم ، واتهامهم بقلة الأمانة ، ورقة الدين ، ورميهم بالجهل والصلف واللؤم التحاسد والغرور ، وفي ذلك يقول : " إن سنخ الكتابة بني على أنه لايتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم ... وهو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلف ، والسنام الأعلى من البذخ ... والناشيء فيهم إذا وطيء مقعد الرئاسة ... وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر أمثاله ، ولأرد شير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كنز حكمته ، ظن أنه الفاروق الأكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالتأويل ، والأصمعي في معرفة اللغات ... فيكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار ... وقال ثمامة بن أشرس : ما رأيت قوما" نفرت طباعهم عن قبول العلوم، وصغرت هممهم عن احتمال التمييز ، فصار العلم سبب جهلهم ، والبيان علم

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٤٢٨-٤٢٩ ومحمد بن سماعة التميمي : فقيه ولي القضاء ببغداد وصنف كتبا في الفقه والقضاء (-٢٣٣ هـ) . الفهرست ٢٥٨ .
(٢) رسالة في المودة - مجلة المورد - مح٧-ع٤-ص١٩١ وانظر رسالة المعلمين في العدد نفسه ١٥٣
(٣) البيان والتبيين ١/١٣٧ و ٤/٢٤
(٤-٥) الفهرست ٢١١ ورسائله (ط . هرون) ٢/١٨٧-٢٠٩(٨)

ضلالتهم ، أكثر من الكتاب ... وإن للكتاب طبائع لئيمة ، ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات والمكاسب بنظرائهم بررة ، ومن ورائهم لهم حفظة ، وأنتم لأشكالكم مذلون ، ولأهل صناعتكم قالون " (١) .

ومع ما يمكن أن يكون في هذه الرسالة من تحامل على الكتاب ، قد ترتبط أسبابه بعلاقة الجاحظ بكثير منهم ، وعمله معهم كاتبا " يخلف إبراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل زمانا" " (٢) . كما ذكر ابن النديم ، وقال غيره إنه : " صدر في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ثم استعفى فأعفي " وكان سهل بن هرون يقول : إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب " (٣) وفي هذا القول ما يمكن أن يدل على بعض أسباب استعفائه ، أو تآمر بعض الكتاب عليه حسدا" ومنافسة ، فكان لذلك كله أثر ظاهر في هذه الرسالة ، إلا أنها – مع ذلك – تكشف لنا عن بعض الجوانب الخفية في أخلاق الكتاب وعلاقاتهم وثقافاتهم ، ولعل أهم ما فيها إنما يتجلى في مقومات ثقافة الكتاب وعناصرها في عصر الجاحظ ، وهي – على ما يبدو – ذات شقين رئيسيين : أولهما عربي يعتمد على حفظ الفصيح من الكلام ، ورواية المختار من الرسائل ، والنظر في كتب الأدب والأخلاق والسياسة، والأخذ بأطراف من العلم والنوادر والملح . والآخر فارسي يهتم بما أثر عن الفرس من قصص وحكم وأمثال وفلسفة ووصايا وعهود تتصل بأمور الحكم وتدبير الممالك، وتتعلق بأصول صنعة الكتابة وآدابها . وهي – في نظر الجاحظ وبعض معاصريه – ثقافة ضحلة تفتقر إلى العمق والشمول ، وتدعو إلى التكبر والغرور .

وقد أيد ابن قتيبة آراء الجاحظ ، فأكد ضعف ثقافة المتأدبين والكتاب في عصره ، واهتمامهم فيها بالقشور ، وانصرافهم عن اللباب والأصول ، فنعى عليهم إهمال النظر في اللغة والنحو وعلوم الدين ، والشغف بالمنطق والفلسفة والنجوم ، فكان ذلك سببا" في تأليفه " أدب الكاتب " ، واهتمامه فيه بأمور اللغة والنحو وأدوات الكتابة ، ليسد النقص الخطير الذي لاحظه في ثقافة الكتاب وقال في مقدمته :"إني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ... ناكبين ... فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ... وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا

(١) رسائل الجاحظ (ط . هارون) ٢/١٩٠-٢٠١ والفتيق : الفصيح
(٢) الفهرست ٢٠٨
(٣) معجم الأدباء ٧٦/١٦

من تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله (ص) بالتكذيب وهو لايدري من نقله ... وطال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول وصحابته ، وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقل فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ... فلما رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ، ويعفو أثره ، جعلت له حظا" من عنايتي ، وجزءا" من تأليفي ، فعملت لمغفل التأديب كتبا" خفافا" في المعرفة ، وفي تقويم اللسان واليد"(١)

وكان جل اهتمامه في هذا الكتاب باللغة ، وهي غير كافية – في نظره – للوفاء بحاجة الكاتب الثقافية ، فاشترط أن يكون قد شدا شيئا من النحو ، وألم بالهندسة والحساب ، ونظر في الفقه وعلوم الدين ، وروى الحديث والأخبار ، وكان قبل ذلك كله مطبوعا" على الأدب والكتابة ، وفي ذلك يقول : " وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم ، ومن الكتابة إلا بالاسم ، ولم يتقدم من الأداة إلا بالقلم والدواة ، ولكنها لمن شدا شيئا" من الإعراب ... ولابد له – مع كتبنا هذه – من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين ... ولابد له من النظر في جمل من الفقه ، ومعرفة أصوله ... ودراسة أخبار الناس ، وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا إذا كتب، ويصل بها كلامه إذا حاور . ومدار الأمر على القطب ، وهو العقل وجودة القريحة ، فإن القليل معها بإذن الله كاف ، والكثير مع غيرها مقصر " (٢) .

ثم تحدث بعد ذلك عما ينبغي أن يتحلى به الكاتب من شمائل وصفات ، ومن أهمها عنده الصدق والتهذيب والمروءة والرزانة فقال : " ونحن نستحب لمن قبل عنا ، وائتم بكتبنا ، أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة ، وصناعته عن شين الكذب ، ويجانب – قبل مجانبته اللحن وخطل القول – شنيع الكلام ، ورفث المزاح " (٣) .

---

(١) أدب الكاتب ١–٨

(٢) ن . م ٩–١١

(٣) ن . م ١١

وقد وجد بعض الدارسين في هذه الآراء دليلا" على سعة ثقافة الكتاب في العصر العباسي ، وشدة عنايتهم بالثقافة الفلسفية ، وانفتاحهم على الثقافة الأجنبية من هندية وفارسية ويونانية وغيرها ، فكان ذلك سببا" في إهمال النظر في اللغة ، فنعى ابن قتيبة ذلك عليهم ، فذهب د . شوقي ضيف إلى القول : " إن كتاب الدواوين في العصر العباسي كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة فلسفية واسعة ، كما كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافة الفارسية والهندية ، ومن أجل ذلك نعى عليهم ابن قتيبة أنهم يهملون النظر في اللغة ، بينما يشغفون بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة " (١) . وإن كنا نرى لذلك وجها" آخر يتجلى في الصراع ضد الزندقة والشعوبية في القرن الثالث الهجري ، فاتفق الجاحظ وابن قتيبة – على ما بينهما من اختلاف (٢) – في النعي على الكتاب – وكان معظمهم من الفرس – الاهتمام بالثقافة الفلسفية والأجنبية وإهمال الثقافة العربية الأصيلة ، وقلة العناية بتحصيلها ، والطعن في أهم مقوماتها وأركانها ، ومناصبتها العداء ، كما أكد ذلك الجاحظ وابن قتيبة اللذان حملا لواء التصدي لهذا التيار في الساحة الفكرية والثقافية ، وصرفا معظم جهودهما في التأليف للوقوف في وجهه ، وتأكيد معنى الأصالة في الفكر والثقافة ، فتولى الجاحظ الرد على الشعوبية في البيان والحيوان وغيرهما من كتبه ورسائله (٣) ، وتصدى ابن قتيبة للزنادقة في تأويل مشكل القرآن ومختلف الحديث ورسالة العرب وغيرها(٤) ، وهما تياران يصبان في مجرى واحد في نهاية المطاف ، دون أن يعني ذلك الصد عن الثقافة الفلسفية أو الأجنبية ، لما هو معروف من شدة اهتمام الجاحظ بهما، وعناية ابن قتيبة بآداب الفرس وأخبارهم (٥) ، إذ كان فارسي الأصل كما هو معروف .

ومع ذلك فلم يكن للكتاب بد من النظر في حدود المنطق ، وآداب الفرس وسيرهم وأمثالهم وعهودهم ووصاياهم ، لما لها من صلة قوية بصنعة الكتابة ، وتدبير أمورها ، فجعلها ابن المدبر ركنا" أساسيا" من أركان ثقافة الكاتب إلى جانب الثقافة العربية الأصيلة فقال في مستهل رسالته : " فإن أردت خوض بحار البلاغة ، وطلبت أدوات الفصاحة ، فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه في تلقيح ذهنك ، واستنتاج بلاغتك ، ومن نوادر كلام الناس

(١) الفن ومذاهبه في النثر ١٩٤
(٢) تأويل مختلف الحديث ٤١-٤٢
(٣) البيان والتبيين ١/٣٨٣ و ٢/٥ و ٣/٦
(٤) انظر تأويل مشكل القرآن – مقدمة المحقق ٧٦ والمتن ص٢ و ٢٢ . وتأويل مختلف الحديث ٥٩ .
(٥) انظر مثلا عيون الأخبار ١/٤٥ و ٤٧ و ٥٠ وأدب الكاتب ٧٥

ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار والسير والأشعار ما يتسع به منطقك، ويعذب به لسانك ، ويطول به قلمك ، وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب ، ومعاني العجم ، وحدود المنطق ، وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وتوقيعاتهم وسيرهم ومكايدهم في حروبهم ، بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط ... فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب . وتمهر في نزع آي القرآن في مواضعها ، واجتلاب الأمثال في أماكنها ... فإن تضمين المثل السائر ، والبيت الغابر مما يزين كتابك " (١) .

ومن الملاحظ أن ابن وهب لم يكتف بتحديد عناصر ثقافة الكاتب ومقوماتها فحسب ، وإنما وقف على كل جانب منها فبين موضع الإفادة منه ، ومدى حاجة الكاتب إليه ، فحفظ الرسائل المختارة يعين على تلقيح الذهن وإنتاج البلاغة ، ورواية النوادر والسير والأخبار تساعد في توسيع المنطق وتطويل الكلام ، وحفظ المثل السائر ، والبيت الشارد وتضمينه الكتاب مما يزينه ، ومعرفة خطب العرب ، ومعاني العجم ، وأمثال الفرس ووصاياها وعهودها مما يحتاج إليه الكاتب في صنعته وتدبير أمورها ، وقوام هذه الصنعة الإلمام بعلوم اللغة والنحو والتصريف وأصول السجلات والعقود ، وفي ذلك كله ما يكشف عن غوامض آداب وأدوات الكتابة وهي الغاية المتوخاة من رسالة ابن المدبر كما ذكر في صدرها (٢)، وتحدث فيها عن صفات الكاتب ، وما كانوا يشترطون فيه من الشروط ، لعل أطرفها تلك الشروط الجسدية الخاصة ، ومن ذلك : " أن يكون الكاتب صحيح القريحة ، حلو الشمائل ، عذب الألفاظ ، دقيق الفهم ، حسن القامة ، بعيدا" من الفدامة ، خفيف الروح ... واشترطوا في صفات الكاتب : طول القامة وصغر الهامة ، وخفة اللهازم، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وملاحة الزي..."(٣) . وقد نقل صاحب العقد هذه الصفات عن ابن المدبر، وعلل بعض هذه الشروط الجسدية تعليلا" يرتبط بذكاء الكاتب فقال :" ومن كمال آلة الكتابة ان يكون الكاتب نقي الملبس، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ... ولايكون فضفاض الجثة ، متفاوت

---

(١) الرسالة العذراء ٨

(٢) ن ٠ م ٥

(٣) ن ٠ م ٨

الأجزاء ، طويل اللحية ، عظيم الهامة ، فإنهم زعموا أن هذه الصورة لايليق بصاحبها الذكاء والفطنة "(١) . ومما لا شك فيه أن لكثير من هذه الشروط ما يسوغها في كثير من المهن والصنائع كما هو معروف .

ولم يطرأ على هذه الشروط والمفاهيم تطور ملحوظ في القرن الرابع ، فحدد أبو جعفر النحاس مجمل أدوات الكتابة وثقافتها في : " الخط والبلاغة والعلم بترتيب أعمال الدواوين ... والفقه والفرائض وصناعة الحساب والعلم بالنحو "(٢). وأشار إلى إهمال الكتاب لعلم النحو والإعراب فقال : " وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس في علم النحو، وأكثرهم تعظيماً لأهله حتى دخل منهم من لا يستحقون هذا الاسم ، فصعب عليه باب العدد،فعابوا من الإعراب الحساب "(٣) . وروى عن الأخفش الصغير (-٣١٥ هـ) قوله : " كنا إذا قللنا ما مع الإنسان من النحو قلنا : نحو كتابي "(٤) وعزا قلة اهتمام الكتاب بهذا الجانب الثقافي وغيره إلى الكبر فقال: "وربما كان الكاتب يمنعه من التأدب الكبر"(٥) مشيراً بذلك إلى ترفع الكتاب عن مساءلة العلماء، والأخذ عنهم ، لما يصيبهم ، بسبب علو مراتبهم وأقدارهم ، من مظاهر الكبر والغرور التي وجدنا الجاحظ وغيره يحذرون الكتاب منها ، ويعيبونهم بها ، مما حدا بكثير من العلماء والمؤلفين إلى تقريب هذه العلوم منهم، وتسهيل تناولها عليهم ، كما صرح بذلك النحاس في ختام مقدمته لصناعة الكتاب فقال : " ونحن نؤلف كتاباً" نجمع فيه ما يحتاج إليه الكاتب ، ونجتهد في تقريبه ، ونجمع فيه عيون ما ينتفع به من الخط ، والهجاء ، والعربية ، واللغة ، والمكاتبات (٦) فكانوا يقبلون على هذه الكتب ويؤثرونها ، ويجدون فيها ما يفي بحاجتهم الثقافية في علوم اللغة العربية وآدابها ، بعيداً" عن مجالس الشيوخ وحلقاتهم ، ولعل في ذلك ما يفسر كثرة الكتب المؤلفة في أدب الكتاب وصناعتهم كما مر بنا من قبل .

---

(١) العقد الفريد ٤/١٧١-١٧٢
(٢) صناعة الكتاب ٣٦
(٣) ن . م ٣٠
(٤) ن . م ٣٤ والأخفش الصغير : هو أبو الحسن سليمان بن علي النحوي ، أخذ عن ثعلب والمبرد ، ورحل إلى مصر ، وأخذ عنه بها عن النحاس (-٣١٥ هـ) . الوفيات ١/٣٠١
(٥) صناعة الكتاب ٤٥
(٦) ن.م. ٤٥

ومن أهم هذه الكتب المؤلفة في أواخر القرن الرابع " كتاب الصناعتين " الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري الذي انصب اهتمامه فيه على الجوانب الفنية والبلاغية ، إذ هي – في نظره – عماد صناعة الكاتب والشاعر ، وجوهر ثقافته ، وأشار في بعض فصوله إلى ما ينبغي على الكاتب تحصيله قبل ذلك من ألوان الثقافة فقال : " ينبغي أن تعلم أن الكتابة الجيدة تحتاج إلى أدوات جمة ، وآلات كثيرة ، من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ ، وإصابة المعاني ، وإلى الحساب وعلم المساحة والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة وغير ذلك مما ليس ها هنا موضع ذكره وشرحه ، لأننا إنما عملنا هذا الكتاب لمن استكمل هذه الآلات كلها ، وبقي عليه المعرفة بصفة الكلام ، وهي أصعبها وأشدها " (١) .

ويبدو أن الاهتمام بهذه الجوانب الفنية والبلاغية قد أخذ يطغى على الكتب المؤلفة لخدمة طبقة الكتاب منذ أواسط هذا القرن كما هو الشأن في البرهان وكمال البلاغة ومواد البيان وغيرها من الكتب التي تهتم بالكتابة والكتاب ، وإن كنا لانعدم في كثير منها بعض ما يتصل بصفات الكاتب أو ثقافته من أحاديث ، دون أن نجد فيها ما يضيف جديداً إلى ما ورد في كتب الأسلاف حول هذه الجوانب ، ومن ذلك أحاديث أبي حيان التوحيدي ، عن ثقافة الكاتب في البصائر والإمتاع (٢) ، إذ جعل من حفظ كتاب الله ، ومعرفة السنن ، والتفقة في الدين ، ورواية الأخبار والسير والأشعار ، والنظر في رسائل المتقدمين والمتأخرين ، والإلمام بالحساب وحسن الخط ، عماد صنعة الكتابة وثقافتها ، دون أن نجد لديه إشارة إلى أهمية الثقافة الفلسفية التي وجدنا كثيرا" من النقاد والمؤلفين في القرن الثالث يتحدثون عنها ، ويختلفون في مدى حاجة الكاتب إليها ، ويرىبعضهم فيها منافسا" قويا" للثقافة العربية الأصيلة ، أو حائلا" دون تحصيلها . كما مر بنا من قبل .

كما وجدنا أبا حيان يشير إلى بعض مساويء الكتاب في عصره ، وما كانوا يعرفون به من تحاسد وتنافس فيقول في معرض حديثه عن طبقات الناس في

---

(١) كتاب الصناعتين ١٦٠

(٢) البصائر والذخائر ٢/١ والإمتاع والمؤانسة ٩٩/١

الصداقة : " وأما الكتاب وأهل العلم ، فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد فربما صحت لهم الصداقة ، وظهر منهم الوفاء ، وذلك قليل "(١) وزاد على ذلك بديع الزمان الهمذاني مساويء أخرى ، فرماهم بالكبر والطغيان للنعمة وقلة الوفاء فقال في رسالة له إلى بعض الكتاب : " كنت – اطال الله بقاء سيدي ومولاي – في قديم الزمان أتمنى للكتاب الخير ... وقصاراي اليوم أن أرغب إلى الله في أن لاينيلهم فوق الكفاية ، ولا يمد لهم حبل الرعاية ، فشد ما يطغون للنعمة التي ينالونها والدرجة التي يعلونها ... وللكتاب مزية في هذا الباب ، فبيناهم في العطلة أخوان ، وفي العزلة أعوان ، حتى إذا لحظهم الجد لحظة حمقاء ، فيعود عامر ودهم خرابا"، وينقلب شراب عهدهم سرابا" ، فما زاد فالهم إلا نقص معروفهم ، ولا ورمت أكياسهم إلا ورمت أنوفهم " (٢) .

ومع أننا نعتقد أن لطبيعة صنعة الكتابة ، وتنافس أهلها في نيل المكاسب ، وارتقاء المناصب أثرا" كبيرا" في تأصل هذه الطباع في نفوسهم ، إلا أننا –مع ذلك– لانخلي كثيرا" من أصحاب هذه الآراء فيهم من التحامل عليهم ، اوالحسد لهم، بسبب تلك المكاسب والمناصب نفسها أيضا" ، وذلك ما سنجد أثره واضحا" في أثناء الحديث عن النقد الشخصي والموازنة بين الكتاب .

النقد الشخصي والموازنة بين الكتاب :

تعد دراسة الشخصيات في النقد الحديث منهجا" نقديا" قائما" بذاتة ومستقلا"، يتخذ فيه الناقد من شخصية الأديب وسيرته وسيلة لفهم آثاره وتقويمها ، فيبحث في صفاته وأخلاقه وأفكاره وعلاقاته وبيئته، ويحاول الكشف عن بعض الجوانب الخفية في حياته ، ويتقصى أثر ذلك كله في نتاجه(٣). وقد عرف نقدنا العربي القديم بعض صور هذا المنهج ، فذهب بعض الدارسين إلى القول بأن معظم كتب النقد التطبيقي عند العرب يمكن أن تدرج في حدوده، وفي مقدمتها كتاب الأغاني لأبي

(١) الصداقة والصديق ٦
(٢) رسائل الهمذاني ٦٦
(٣) أصول النقد الأدبي ٩٩–١٠٠ وانظر مناهج النقد الأدبي ٣٧ و ٢١٤ و ٤١٣ – ٤٢٠

الفرج الاصبهاني (١) . مع أننا لانرى مسوغا كافيا لإدراج كتب الأقدمين ودراساتهم النقدية في حدود المناهج النقدية الحديثة ومقاييسها على أساس ما يمكن أن يكون بينها وبين هذه المناهج من أوجه التشابه ، لما في ذلك من إغفال لطبيعة التطور في الدراسات الأدبية والمناهج النقدية ، وان كنا – مع ذلك – لاننكر شدة عناية النقاد العرب بالجوانب الشخصية في حياة الأدباء وأخبارهم ، كما يتجلى ذلك في كثير من كتب النقد التطبيقي التي تتناول الشعر والشعراء خاصة .

أما الكتابة والكتاب ، فإن جل ما وصل إلينا من كتب نقدية حولهما يكاد ينحصر في أصول صنعة الكتابة وآدابها ، وما تزال معظم الكتب التي تتناول الكتاب وطبقاتهم واخبارهم مفقودة ، ولعل أهم ما وصل إلينا منها كتاب " الوزراء والكتاب " للجهشياري الذي اهتم فيه بتاريخ الكتابة ودواوينها ، وأخبار الكتاب ومن وصل إلى مرتبة الوزارة منهم خاصة ، وليس فيه من المادة النقدية شيء ذو قيمة كبيرة أو أهمية . وكتاب " كمال البلاغة " الذي تناول فيه اليزدادي رسائل قابوس بن وشكمير، ولم يول سيرته وأخباره اهتماما" يذكر ، وإن كان قد أبدى بعض الآراء في الموازنة بينه وبين غيره من الكتاب . وكتاب " أخلاق الوزيرين " الصاحب بن عباد وابن العميد الذي عرض فيه التوحيدي أطرافا"كثيرة من أخبارهما، ونقل إلينا آراء عدد كبير من الأدباء والنقاد فيهما ، فضلا" عن آرائه الخاصة ، وبدا في ذلك كله متأثرا" بعلاقته السيئة بهذين الوزيرين ، فكان جل اهتمامه بمثالبهما ، ولم تنج آراؤه الأخرى التي كان يبديها في كثير من الكتاب في هذا الكتاب أو غيره من التأثر بمواقفه الشخصية منهم أو علاقته بهم . كما تضمنت بعض كتب الأدب الجامعة والنقد كثيرا" من الأخبار أو الآراء التي تتصل بصفات بعض الكتاب وأخلاقهم وثقافتهم وأفكارهم وغير ذلك من الجوانب التي اعتمد عليها بعض الأدباء أو النقاد في تقديرهم ، واتخذوا منها مقاييس في الحكم عليهم .

---

(١) أصول النقد الأدبي ١٠٠ ، وكتابنا فصول في النقد العربي وقضاياه ٤٦–٥٣ . وأبو الفرج علي بن الحسين القرشي الكاتب المعروف بالأصبهاني (٢٨٤– بعد ٣٦٢ هـ) صاحب الأغاني ، راوية أخباري وأديب مصنف وشاعر ، كان مختصا" بالوزير المهلبي منقطعا" إليه ، له كتب كثيرة وصل إلينا منها : الأغاني ومقاتل الطالبيين وأدب الغرباء والإماء الشواعر . وانظر في حياته بحثنا في عالم الفكر – الكويت – مج١٥–ع ١– س ١٩٨٤ . وفي مؤلفاته وآثاره بحثنا في التراث العربي – ع ٧ – س ١٩٨٢ . وفي دراسة كتاب الأغاني بحثنا في مجلة جامعة دمشق – الأعداد ٢٥–٣٠– س ١٩٩٢ – ١٩٩٣ . وفي شعره بحثنا في مجلة البيان – الكويت – ع ٣٠٢ – س ١٩٩٥ .

فقد بنى الجاحظ بعض آرائه في تقدير بعض الكتاب أو تقريظهم على أساس ما يتحلون به من خلق رفيع ، وثقافة واسعة ، وهما في نظره عنوان الكمال، وعيار التقديم والتفضيل ، فقال في رسالة له إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب : " والأدب أدبان : أدب خلق وأدب رواية ، ولا تكتمل أمور صاحب الأدب إلا بهما ، ولاتجتمع له أسباب التمام إلا من أجلهما ، ولايعد في الرؤساء ، ولايثنى به الخنصر في الأدباء ، حتى يكون عقله المتأمر عليهما ، والسائس لهما ... وأبو الفرج – أعزه الله – فتى العسكرين ، وأديب المصريين ، جمع أريحية الشباب ، ونجابة الكهول ، ومجد السادة ، وبهاء القادة ، وأخلاق الأدباء ، ورشاقة عقول الكتاب ، والتغلغل إلى دقائق الصواب ، والحلاوة في الصدور ، والبهاء في العيون ، والتقدم في الصناعة"(١) .

وكان معجبا" بمواهب بعض الكتاب ، وسعة آفاقهم الثقافية ، وقدرتهم على الابتكار والابتداع ، وإجادة القول في أكثر من فن أدبي واحد ، فضلا" عما يمكن أن يتصف به بعضهم من جميل الصفات ، فبنى على ذلك تقديره لابن المقفع فقال : " ومن المعلمين ، ثم البلغاء المتأدبين عبد الله بن المقفع ... وكان مقدما" في بلاغة اللسان والقلم ، والترجمة ، واختراع المعاني ، وابتداع السير ، وكان جوادا" فارسا" جميلا" ، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله " (٢) . وكان ابن المقفع معروفا" بسعة العلم وكثرة الأدب ، فروي أن : الخليل بن أحمد الفراهيدي كان يحب أن يرى عبد الله بن المقفع ، وكان عبد الله يحب ذلك ، فجمع بينهما ... فقيل للخليل : كيف رأيت عبد الله ؟ قال : ما رأيت مثله قط ، وعلمه أكثر من عقله ، وقيل لابن المقفع مثل ذلك ، فقال : ما رأيت مثله قط ، وعقله أكثر من علمه " (٣) .

وكان الجاحظ نفسه محل تقريظ بعض الأدباء والنقاد أو ذمهم اعتمادا" على هذه المقاييس ، فأبدى كثير منهم إعجابه بسعة علمه وثقافته ، وشغفه الشديد بالكتب،

(١) رسالة في المودة إلى أبي الفرج الكاتب – مجلة المورد – مج٧ – ع٤ – ص١٨٨-١٩١
(٢) فصل من كتاب المعلمين – مجلة المورد – العدد نفسه – ص١٥٥ . وانظر البيان والتبين ١/٤٥ و٥١و٥٢ والحيوان ٢/٢٩٩
(٣) الأوائل للعسكري ٢/١٣٩

فقال أبو هفان : " ثلاثة لم أر قط ولا سمعت أحب إليهم من الكتب والعلوم : الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسحق القاضي . فأما الجاحظ : فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا" ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر . وأما الفتح : فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل ، فإذا أراد القيام لحاجة، أخرج كتابا" من كمه ، أو خفه وقرأ فيه ... وأما اسماعيل : فإني ما دخلت إليه إلا ورأيته ينظر في كتاب "(١) .

وقد أخذ ابن قتيبة على الجاحظ جملة من المآخذ ، فاتهمه بالتناقض والكذب والافتراء والعبث ورقة الدين ، وتقصى أثر ذلك في مؤلفاته ، فانتقص من قيمتها واهميتها ، معتمدا" في ذلك كله على معيار ديني وأخلاقي محدد فقال : " ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة، وأشدهم تلطفا" لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه ... وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ ، ويستهزيء من الحديث استهزاءا" لايخفي على أهل العلم ... وهومع هذا أكذب الأمة وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل " (٢) .

ومما لاشك فيه أن للخلاف الفكري والمذهبي بين الجاحظ المعتزلي ، وابن قتيبة السني ، أثرا" كبيرا" في هذه الآراء التي تولى الرد عليها وعلى أشباهها بعض المعتزلة أو غيرهم ، فقال الخياط (- ٣٠٠ هـ) في الدفاع عن الجاحظ : " ومن قرأ كتاب الجاحظ في الرد على المشبهة ، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة ، وكتابه في نظم القرآن ، علم أن له في الإسلام غناءا" عظيما" لم يكن الله عز وجل

---

(١) الفهرست ١٣٠ . وأبو هفان عبد الله بن أحمد العبدي . راوية ناقد وأديب شاعر ومؤلف بصري وسكن بغداد (-٢٥٧ هـ) . طبقات الشعراء المحدثين ٤٠٨ والفهرست ١٦١ . والفتح بن خاقان : كاتب وأديب اتخذه المتوكل أخا ووزيرا وقتل معه سنة ٢٤٧ هـ . الفهرست ١٧٠ ومعجم الأدباء ١٨٦/١٦ واسماعيل بن إسحق فقيه مالكي ولي القضاء وله مؤلفات في الفقه والقضاء . الفهرست ٢٥٢ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ٥٩-٦٠ (ط القاهرة) و٤١ و ٤٢ (ط بيروت) .

ليضيعه له "(١) . وألف أبو حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠ هـ) كتابا" في " تقريظ الجاحظ " روى فيه أقوال كثير من الأدباء والنقاد في الثناء عليه كما مر بنا من قبل(٢) .

وكان بعض الرواة واللغويين قد أخذ على الجاحظ بعض الهفوات في اللغة، فطعن في دقة معارفه اللغوية ، واتهم روايته ، ولم ينج ابن قتيبة من شيء من ذلك أيضا" ، فأشاد بعض العلماء بصدقه وثقته ، ونسبه آخرون إلى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة ، فقال الأزهري (١- ٣٧٠ هـ) في مقدمة التهذيب : " وممن تكلم في لغات العرب بما حضر لسانه ، وروى عن الأئمة في كلام العرب ما ليس من كلامهم : الجاحظ ، وكان أوتي بسطة في لسانه وبيانا" عذبا" في خطابه ، ومجالا" واسعا" في فنونه ، غير أن أهل المعرفة بلغات العرب ذموه ، وعن الصدق دفعوه ، فقال ثعلب : اعزبوا عن ذكر الجاحظ فإنه غير ثقة ولا مأمون . وأما أبو محمد عبد الله بن مسلم (الدينوري) ... فما رأيت أحدا" يدفعه عن الصدق فيما يرويه ... وألفيته يحدث بالظن فيما لايعرفه ولايحسنه . ورأيت أبا بكر بن الأنباري ينسبه إلى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة " (٣) . وعزا ذلك الشريف المرتضى إلى شكل آخر من أشكال العصبية وهي التعصب للمذهب النحوي فقال : " إن من شأنه أن يرد كل ما يأتي به ابن قتيبة ، وإن تعسف في الطعن عليه لأنه كوفي وابن قتيبة بصري النحو"(٤)

وقد أكثر أبو حيان التوحيدي من النقد الشخصي ، فكان أظهر أساليب النقد لديه وأبرزها ، فاعتمد على مقاييسه الدينية والأخلاقية والثقافية في تقدير الأدباء والكتاب والموازنة بينهم ، وكان لها حضور دائم في معظم آرائه فيهم ، وبدا فيها متأثرا" بعوامل ذاتية كثيرة ، لعل أهمها – في نظرنا – فقره وخمول ذكره ، فكان لذلك شديد الحقد على المجدودين والنابهين من معاصريه ، وكان للصاحب بن عباد وابن العميد من ذلك النصيب الأوفر ، فأفاض في ثلبهما ، والطعن في أخلاقهما ، والغض من أقدارهما ، والانتقاص من قدراتهما الفنية والثقافية ، مدفوعا" إلى ذلك

---

(١) الانتصار ٠٢٤ والخياط أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط من رؤساء المعتزلة ، وتنسب إليه احدى فرقهم (-٣٠٠ هـ) وانظر الملل والنحل ٧٦/١ .

(٢) وانظر معجم الأدباء (الرفاعي) ٣٧/٣ و ١٢٤/١ . والكتاب رقم ١٠٨ في الفصل الأول .

(٣) التهذيب ١٥ .

(٤) أمالي الشريف المرتضي ١٣/٢ .

بدوافع ذاتية ، إذ كان قد قصدهما طامعا" في عطاياهما ، فلم يجد من فيض أيديهما ما ينقع غلته ، فانفجر بركان غضبه عليهما ، وألف " أخلاق الوزيرين " (١) في مثالبهما ووجد في بعض كتب الجاحظ وغيره في مدح بعض الكتاب أو ذمهم ما يسوغ صنيعه ، ويؤكد قيمة النقد الشخصي وأهميته فقال : " وهذا عمرو بن بحر ، وهو واحد الدنيا ، كتب رسالة طويلة في ذم أخلاق محمد بن الجهم ، ومدح أخلاق ابن أبي دواد ، وبالغ في الوصفين ... وأفاد فوائد لايخفي مكانها على قارئها ، وقام فيها مقام البليغ المصقع ، والسهم النافذ ، والناصر المدل ، والمنتقم المستأصل ، فهل قال أحد ممن له يد الفضل : بئس ما صنع ... بل تهادوه وحفظوه واستحسنوه وتأدبوا به وحذوا على مثاله ، وإن كانوا قد وقفوا دونه " (٢) .

وجعل للمعيار الديني والأخلاقي وزنه في تقدير الأديب ، وحذر من التأثر في ذلك بمكانته ومرتبته فقال في الرد على من قد يخالفه في ذلك : " وابن عباد ليس بصغير القدر ، وابن العميد ليس خامل الذكر... ولكن حديث الدين والكرم والعقل والمجد والسيرة والهدى والجود والبذل ليس من حديث الجد والفتح والدولة والمرتبة في شيء ... اللهم إلا أن يكون الفضل كله عند هذا المخالف في كتاب ينشأ، ومعنى يقتضب ، وقصيدة تنشد ، ورسالة تحبر " (٣) وحدد الأسس التي اعتمد عليها في نقده الشخصي لهما أو لغيرهما ، وتتجلى بالبينة والبرهان والإنصاف فقال : " ولست أدعي على ابن عباد ما لا شاهد لي فيه ، ولا أذكر ابن العميد بما لابينة لي معه ولا برهان لدعواه عندي ، كما أتوخى الحق عن غيرهما إن اعترض حديثه في فضل أو نقص ، كذلك أعاملهما فيما عرفا بين أهل العصر " (٤) .

---

(١) انظر الفصل الأول رقم ١٠٦ .

(٢) أخلاق الوزيرين ٤٢-٤٤ وانظر ٦٧و٧١ . ومحمد بن الجهم البرمكي : من فلاسفة المتكلمين ، اتصل بالمأمون ، فولاه بعض الولايات ، وعده الجاحظ من البخلاء . وانظر البخلاء ٣٧٢ - ٣٧٣ وتأويل مختلف الحديث ٦٠-٦١ والأغاني ١٥/١٣ . وأحمد بن أبي دواد أبو عبد الله من أفاضل القضاة والعلماء (-٢٤٠ هـ) . تاريخ بغداد ١٤١/٤ .

(٣) أخلاق الوزيرين ٤٧٧-٤٧٨ .

(٤) ن . م ٧٩ .

بيد أنه لم يكن حريصا" على التقيد بهذه المباديء والمقاييس ـ فأغرق في الذم، وأقذع في الهجاء وكان الصاحب هدفا" واسعا" وكبيرا" لسهامه ، ومن ذلك قوله فيه : " وكان شديد الحسد لأهل الفضل والدراية ، ولأصحاب الحفظ والرواية، وكان جل حسده ، لمن كتب فأحسن الخط ، وأجاد اللفظ ، وتأتى للرسم ، وملح في الاستعارة " (١) أو قوله الذي جمع فيه ما بين النقد الشخصي والأسلوبي في آن واحد: " وحديث ابن عباد أنتن من الصنان ، وأوحش من أضغاث الأحلام ... أما سمعته يشتم إنسانا فقال : لعن الله هذا الأهوج الأعوج الأفلج ... الذي إذا قال لجلج ، وإذا مشى تفحج ، وإن تكلم تلجلج ... فهل سمعت بكلام أنبا عن القلب وأسمج من هذا ؟ نعوذ بالله من العجمة المخلوطة بالتعريب ، ومن العربية المخلوطة بالتعجيم " (٢) مشيرا" بذلك إلى شدة ولوع الصاحب بالسجع والغريب ، وهو عنده مذهب الأعاجم والمستعمربين في الكتابة والحديث كما مر بنا من قبل .

وعلى أساس هذه المقاييس الشخصية قام بالموازنة بينه وبين عدد من معاصريه من الكتاب ، وبدأ ذلك بالحديث عن بعض الجوانب الأخلاقية والثقافية والأسلوبية لدى الصاحب ، فذكر أن الوزير ابن سعدان قال له : " أريد أن أسألك عن ابن عباد ، وعن اخلاقه وعاداته ، وعن علمه وبلاغته ... فقلت : إن الرجل كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نتف من كل أدب خفيف أشياء، وأخذ من كل فن طرفا ... وهو شديد التعصب على أهل الحكمة ، وليس عنده بالجزء الإلهي خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض والقوافي ، ويقول الشعر وليس بذاك ، وفي بديهته غزارة ، وأما رميته فخوارة ... والمأتى إليه سهل ... والذي غلطه في نفسه ، وحمله على الإعجاب بفضله ، والاستبداد برأيه أنه لم يجبه أحد قط بتخطئة قال : فكيف بلاغته من بلاغة ابن العميد ، وأين طريقته من طريقة ابن يوسف والصابي ؟ قلت : يرتفع فيها عن المتعلمين بدرجة أو بدرجتين ... وهو مجنون الكلام ، تارة يبدو لك في بلاغة قس، وتارة يلقاك بعي باقل ، مع تحريف كثير في المعاني ، وإحالة من الوضع ، وغلط في السجع ، وشرود في الطبع ... وهو كثير السرقة ، سيء الاتفاق ، رديء القلب والعكس ، فروقة في إيراده ، هزيمته قبل هجومه ، وإحجامه أظهرمن

---

(١) أخلاق الوزيرين ١١٦
(٢) ن . م ٣٩٤

إقدامه ... وهو مجتهد غير موفق ، وفاضل غير منطق ... يكذب نفسه بحسن الظن في البلاغة ، وطباعه تصدق عليه بالتخلف فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ... هذا مع الكبر الممقوت ... وهو في الجملة أبلغ من ابن يوسف وأغزر وأحفظ وأروى ... وليس ابن يوسف من ابن عباد في شيء . وأما ابن العميد ... فأول من أفسد الكلام لأنه تخيل مذهب الجاحظ ، وظن أنه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوقع بعيدا" من الجاحظ ، قريبا من نفسه ، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبر بأشياء لاتلتقي عند كل انسان، ولاتجتمع في صدر كل أحد : بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ ، وهذه مفاتيح قلما يملكها واحد ، وسواها مغالق قلما ينفك منها واحد . وأما ابنه ذو الكفايتين فلو عاش كان أبلغ من أبيه ... ولقد تشبه بالجاحظ ، فافتضح في مكاتباته لأخوانه ... وكان مع هذا أشد الناس ادعاء ، وهو نزر المعاني ، شديد ... الكلف باللفظ ، وكان أحسد الناس لمن خط بالقلم ، وأبلغ باللسان ... وقد لقي الناس منه الدواهي لهذه الأخلاق الخبيثة . فأما أبو اسحق (الصابي) فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة ... وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو ، وليس ابن عباد في النحو بذاك ، ولا كان ابن العميد إلا ضعيفا ... وأبو إسحق معانيه فلسفية ، وطباعه عراقية ، وعاداته محمودة ... وفنونه أكثر ، ومأخذه أخفى ، وخاطره أنقد ، وروضه أنضر ، وسراجه أزهر، ويزيد على كل من تقدم بالكتاب " التاجي " فإنه أبان فيه عن أمور ، وكنى عن مواضع ، ودل على التفلسف ، وعلى الاطلاع على حقائق السياسة ، ولو لم يكن له غيره لكان به أعرق الناس في الخطابة ، وأعرف الكتاب بالكتابة . هذا ونظمه منثوره ، ومنثوره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سبك فهو واحد ، وإنما يختلف بما يصاغ منه ، ويشكل عليه . هذا مع الطرف الناصع والتواضع الحسن . واللهجة اللطيفة ، والخلق الدمث ، وله فنون في الكلام ما سبقه إليها أحد ، وما ماثله فيها إنسان ... قال : هل كان في زمن هؤلاء من يلحق بهم ؟ قلت : نعم ، أبو طالب الجراحي من آل علي بن عيسى ... فانتجع فناء ابن العميد فحسده وطرده وعض بعد ذلك على ناجذه ندما" على سوء فعله ... وأبو الحسن الفلكي : وكان من أهل البصرة ... وهو حسن الديباجة ، رقيق حواشي اللفظ ، وهو أحدهم غربا ،

وأغزرهم سكبا ... وفي الجملة ، فإن الفضل في الناس مبثوث ، وهم منه على جدود ، والمرذول هو العاري من لبوسه " (١) .

واذا ما أغضينا عما في هذا النص من آثار العلاقة السيئة بين التوحيدي وبعض معاصريه من الكتاب ، فإننا نقف فيه على مجمل أساليبه في النقد والموازنة، ومقاييسه فيهما ، وهي ذات شقين متلازمين : أحدهما شخصي والآخر فني ، تتجلى في أولهما ذاتية أبي حيان المفرطة في الثلب والحقد والانتقام ، إذ وجدناه يرمي معظم هؤلاء الكتاب بالحسد والكبر والعجب والادعاء وسوء الطباع والأخلاق والمعاملة ، وقلة العلم والمعرفة ، واستثنى من ذلك الصابي ، فأبدى إعجابه بظرفه ولطفه وتواضعه وسعة اطلاعه ، وإن كان قد غض من علمه بالنحو، شأنه في ذلك شأن الصاحب وابن العميد ، على أنه – مع ذلك – قد بدا متعاطفا" مع بعض الكتاب المغمورين ، أو غير المجدودين ، فحاول التنويه بهم ، والرفع من أقدارهم ، إذ وجد في بعضهم صورة من مأساته ، واسوة في حياته ، كما هو واضح في حديثه عن الجراحي الذي انتجع فناء ابن العميد فحسده وطرده ، ثم أخذ يقرع السن من ندم عليه لحسن بيانه وبلاغته ، وتلك صورة من صور علاقة أبي حيان مع الصاحب وابن العميد كما وقرت في نفسه ، بيد أننا لا نستطيع الاعتماد على هذه الأخبار او الآراء ، التي نسب معظمها – على عادته في ذلك – إلى بعض شيوخه ومعاصريه، في تقدير هؤلاء الكتاب وأضرابهم أو الحكم عليهم من خلالها ، لما يكمن وراءها من دوافع شخصية ، وعوامل ذاتية تجعل الثقة بالنقد الشخصي ومقاييسه عند أبي حيان ضعيفة إلى حد غير قليل ، وكثيرا" ما يمتد أثر ذلك إلى نقده الفني لأساليب الكتاب ، لما بين هذين الجانبين من النقد من تواشج وارتباط لديه .

ومع ذلك فإن بإمكاننا استخلاص جملة المقاييس التي يعتمد عليها في هذا النقد ، وهي عنده تؤول إلى أصلين رئيسين ، يتعلق أولهما ببعض المحاسن الفنية والأسلوبية وأهمها لديه : الطبع والموهبة والبعد عن التكلف والتعقيد ، والقدرة على الابتكار والابتداع ، والافتنان في أنحاء الكلام ، والتعمق في معاينه ، وحسن

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/٥٣-٦٩ والتاجي في أخبار بني بويه لأبي اسحق الصابي . الفهرست ١٤٩ .

صياغته وتأليفه وتجويده على طريقة العراقيين التي أجمل خصائصها في قوله : "إذا أنصفنا التزمنا مزية العراقيين بالطبع اللطيف ، والمأخذ القريب ، والسجع الملائم، واللفظ المونق ، والتأليف الحلو ، والسبوطة الغالبة ، والموالاة المقبولة في السمع ، الخالبة للقلب ، العابثة بالروح ، الزائدة في العقل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة على فضل الأدب ، الدالة على غزارة المغترف ، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف"(١) وهي – على ما يبدو – طريقة الجاحظ في الكتابة ، كما بين ذلك في نعته لميزاته قبل قليل .

وعلى أساس هذه الميزات والمقاييس وجدناه يفضل أبا اسحق الصابي منظومه ومنثوره على أصحابه في أثناء الموازنة بينه وبينهم ، وأخذ عليهم فيها جملة من المآخذ والعيوب التي تتجلى في اختلاف النسج والتأليف ، والتفاوت الواضح في أساليب الكتابة بين نص وآخر للكاتب ، وذلك مرتبط في نظره بما قد يصاب به من مظاهر العجب والغرور ، وعدم الوقوف على آراء نقاد الكلام ومبهرجيه ، شأن الصاحب في كتابته وأسلوبه ، اما ابن العميد أبو الفضل وابنه أبو الفتح فقد أودى بهما التقليد على غير هدى في نظره ، إذ حاولا الجري على أسلوب الجاحظ ومذهبه في الكتابة فلم يفلحا لعدم امتلاكهما مفاتح هذا المذهب : من طبع وموهبة وثقافة وخبرة وتجربة وبلاغة ، فوقع أولهما دونه ، وكان ثانيهما نزر المعاني ، كلفا" باللفظ ، مغرما" بالسرق ، وتلك أهم معايب الكلام لديه ، وعلى أساس هذه المعايب والمحاسن والمقاييس الشخصية والفنية جرى في نقده لكثير من الكتاب والأدباء .(٢)

وإذا كان أبو حيان قد أفاض في ذم كثير من هؤلاء الكتاب ، فان للكثير من معاصريه فيهم آراء أخرى لعلها أقرب إلى الصواب ، وأدنى من الإنصاف ، ومن ذلك قول مسكويه في ابن العميد وكان مختصا" به ، قيما" على خزانة كتبه زمنا" طويلا" : " كان هذا الرجل قد أدى من الفضائل والمحاسن ما بهر به أهل زمانه ،

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ٦٤/١

(٢) وانظر الإمتاع والمؤانسة ٢٩/١-٦٩و١٢٩-١٤٣ وأخلاق الوزيرين ١٦٢و٣٢١و٣٩٣و٤١٤ والصداقة والبصائر ١٧٨/١/١و١٨٩و٦٧٥/٣ ومواضع كثيرة جدا" .

ولم يزاحمه أحد في المعاني التي اجتمعت له ، فمن ذلك أنه كان أكتب أهل عصـره، وأجمعهم لآلات الكتابة ، وأكثرهم حفظا" للغة والغريب ، وتوسعا" في النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظا" للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام ... وأما ما شاهدته منه مدة صحبتي إياه ، وكانت سبع سنين لازمته فيها ليلا" ونهارا" ، أنه ما أنشد شعرا" قط لم يحفظ ديوان صاحبه ... وأما كتابته ، فمعروفة من رسائله المدونة ، ومن كان مترسلا" لم يخف عليه علو طبقته فيها " (١) وكان أبو الفضل ممدحا" في أخلاقه وسعة علمه وبلاغته ، فدعي بالجاحظ الأخير ، ولقب بالأستاذ الرئيس ، وضرب به المثل في البلاغة والفصاحة ، وقيل إن الكتابة بدئت بعبد الحميد وختمت بابن العميد "(٢) .

كما كان الصاحب : عالي المحل في العلم والأدب ، جليل الشأن في الجود والكرم ، رفيع القدر في البلاغة والكتابة ، فقال الثعالبي إنه : " كان نادرة عطارد في البلاغة ، وواسطة عقد الدهر في السماحة " (٣) وروى عنه قوله : " كتاب الدنيا، وبلغاء العصر أربعة : الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحق الصابي ، ولو شئت لذكرت الرابع . يعني نفسه " (٤) ، وعلق على ذلك فعقد موازنة سريعة بين الصاحب والصابي ، أشار في صدرها إلى كثرة الآراء والموازنات للترجيح بينهما في عصره ، ونبه على أمر مهم ، وجانب دقيق من جوانب النظر النقدي في أساليب الكتاب ، ويتصل بحرية الأديب في الكتابة ، وتعبيره عن ذاته وعواطفه ومشاعره فيها ، واختيار موضوعاتها ، وبين الصاحب والصابي في ذلك بون بعيد ، قد لاتصح معه الموازنة ، أو تقوم على أساسه المفاضلة بينهما ، إذ كان الأول وزيرا" يكتب كما يريد ، والثاني كاتبا" أو صاحب ديوان يكتب في أكثر الأحيان كما يؤمر ، وفي ذلك مجال واسع لتقليب النظر النقدي في آثار هذين الكاتبين والموازنة بينهما ، فقال الثعالبي :"وأما الترجيح بين هذين الصدرين – أعني الصاحب والصابي – في الكتابة فقد خاض فيه الخائضون، وأخب فيه المخبون ، ومن أشفى ما سمعته في ذلك أن الصاحب كان يكتب كما

---

(١) تجارب الأمم ٢/٢٧٥ – ٢٧٧ (ط مصر ١٩١٥) .
(٢) يتيمة الدهر ٣/١٤٥ .
(٣) ن . م ٣/١٨٩ .
(٤) ن . م ٢/٢٤٥ .

يريد، وأبو اسحق كان يكتب كما يؤمر ، وبين الحالين بون بعيد . وكيف جرى الأمر فهما هما ، وقد وقف فلك البلاغة بعدهما " (١) .

كما عقد الباقلاني موازنة سريعة بين الجاحظ وابن العميد في الكتابة ، فضل فيها ابن العميد ، وجعل مقياسه في ذلك بروز شخصية الكاتب من خلال قدرته على التعبير عن مذهبه الفني وأسلوبه بكلام متصل ومطول ، دون الاتكاء على غيره كما يفعل الجاحظ في كتبه التى وجده فيها يمتح بدلاء غيره من الكتاب فيخفي بذلك أسلوبه ومذهبه وشخصيته ، فقال : " وهذا أبو الفضل بن العميد قد سلك مسلك الجاحظ ، وأخذ طريقته فلم يقصر عنه ، ولعله قد بان تقدمه عليه لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ، ويكملها على شروط صنعته ، ولايقتصر على أن يأتي بالأسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعل في كتبه ، متى ذكر من كلامه سطرا" أتبعه من كلام الناس أوراقا" ، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتابا" " (٢) وفي ذلك إغفال واضح للفرق بين الجاحظ وابن العميد إذ كان الأول مؤلفا" لكتب كثيرة ومتسعة لابد له فيها من إيراد الشاهد والمثل والخبر والقول المأثور والرأي النقدي وغيره ، على حين كان الثاني مترسلا" يقتصر في كتبه ورسائله على الإنشاء في موضوع محدد لايحتاج فيه إلى ما يحتاج إليه الجاحظ وغيره في كتبه ، ومع ذلك فإن في كثير من كتب الجاحظ ورسائله ما ينقض ذلك الرأي ويدفعه .

كما نقف في ما بقي من أوراق الصولي على بض الآراء في تفضيل بعض الكتاب على غيرهم اعتمادا" علىبعض المقاييس الشخصية أو الفنية أو إطلاق الحكم بالتفضيل على عمومه استنادا" إلى شهرة الكاتب ومكانته ومن ذلك قوله : " اجتمع الكتاب فتذاكروا الماضين من الكتاب ، فاجمعوا أن أكتب من كان في دولة بني العباس : أحمد بن يوسف وابراهيم بن العباس الصولي...وأن أذكي كتاب الدولة ،

---

(١) ن . م ٤/٢٤٥-٢٤٦ .
(٢) معجم الأدباء ٢/٦٣ .

واجمعهم لمحاسن الكتابة من ذكاء وفطنة وخط : جعفر بن يحيى واسماعيل بن صبيح"(١) .

على أن أطرف هذه المفاضلات بين الكتاب تلك التي نقع عليها في خبر المناظرة الشهيرة بين أبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ، وكانت الغاية منها تفضيل أحدهما على الآخر، والحكم له بالسبق والتبريز في جملة من فنون الأدب ، ومن أهمها الترسل والإنشاء ، فخرج الهمذاني منها منتصرا" ، وفضله جمهور الحاضرين على خصمه ، وقال الثعالبي في وصف هذه المفاضلة : " فلما تصدى الهمذاني لمساجلته ... وغلب هذا قوم وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكمين ، والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمذاني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء " (٢) .

وقد روى لنا الهمذاني نفسه خبر هذه المناظرة الطويلة التي نقتصر على ما يتصل بالترسل منها وفي ذلك يقول : " ثم ملنا إلى الترسل ، فقلت اقترح علي ما في طوقك ... حتى أقترح عليك أربعمائة صنف في الترسل ، فإن سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخلف كل إخلاف فلك يد السبق وقصبه ، ومثال ذلك أن أقول لك اكتب كتابا" يقرأ منه جوابه ... أو اكتب كتابا في المعنى الذي يقترح ولايوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة ، أو دال ينفصل عن الكلمة ... أو اكتب كتابا" خاليا" من الألف واللام ... أو اكتب كتابا" إذا قريء معرجا" وسرد معوجا" كان شعرا" ... أو اكتب كتابا" إذا فسر على وجه فسر مدحا" ، وإذا فسر على وجه كان قدحا" ... قال أبو بكر : هذه الأبواب شعبذة ... فقلت : فما الذي تحسن أنت من الكتابة وفنونها حتى أباحثك على مكنونها، فقال : الكتابة التي يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس ، فقلت : أليس لاتحسن هذه الشعبذة ! ؟ قال : نعم ، فقلت هات ... ثم تقاس ألفاظي بألفاظك، ويعارض إنشائي بإنشائك ، واقترح كتابا" في النقود وفسادها ... فكتب : الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل إلى جنات النعيم ، ويخلد في نار الجحيم ... وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشدالإكبار ، وأنكرناه أعظم الإنكار ....

(١) أخلاق الوزيرين ٥٤٨ .
(٢) يتيمة الدهر ٢٥٧/٣-٢٥٨و٢٠٨-٢٠٩ ومعجم الأدباء ١٧٤/٢

وكتبت : وجعلت أقرؤه منكوسا" ، وأسرده معكوسا" : الله شاء أن المحاضر صدور بها وتملأ المنابر ، ظهور لها ، وتفرع الدفاتر ، وجوه بها ، وتمشق المحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا" كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، في تأييده الله أدام الأمير جرى ... فلما فرغت من قراءتها ، انقطع ظهر أحد الخصمين"(١) .

وتعكس لنا هذه المناظرة ما آل إليه حال الكتابة والترسل في اواخر القرن الرابع من كلف بالتصنع والزخرف والبديع وتلاعب بالألفاظ حتى تحولت إلى شعبذة وألغاز كما أسماها الخوارزمي بحقَ ، وهي تدل على أذواق أهل العصر ، ومقاييسهم النقدية في تفضيل كاتب على أخر ، وإعجابهم الشديد بتلك الألاعيب اللفظية ، وأساليب الزخرف والتصنع التي أخذت تطغي على معظم فنون القول المنظوم والمنثور ، وأصبحت بعد ذلك مقاييس أساسية في نقد الأدب ، وتقدير الأدباء ، مما أسهم في تحول النقد عن مجراه الحقيقي الصافي إلى مجرى آخر غير بعيد منه يحفل بمقاييس علم البيان وعلم البديع .

وقد شارك الشعراء في هذه الآراء والموازنات ، ونظموا أشعارا" كثيرة في مدح الكتاب ورثائهم وهجائهم ووصف رسائلهم والموازنة بينهم ، فلا نكاد نجد شاعرا" من شعراء القرن الثالث وما بعده إلا وله في ذلك حظ أو نصيب ، فخلف لنا أبو تمام والبحتري عدة قصائد في مدح الحسن بن وهب الكاتب وابراهيم بن المدير والزيات وغيرهم من الكتاب ، وخلد المتنبي ابن العميد وصاحبه بغرر من قصائده ، وتحفل كتب الأدب والنقد ودواوين الشعراء بكثير من الأشعار في وصف الكتابة والكتاب (٢) . ومن ذلك قول سليمان بن وهب في الكتاب : (٣)

إذا ما حددنا وانتضينا قواطعا"	أصم الذكى السمع منها صريرها
تساقط في القرطاس منها بدائع	كمثل اللآلي نظمها ونثيرها
تقود أبيّات البيان بفطنة	وتكشف عن وجه البلاغة نورها

---

(١) كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان ٧٣-٧٨ .

(٢) وانظر في ذلك مثلا الأغاني ٥٧/٢٣ (لأبي تمام في الزيات) و١٠٨ (له في الحسن بن وهب) . ويتيمة الدهر ٥٦/٢(للمتنبي في ابن العميد) وتزخر اليتمة بأشعار كثيرة في الكتابة والكتاب انظر مثلا ٢٨٩/١و ٣٢٢ و٢٤١/٢

(٣) الاغاني ١٥٢/٢٣ .

وقال الوزير المهلبي في وصف بلاغة ابن العميد في رسالة بعث بها إليه (١) :

ورد الكتـــاب مبـــشـــرا"	قـــلبي بأشـــعـــاف الســـرور
بنظام لفـــظ كالثغـــــو	روكـــالعقود عـلى النــحور
أنزلته في القـــــلب مــنــ	زلة القـــلوب مـــن الصــدور

ولأبي إسحق الصابي في مدح الوزير المهلبي ووصف بلاغته في الكتابة (٢) :

قل للوزير أبي محمــــــد الــــــذي	قد أعجزت كل الورى أوصافه
لك في المحافل منطق يشــفي الجوى	ويسوغ في أذن الأديب سـلافـه
فكأن لفظك لـــؤلـــؤ متنخــــــل	وكأنما آذاننـــا أصـدافــــه

وقال الشريف الرضي في رثـاء أبـي إسحق الصـابي من قصيدة من أجود شعره يصف فيها بلاغته (٣) :

من للبلاغة والفصـــاحة إن همى	ذاك الغمام وعبّ ذاك الوادي
فقر بها تمسي المـــــــلوك فقيرة	أبدا" إلى مبـــدا لـــها ومعـــاد
ترقي وتلدغ في القلوب وإن تشا	حطّ النجوم بهـــا من الأبعــاد

وللحمدوني فـي نعت ألـفـاظ سـابور بن أردشير ومعانيـه وسحـر بيانـه فـي ترسلـه :(٤)

---

(١) اليتيمة ٢٣٠/٢ .
(٢) ن . م ٢٧٦/٢
(٣) ن . م ٣٠٨/٢
(٤) ن . م ١/٣

لله لؤلؤ ألفـــــاظ أسـقاطـــها لو كان للغيد ما استأنسن بالعطـل
ومن عيون معان لو كحلت بها نجل العيون لأغناها عن الكـــحل
سحر من الفكر لودارت سلافته على الزمان تمشى مشـــية الشـمل

ولأبي إسـحق الصـابي موازنـة شـعرية طريفـة بينـه وبيـن عبـد العزيـز بـن يوسـف في الكتابـة ، أشـاد فيهـا بقـدرة ابـن يوسـف وبلاغتـه فـي الابتـداء والفتـوح ، واعترف بتفوقه عليه في ذلك ، وإن كان أقدر منه في الأجوبة والـردود ، وفـي ذلـك يقول(١) :

في كل يـــوم لكـم فتـــح له خطـــر يشاد فيه بذكـر السيـــد العضـــد
ومالنـــــا مثـــله لكننـــــا أبـــدا" نجيبكــم بجـواب الحاســد الطرد
فأنت أكتب مـني في الـفتـوح وما تجرى مجيـــبا" إلى شأوي ولاأمدي
•وما ذممـــت ابتدائي إذ بدأتـــكم ولاجوابكـــم في القرب والبعـــد

ومع أن هذه الأشعار لاتخلو من بعض الآراء النافذة والمقاييس في كثير مـن الأحيـان ، إلا أن قيمتهـا النقديـة تظـل – مـع ذلـك – ضعيفـة ، لارتباطهـا بالتكسـب والمديح ، وتعبيرها عن مكانة الكتاب ورغبة الشعراء في استرضـائهم ونيل عطايـاهم وجوائزهم ، وقد تنبه على ذلك التوحيدي فقال في معرض حديثه عمـا قالـه الشـعراء في مدح الصـاحب وابن العميـد ووصـف بلاغتهمـا : " ودع االشـعراء جانبـا" ، فإنمـا ذاك عن حسب دئي ، ومذهب زري ، وطبع خسيس ... ولكن هات رسالة مجـردة، وأديبا" فاضلا" ، وعالما" مذكورا" تجرد لنصرتهما ، ودل على خفي فضلهما "(٢) ولم يكن أبو حيان نفسـه بمنـأى مـن التـأثر بشـيء مـن هـذه المطـامع والأهـواء فـي نقـده الشخصي لكثير من الكتاب ، وموازنته بينهم كما مر بنا قبل قليل .

ومهما يكن من أمر هذه الموازنـات ومعاييرها ، وذلك النقد ومقاييسه ، فإنهـا تعبر عن مدى الاهتمام النقدي الواسع بهـذا الفـن وأربابـه ، ولعـل أظـهـر صـور هـذا

(١) معجم الادباء ٦٣/٢
(٢) أخلاق الوزيرين ٥٤٨

الاهتمام إنما تتجلى في الكتب الكثيرة التي ألفها الأدباء والنقاد في الترسل ، وكانت لهم في دراسته أساليب متباينة ، فتناولوا حد الكتابة وتعريفها ، وأنواعها ووظائفها ، وقواعدها ورسومها ، وخصائصها الفنية وأساليبها ، وصفات أصحابها وآدابهم ، وأدواتهم وثقافتهم ، والموازنة بينهم وتقديرهم ، وغير ذلك من الجوانب التي وقفنا عليها في هذا الفصل ، وكشفنا عن آرائهم فيها ، ولاحظنا في أثناء ذلك شدة اهتمامهم بقواعد الكتابة ورسومها ، وآداب الكتاب وثقافتهم ، وقلة عنايتهم بالجوانب التطبيقية في تحليل رسائلهم ، والموازنة بينهم . على أن هذه الملاحظات تظل محصورة في حدود ما وصل إلينا من آثارهم ، وقد أشرنا من قبل إلى ضياع كثير من هذه الآثار وفقدانها ، وقلة اهتمام الدارسين بالمخطوط منها ، مما يمكن أن يكشف عن بعض الجوانب الخفية الأخرى في نقد هذا الفن وغيره من فنون النثر الأدبي وأنواعه .

الباب الثاني

قضايا نقد الكتابة

- **الفصل الأول: الكتابة العربية والثقافة الأجنبية**
- **الفصل الثاني: سرقات الكتاب**
- **الفصل الثالث: النقد التوثيقي**

الفصل الأول

الكتابة العربية والثقافة الأجنبية

- الملامح العامة لحركة الترجمة وتطورها عند العرب
- الثقافة الفارسية وأثرها في الكتابة العربية
- الصحيفة الهندية وأثرها في نقد الكتابة
- الثقافة اليونانية وآثارها في نقد الكتابة العربية



الفصل الأول

الكتابة العربية والثقافة الأجنبية

الملامح العامة لحركة الترجمة وتطورها عند العرب :

ارتبط العرب قبل الإسلام بغيرهم من الأمم والشعوب بعلاقات تجارية وسياسية وعسكرية قوية ، فكانوا يقومون برحلات تجارية كثيرة إلى البلدان المجاورة ، ويتصلون في أثنائها بأهلها وسكانها ، وأخبارهم في ذلك كثيرة ومتنوعة تحفل بها كتب التاريخ والسير والتراجم والأدب ، وقد ورد ذكر هذه الرحلات في القرآن الكريم أيضا(١) ، كما كان الغساسنة في أطراف الشام . على صلة وثيقة بالروم ، وكان المناذرة في أطراف العراق على علاقة قوية بالفرس ، بيد أن علاقتهم الثقافية بهذه الأمم كانت محدودة وضعيفة ، ولم تكن ظروفهم الحضارية تؤهلهم لنقل ما عندهم من آثار علمية وأدبية إلى لغتهم ، فلم يتجاوزوا في ذلك حدود تعلم بعض الصنائع ، واكتساب بعض المعارف ، وإتقان بعض اللغات عن طريق الصلات المباشرة ، وفي نطاق ضيق ومحدود ، ومما يروى من أخبارهم في ذلك أن " الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب ... قد رحل إلى أرض فارس ، وأخذ الطب عن أهل تلك الديار من أهل جند يسابور وغيرها في الجاهلية قبل الإسلام"(٢) وكذلك كان ابنه النضر " قد سافر في البلاد كأبيه ... واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر "(٣) وذكر صاحب السيرة أنه " قدم الحيرة وتعلم بها أخبار ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسبنديار "(٤) فكان يحدث العرب بها .

وأتقن بعض العرب بعض اللغات الأجنبية قراءة وكتابة ومنهم عدي بن زيد العبادي الذي كان يختلف إلى الكتاب بالحيرة " ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى

---

(١) سورة قريش رقم ١٠٦ وفيها يقول تعالى : " لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف " والإيلاف مصدر ألف . ورحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام في كل عام . وانظر السيرة النبوية ١/١٨٠ و ٣٤٠ والأغاني ٦/٣٤٣-٣٥١ .

(٢) حكماء الاسلام ١٦١-١٦٢ .

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ١٦٧ .

(٤) السيرة النبوية ١/٢٣٨ وانظر ١٥٧ و ١٩١ و ٢٢٣ .

تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل " (١) وذكر صاحب الأغاني أنه " كان يكتب الكتاب العبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ماشاء أن يكتب " (٢) ويرجح بعض الدارسين المعاصرين أن الإنجيل والتوراة كانا مترجمين إلى العربية في الجاهلية ، فكان النصارى واليهود من العرب يستمعون إلى ما فيها أو يقرؤنها بلغتهم (٣) ، ويبدو أنهم قد نقلوا إلى هذه اللغة حكم لقمان وأمثاله فروي أن " سويد ابن الصامت قال للنبي (ص) : لعل الذي معك مثل الذي معي . فقال له : ما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعني حكمته ، فقال : **اعرضها** علي ، فعرضها عليه فقال : إن هذا كلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا " (٤) .

وكان الإسلام قد أذكى جذوة العلم والمعرفة في نفوس العرب ، ووثق علاقتهم بغيرهم من الأمم فحث النبي بعض صحابته على تعلم اللغات الأجنبية كي يستعين به في ترجمة بعض ما يرد إليه من كتب أو رسائل ، فأمر زيد بن ثابت بتعلم العبرانية والسريانية " (٥) ، وقيل إنه تعلم اللغة الفارسية والرومية والحبشية أيضا (٦) ، وكان خلفاء المسلمين وولاتهم يستعينون في أعمال الترجمة والكتابة والخراج والحساب فيها بالرومية أو الفارسية ، فروي أن عمر بن الخطاب " قال لأبي موسى الأشعري : ادع لنا كاتبك يقرأ لي صحفا" جاءت من الشام ، فقال : إنه لايدخل المسجد لأنه نصراني ، فقال : قاتلك الله ، ألا اتخذت رجلا حنيفيا ، فقال : له دينه ولي كتابته " (٧) وكان عمر يفضل المسلمين في مثل هذه الأعمال فروي أنه " ذكر له غلام كاتب حافظ من أهل الحيرة وكان نصرانيا ، فقيل له : لو اتخذته كاتبا، فقال : لقد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين " (٨) .

(١) السيرة النبوية ٢٣٨/١ وانظر ١٥٧ و ١٩١ و٢٢٣ .
(٢) الأغاني ١٢٠/٣ .
(٣) مصادر الشعر الجاهلي ٦١ وبر كلمان ٩٠/٤
(٤) السيرة النبوية ٤٢٧/١ . وانظر مصادر الشعر الجاهلي ٦٣ .
(٥) الترمذي ١٨٢/١٠ وسنن أبي داود ٢٨٦/٢ .
(٦) العقد الفريد ١٦١/٤ .
(٧) عيون االأخبار ٤٣/١ .
(٨) ن . م ص .

وأخذ العرب يتعلمون بعض اللغات الأجنبية من أهل البلاد التي كانوا يفتحونها وبدأت الفارسية تأخذ طريقها إلى ألسنة بعضهم ، فكانوا يستعينون بها لإخفاء مايريدون إخفاءه عن مستمعيهم ، فقال عمر بن الخطاب في ذلك : " ما تكلم أحد بالفارسية إلا خب ، ولاخب إلا ذهبت مروء ته " (١) وتعلم بعضهم الرومية فكانوا تراجمة الخلفاء ورسلهم إلى ملوك الروم بعد أن كثرت المكاتبات بينهم وبين العرب من زمن معاوية بن أبي سفيان (-٦٠ هـ) الذي كان يكاتب ملوكهم وبطارقتهم ويتبادل معهم الرسل والوفود والهدايا (٢) ، وكان الشعبي (-١٠٣ هـ) رسول عبد الملك بن مروان إليهم (٣) ، وروى المبرد " أن عمر بن عبد العزيز وجه عبد الله بن عبد الأعلى ومعه رجل من عنس إلى أليون ... يدعوه إلى الإسلام ... فتكلم عبد الله ... وقال له أليون بالرومية ... قال العنسي : وأنا أفهم بالرومية ... ثم كتب جواب كتبنا ، فرجعنا إلى عمر بها ، وخبرناه بما أردنا ثم نهضنا " (٤) . كما تعلم أكثر أبناء البلاد التي فتحها العرب اللغة العربية ، وأخذوا يعملون في الدواوين كتاباً ومترجمين ، ولم تكن الترجمة تتعدى حدود المكاتبات والوفود وأعمال الدواوين ، ونقل بعض المعارف والمعلومات الثقافية ، دون أن يكون هنالك اهتمام بترجمة بعض الكتب العلمية أو الأدبية إلى العربية ، إذ لم تكن حركة الترجمة العلمية المنظمة قد بدأت بعد .

وقد بدأت هذه الحركة بترجمة سجلات الدواوين والحسابات والخراج إلى العربية في أوائل عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ) كما مر بنا من قبل ، ثم أخذ العرب يتطلعون إلى ما عند الأمم من معارف وعلوم ، وكانت دولتهم تضم شعوباً متباينة الأجناس واللغات والثقافات ، فوجدوا في ذلك عوناً على إشباع رغباتهم العلمية ، فعملوا على نقل تراث هذه الشعوب إلى لغتهم ، وكان الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (- ٨٥ هـ) رائد هذا الاتجاه ، إذ كان يشتغل

(١) البصائر والذخائر ٦٩٣/٢ . وخب : خدع وغش .
(٢) الكامل للمبرد ١١٣/٢-١١٥ .
(٣) ن . م ١١٣/٢ والشعبي عامر بن شراحيل راوية من التابعين يضرب به المثل في الذكاء والحفظ ، وكان من جملة أصحاب عبد الملك بن مروان وندمائه . ولد ونشأ ومات بالكوفة (١٩ - ١٠٣ هـ) .
(٤) الكامل ١١١/٢-١١٢ .

بصنعة الكيمياء والطب والنجوم وكان يسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلا في نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم ... فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي ، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة " (١) فنقل له اصطفن بن باسيل الإسكندري كتب الصنعة وغيرها (٢) ، كما نقل له يحيى النحوي الفيلسوف الديلمي المعروف بالبطريق شيئاً من العلوم الطبية (٣) .

وأمر عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) ماسرجيس الطبيب البصري بنقل كتاب أهرن القس في الطب من السريانية إلى العربية (٤) ، ونقل سالم الكاتب (نحو ١٢٦ هـ) مولى هشام شيئا " من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر ، أو نقل له وأصلح هو " (٥) وفي أواخر العصر الأموي ومطلع العباسي " نقل ابن المقفع (١٤٢هـ) عدة كتب من كتب الفرس منها : كتاب خداي نامه في السيرة وآيين نامه في الآيين ، وكليلة ودمنة ، وكتاب مزدك والتاج في سيرة أنو شروان ، والآداب الكبير الذي يعرف بما قراجسنس " (٦) وشارك في نقل بعض كتب المنطق والطب إلى العربية (٧) ، واختصر كتاب المقولات وكتاب العبارة لأرسطو أيضا (٨) .

---

(١) الفهرست ٣٠٣ وانظر ٤١٩ وفيها أنه " أول من ترجم له الطب واالنجوم وكتب الكيمياء وكذلك في الأوائل للعسكري ١٤٥/٢ وبروكلمان ٢٦٢/١ .
(٢) الفهرست ٣٠٤ .
(٣) تاريخ حكماء الاسلام ٤٠ وهو غير يحيى النحوي اليعقوبي الإسكندراني الذي اجتمع بعمرو بن العاص، الفهرست ٣١٤ - ٣١٥ وغير يحيى بن البطريق أبو زكريا المترجم (نحو ٢٠٠ هـ) الفهرست ٣٠٤ ويروكلمان ٩٤/٤ .
(٤) تاريخ الحكماء ٣٢٤-٣٢٥ وأهرن القس طبيب سرياني عاش إلى صدر الدولة العباسية ، وعمل كتابه بالسريانيه في ثلاثين مقالة ، ونقله ماسر جيس إلى العربية وزاد فيه مقالتين . الفهرست ٣٥٥ وعيون الأنباء ٢٣٢ .
(٥) الفهرست ١٦١ .
(٦) ن . م ١٣٢ وفي البصائر والذخائر ١٠٤/١/١ أن : " الآيين : لفظ فارسي يراد به السير والصورة والرسم والزي .
(٧) الفهرست ٣٠٣
(٨) ن . م ٣٠١ .

وعني العباسيون منذ مطلع دولتهم بالترجمة عناية كبيرة ، وكانت لذلك أسباب كثيرة منها : اتساع رقعة الدولة وتنوع شعوبها ولغاتها وثقافاتها ، وتنافس هذه الشعوب في مضمار الحضارة والثقافة ، ورقي الحركة العلمية والأدبية ، وتشجيع الخلفاء والوزراء والأعيان ، فترجمت للمنصور (١٣٦-١٥٨ هـ) كتب كثيرة في الفلك والهندسة والطب والفلسفة والأدب ، وكان من كبار المترجمين في زمنه ابن المقفع (-١٤٢ هـ) (١) وابن بختيشوع (بعد١٥١هـ) (٢) والبطريق (-١٨٠هـ) (٣) ، ونشطت حركة الترجمة نشاطا" واسعا" في عهد الرشيد (٧٠-١٩٣هـ) ووزرائه البرامكة ، فأنشأ مكتبة دار الحكمة في قصره ، وجعل على رأس قسم الترجمة فيها الفضل بن نويخت (٤) وسهل بن هارون (-٢١٥ هـ) (٥) الذي جعله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) قيما" على هذه الدار بعد أن قام بتوسيعها وترتيب عدد كبير من المترجمين فيها ، فنقلوا من اليونانية والسريانية والفارسية والرومية والهندية والقبطية إلى العربية طائفة كبيرة جدا" من الكتب التي كان يجلب كثيرا" منها من بلاد مختلفة ، ويبذل فيها أموالا" طائلة .

وسلك سبيله في ذلك كثير من رجال دولته وأعيانها ، فذكر ابن النديم أن " المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ... فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلده ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم :الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما" صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا واختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن أنفذ إلى بلاد الروم ... وممن عني بإخراج الكتب من بلد الروم فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الهندسة

---

(١) ن . م ١٣٢ و ٣٠٣ و ٣٠٥ و ٣٠٩

(٢) ن . م ٣٥٤ وعيون الأنباء ٨٣ و ٢٧٩ وبروكلمان ٢٦١/٤ . وهو جورجيس بن جبرائيل بن يختيشوع وكان رئيس الأطباء في جند يسابور واستدعاه المنصور إلى بغداد ١٤٨ هـ .

(٣) ن . م ٣٠٤ وانظر بروكلمان ٩١/٤ وقال " وفي بلاط المنصور عمل طبيب من جند يسابور يقال إنه ترجم مصنفات إلى العربية " ولم يسمه . وهو والد يحيى بن البطريق (نحو ٢٠٠ هـ) الذي كان من كبار المترجمين في زمن المأمون . الفهرست ٣٠٤ وبروكلمان ٩٤/٤ . وهما غير يحيى البطريق الذي أخذ منه خالد بن يزيد الطب وترجم له بعض كتبه . تاريخ حكماء الإسلام ٤٠ .

(٤) الفهرست ٣٣٣ وكشف الظنون ١٥٠٨/٢ وبروكلمان ٢٠٠/٤ .

(٥) الفهرست ١٣٣-١٣٤ .

والفلسفة والموسيقى والطب . وكان قسطا بن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئا فنقله ونقل له ... وكان بنو المنجم يرزقون جماعة من النقلة منهم : حنين بن إسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة " (١). فبلغت الترجمة في هذا العهد أبعد غاياتها ، واستمرت بعد ذلك تياراً قوياً وسيلاً جارفاً تجري فيه أصناف المعارف العلمية والفلسفية والأدبية التي أفاد منها الفكر العربي فوائد جليلة ، وكان لها في الأدب والنقد بعض الآثار (٢) .

وقد تسربت إلى الأدب العربي بعض هذه المؤثرات الثقافية ، وكانت آثارها في النثر أظهر من الشعر ، إذ كان كثير من كتاب الدواوين من أصول أعجمية ، فأخذوا يفيدون من خبرات أسلافهم في ميدان الكتابة خاصة ، وعملوا على ترجمة بعض مأثوراتهم الأدبية إلى العربية وشاركهم العرب في ذلك وشجعوا عليه ، وكان

---

(١) الفهرست ٣٠٤ والحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب الوراق من أدباء التراجمة في صدر العصر العباسي وله ترجمات لبعض كتب بطليموس وإقليدس ٣٠٤ و ٣١٢ و ٣٢٥ و ٣٢٧ وبروكلمان ٩٣/٤ . ويحيى بن البطريق : أبو زكريا من تراجمة دار الحكمة ، ويعد في جملة الحسن بن سهل وزير المأمون، ونقل بعض كتب أفلاطون وأرسطو (-نحو ٢٠٠ هـ) الفهرست ٣٠٤ و ٣٠٧ و ٣١٢ و ٣٤٩ وبروكلمان ٩٤/٤ . وسلم : صاحب بيت الحكمة للمأمون ، وله نقول من الفارسي إلى العربي . الفهرست ١٣٤ وانظر ٣٢٧ . وأبناء موسى بن شاكر بن المنجم أحمد والحسن ومحمد (-٢٥٩هـ) : من العلماء المؤلفين في الفلك والرياضيات والهندسة وكان أبوهم من الفلكيين عند المأمون . الفهرست ٢٠٤ و ٣٣٠ وبروكلمان ١٦٦/٤ ويوحنا بن ماسويه : من كبار الأطباء في العصر العباسي ، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، وألف كتبا طبية كثيرة (-٢٤٣ هـ) . الفهرست ٣٥٤ وبروكلمان ٢٦٩/٤ . وكان حنين بن إسحق العبادي : من أكبر تلامذته وأشهرهم وأكثرهم تأليفا وترجمة من اليونانية والسريانية إلى العربية (١٩٤-٢٦٠ هـ) الفهرست ٣٥٢ وتاريخ حكماء الإسلام ١٦ وبروكلمان ١٠٣/٤. وحبيش بن الحسن الأعسم الدمشقي : ابن أخت حنين وتلميذه في الطب والترجمة والتأليف (نحو ٣٠٠ هـ) الفهرست ٣٥٥ وتاريخ حكماء الإسلام ١٩ وبروكلمان ١١٧/٤ . وقسطا بن لوقا البعلبكي وانتقل إلى بغداد فخدم المستعين ، وانتقل إلى أرمينية وبها توفي ، وكان بارعا في الطب والهندسة والفلسفة والموسيقى ، وله فيها ترجمات وتآليف (٢٠٥ – نحو ٣٠٠ هـ) الفهرست ٣٥٣ وبروكلمان ٩٧ . وثابت بن قرة أبو الحسن الحراني الصابي : عالم بالرياضيات والفلسفة والفلك ، وله فيها عدة تآليف وكتب مترجمة (٢٢١-٢٨٨ هـ) الفهرست ٣٣١ وتاريخ حكماء الإسلام ٢٠ وبروكلمان ١٧٩/٤ وانظر فيما كان يصل إلى النقلة من أموال الوزراء والأعيان : عيون الأنباء ٢٨٣ - ٢٧٤ .

(٢) وانظر في أصول فن الترجمة عند العرب بحثنا " فن الترجمة في النقد العربي " – مجلة " علامات في النقد " – النادي الأدبي بجده – المجلد الخامس – العدد العاشر – سنة ١٩٩٥ ص ١٩٧ – ٢٢٥ .

لذلك بعض الآثار في الكتابة العربية ونقدها ، ويمكن حصر هذه الآثار في ثلاثة جوانب رئيسية وهي : الآثار الفارسية والهندية واليونانية التي يمكن أن نتناول كل جانب منها على حدة ، على الرغم من تواشجها وتلاحمها ، وعدم إمكان الفصل بين آثارها في الأدب وغيره إلا من الناحية الشكلية .

الثقافة الفارسية وأثرها في الكتابة العربية :

كان الفرس قبل الإسلام أصحاب حضارة عريقة ، وأهل تراث علمي وأدبي واسع ، كما كانوا من أوثق الشعوب صلة بالعرب قبل الإسلام ، فدخل جمهورهم في الإسلام ، وامتزجوا بالعرب امتزاجا" قويا" ، وكانت لهم مشاركة واسعة في الحياة السياسية والفكرية والأدبية في العصر العباسي خاصة ، فاقتبس العرب منهم بعض أساليب العيش ، وطرق الحكم والإدارة ، وترجموا عن الفارسية عددا" كبيرا" من الكتب ، وشجع وزراء الفرس وكتابهم وعلى رأسهم البرامكة على ذلك ، وكان للتنافس الثقافي بينهم وبين العرب وغيرهم من الشعوب الإسلامية أثر كبير في نقل هذه الكتب وترجمتها ، ولعل أهم ما يتصل منها بهذا البحث تلك الكتب التي اشتملت على بعض ما يتصل بالكتابة والكتاب او النقد والبلاغة من نصائح وآراء وآداب ، وكان لها في كتب الأدباء العرب والنقاد بعض الأصداء .

ومن أهم هذه الكتب الفارسية المترجمة إلى العربية : كتاب خداي نامه في سير ملوك الفرس (١) ، وكتاب آيين نامه (٢)، وكتاب التاج في سيرة أنو شروان(٣)،

١-٣ الفهرست ١٣٢ وانظر ٣٦٤ وهي من الكتب التي نقلها ابن المقفع إلى العربية : وذكر بروكلمان ١٠٢/٣ أن " محمد بن الجهم البرمكي وزادويه بن شاهويه الأصفهاني من معاصري ابن المقفع قد ترجما أيضا كتاب خداي نامة إلى العربية ، وترجم الكتاب نفسه أيضا ، ولكن بشيء من التصرف القاسم الأصفهاني ".وفي الحاشية إحالة على فهرست ابن النديم في ذلك ولم نجد في هذا الموضع أو غيره من الفهرست شيئا من ذلك ، بيد أنه قال في " أسماء النقلة من الفارسي إلى العربي : ابن المقفع ... وإسحق بن يزيد نقل من الفارس إلى العربي ومما نقل : كتاب سيرة الفرس المعروف بحداد نامة. ومن نقلة الفرس : محمد بن الجهم وهشام بن القاسم وزادويه بن شاهوية ومحمد بن بهرام الأصفهاني " الفهرست ٣٠٥ .

وكتاب عهد أرد شير إلى ابنه سابور (١) ، وعهد كسرى إلى ابنه هرمز وجواب هرمز عليه ، (٢) وعهد كسرى إلى من أدرك التعليم من بنيه (٣) ، وعهد كسرى أنوشروان إلى ابنه الذي يسمى عش البلاغة (٤) ، وكتاب موبذان موبذ في الحكم والجوامع والآداب (٥) ، وكتاب أمثال بزرجهر (٦) ، وكتاب كاروند في صناعة البلاغة (٧) ، وغيرها من الكتب التي لها في فن الكتابة ونقدها بعض الآثار .

وأول أثر يمكن أن نتلمس فيه بعض هذه المؤثرات هو رسالة عبد الحميد بن يحيى (-١٣٢هـ) إلى الكتاب (٨) ، لصلتها من بعض وجوهها بنقد الكتابة إذ ضمنها جملة من النصائح والوصايا التي تتعلق بصنعة الكتابة وأدواتها ، وصفات أربابها وشمائلهم وثقافتهم ، وعلاقتهم بزملائهم ورؤسائهم ومرؤوسيهم ومن يلابسهم من العامة أو الخاصة ، وحثهم فيها على التنافس في اكتساب صنوف العلم والأدب والمعرفة ، ورواية أخبار العرب والعجم وسيرها ، لما في ذلك من عون لهم في الكتابة وتدبير أمور الحكم والسياسة فقال : " وتنافسوا - معشر الكتاب - في صنوف العلم والآداب ، وتفقهوا في الدين ... ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ... وأيام العرب والعجم وأحاديثهم وسيرهم فإن ذلك معين على ماتسعون إليه بهممكم ... وارغبوا بأنفسكم عن المطمع... ونزهوا صناعتكم عن الدناءة ... وتحابوا في الله ... وليكن الرجل منكم على من اصطنعه ... أحفظ منه على ولده وأخيه " (٩) .

وقد أطال في سرد هذه النصائح التي استمدها من خبرته الواسعة بصنعة الكتابة ، وملابسته لرجالها ، وتجارب أعيانها ، وغير ذلك مما يدور بين الكتاب من آراء أسلافهم ، ووصايا خلفائهم وأمرائهم التي تحفل كتب الأدب والأخبار بكثير

---

(١) الفهرست ٣٧٧-٣٧٨ مع " الكتب المؤلفة في المواعظ والآداب للفرس . وفي ١٢٦ ومعجم الأدباء ١٠٠/٥ أن أبا جعفر أحمد بن يحيى البلاذري البغدادي الشاعر (٢٧٩ هـ) نقله إلى الشعر ، وكان أحد النقلة من الفارسي إلى العربي .
(٢-٥) الفهرست ٣٧٧-٢٧٨ مع " الكتب المؤلفة في المواعظ والآداب للفرس .
(٦-٧) رسائل الجاحظ ١٩١/٢ وانظر البيان والتبين ١٤/٣ .
(٨) انظر نص هذه الرسالة في الوزراء والكتاب ٤٧-٥١ ومقدمة ابن خلدون ٤٣٩-٤٤٤ وصبح الأعشى ٨٥/١-٧٩ ورسائل البلغاء (عن مخطوط المنظوم والمنثور لابن طيفور) ١٧٠-١٧٥ .
(٩) رسائل البلغاء ٢٢٥ .

منها (١) ، وضمن ذلك كله هذه الرسالة ، وأضفي عليها من بلاغته وروعة بيانه آثاراً كثيرة ، فاصبحت بذلك كله دستورا" للكتاب بعده ، وفتح بها باب التأليف في أدب الكتابة والكتاب على مصراعيه فقال القلقشندي : " إن أصل هذه الآداب الذي ترجع إليه ، وينبوعها الذي تفجرت منه رسالة عبد الحميد " (٢) .

وكان الفرس أصحاب دولة ودواوين فاعتنوا بهذه الآداب والنصائح ، وضمنوها كتبهم وسير ملوكهم وعهودهم التي نقل كثير منها إلى العربية في زمن عبد الحميد ، وكان صاحبه ابن المقفع أحد نقلتها ، وأورد الجهشياري طائفة من هذه الوصايا في صدر كتابه ، ومن ذلك قول بشتاسب لكتابه . الزموا العفاف ، وأدوا الأمانة ... واجمعوا على غرائزكم وعقولكم سماع الأدب ، واستعملوا ما استفدتم من الأدب بما طبعت عليه عقولكم " (٣) . ومما لاشك فيه أن عبد الحميد قد اطلع على بعض هذه الوصايا فكانت له حافزا إلى كتابة هذه الرسالة ، وتضمينها خلاصة آراء العرب وتجاربهم الطويلة في آداب هذه الصناعة وأدواتها ، وقد بالغ بعض الدارسين في قوة المؤثرات الفارسية فيها (٤) ، وإن كنا نعتقد أن هذه المؤثرات إنما تنحصر في تنبيهه على جمع ما تفرق من آراء العرب في آداب الكتابة وتدوينها ، فجاءت رسالته مختلفة عن وصايا الفرس في معظم أفكارها ومعانيها ، وإن كانت متفقة معها في غاياتها ومغازيها .

وقد نبه أبو هلال العسكري (-٣٩٥ هـ) على قوة هذه المؤثرات في منهج عبد الحميد في الكتابة وطريقته في الترسل ، وما خلفه في الكتابة العربية من آثار فقال : " ألا ترى أن عبد الحميد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي " (٥) وذلك يعني أنه قد استخرج قواعد

---

(١) انظر مثلا عيون الأخبار ٤٢/١ والوزراء والكتاب ١٧ وكتاب الصناعتين ٤٦٠ وتجارب الأمم ٣٨٣/١
(٢) صبح الأعشى ٨٥/١ .
(٣) الوزراء والكتاب ٦ .
(٤) انظر مثلا العصر الإسلامي ٤٧٤ وامراء البيان ٨٢ .
(٥) ديوان المعاني ٨٩/٢ وكتاب الصناعتين ٧٥ .

فن الكتابة والترسل من مأثورات الفرس الأدبية والنقدية ، وجرى عليها في رسائله، فكانت مثلاً" يحتذى لدى من أتى بعده من الكتاب والمترسلين ، فذهب بعض معاصري أبي هلال إلى القول:" إن الكتابة بدئت بعبد الحميد وختمت بابن العميد"(١) وفي ذلك كله مبالغة كبيرة ، إذ كانت أصول هذا الفن ورسومه قد بدأت تترسخ عند العرب على أيدي عدد كبير من الكتاب منذ أكثر من قرن قبل عبد الحميد ، ومرت في أثناء ذلك بمراحل طويلة من التطور ، وبلغ هذا التطور ذروة عالية في زمنه ، فأطال الرسائل ، وقسمها إلى فصول ، وأكثر من استعمال التحميدات فيها ، فقال ابن عبد ربه (-٣٢٢هـ) إنه : " أول من فتق أكمام البلاغة ، وسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر "(٢) ، ولزم الكتاب بعده هذه الطريقة في الترسل فقال ابن النديم (نحو ٤٠٠هـ): " وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل ... ولرسائله مجموع نحو ألف ورقة " (٣) .

وكان أبو غالب عبد الحميد بن يحيى من أبرع كتاب الدولة الأموية ، وقد اختلف في أصله ، فنسبه المسعودي إلى قريش صليبة (٤) ، والراجح أنه من مواليهم ، وأنه من أهل الشام ، وتنقل في البلدان معلما" للصبيان ، ثم التحق بديوان الرسائل في دمشق ، وتخرج بالكتابة على ختنه أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وصاحب ديوان رسائله ، واتصل بمروان بن محمد حين كان واليا" على أذربيجان فكتب له ، وأصبح على رأس ديوانه بعد خلافته ، وظل ملازما" له إلى أن قتل معه بعد انتصار الجيوش العباسية عليه سنة (١٣٢ هـ) (٥) .

وقد بلغ بالكتابة والترسل شأوا" بعيدا"، فضربت ببلاغته الأمثال، واستقى هذه البلاغة من ينابيع عربية صافية ، وكان إذا "قيل له : ما مكنك في البلاغة ؟

---

(١) يتيمة الدهر ٣/١٥٤-١٥٥
(٢) العقد الفريد ٤/١٦٥
(٣) الفهرست ١٣١
(٤) التنبيه والإشراف ٢٨٤
(٥) انظر في حياته الفهرست ١٣١ ووفيات الأعيان ٣/٢٢٨ - ٢٣٢ .

قال: حفظ كلام الأصلع . يعني أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب(ر)"(١)، ولعله قد اطلع على بعض آثار الفرس في الترسل والكتابة ، وأفاد منها في تكوينه الثقافي ، شأنه في ذلك شأن سائر الكتاب في عصره ، إذ كان فارسي الأصل على أرجح الأقوال ، وإن كنا لا نملك دليلا" قاطعا" على معرفته بالفارسية سوى قول أبي هلال الذي أشار إلى شيء من ذلك ، واعتمد عليه د. شوقي ضيف فعده أحد النقلة من الفارسية إلى العربية ، ورصد أثرها في رسائله فقال : إنه " تحول بطائفة من رسائله إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة محاكيا" في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي يقال : إنه أحد نقلتها إلى العربية " (٢) . ولم نجد أحدا" من القدماء يذكر له نقلا" من الفارسية أو غيرها إلى العربية .

كما اعتمد د . طه حسين على بعض ما يتجلى فيما وصل إلينا من رسائله القليلة من خصائص أسلوبية فرجح أن يكون " على صلة باليونانية لإسرافه في استعمال الحال " (٣) ويبدو أن لصلة ختنه وأستاذه سالم بهذه الثقافة أثرا" في هذا الرأي ، وإن كنا نعتقد أن هذه الصلة إنما تقتصر على اطلاعه على بعض رسائل أرسطاليس ، فذكر ابن النديم أنه " نقل من رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر أو نقل له وأصلح هو " (٤) ، وليس في هذا القول ما يدل على اللغة التي نقلت عنها هذه الرسائل ، أو ما يؤكد معرفة سالم باليونانية ، ولعل بعض المترجمين الذين كانوا ينقلون لخالد بن يزيد بعض الكتب عن هذه اللغة أو غيرهم قد نقل هذه الرسائل إلى العربية وأصلح سالم نقله ، أو أنها من بعض ما سقط إلى الفرس من آثار اليونان فنقلها سالم عن الفارسية ، إذ كان ابنه جبلة بن سالم أحد النقلة المعروفين عن الفارسية ، وله في ذلك آثار مذكورة (٥) ، كما كان صاحبه ابن المقفع من كبار المترجمين عن هذه اللغة إلى العربية أيضا" ، وإلى ذلك ترجع أهميته في تاريخ الثقافة العربية والكتابة .

---

(١) الوزراء والكتاب ٥٤ .
(٢) العصر الاسلامي ٤٧٤ وانظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ١١٦ .
(٣) من حديث الشعر والنثر ٤٢ .
(٤) الفهرست ١٣١ .
(٥) ن . م ٣٠٥ و ٣٦٤ .

وكان ابن المقفع (-١٤٢هـ) معرقا" في الثقافة الفارسية ، وصريح النسب في الفرس ، وكان أبوه من كتاب الخراج في دواوين العراق زمن الأمويين ،فاعتنى بتربية ابنه وتثقيفه ، فكانت بلاغته بالعربية في وزن بلاغته بالفارسية ، فعده ابن النديم واحدا" من البلغاء العشرة(١) وقال إنه "أخذ الفصاحة عن أبي الجاموس ثور ابن يزيد وهو أعرابي كان يفد البصرة على آل سليمان بن علي"(٢) ثم كتب لعدد من الولاة في العراق، وأعلن إسلامه على يد عيسى بن علي عم المنصور، وسمي عبد الله بدلا من روزبة، وتكنى بأبي محمد ، ثم قتله المنصور على الزندقة ، وكان حاقدا"عليه بسبب الأمان الذي كتبه لعمه عبد الله بن علي بعد إخفاق ثورته عليه(٣).

وقد ترجم ابن المقفع عن الفارسية عددا" من الكتب لعل أشهرها كتاب " كليلة ودمنة " وهو هندي الأصل كما هو معروف (٤) ، كما ترجم عنها أيضا" بعض ما سقط إليهامن كتب اليونان في المنطق (٥) وذكر له ابن النديم مختصرا" لكتاب العبارة لأرسطو(٦)، فضلا" عما ترجمه من سير الفرس وعهودهم وآدابهم ولم يصل إلينا من آثاره الكثيرة سوى بعض الكتب والرسائل ككتاب الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة ، وقد عدها ابن النديم في جملة الكتب التي نقلها عن الفارسية ، وذكر أن أولها " يعرف بما قراجسنس "(٧) وتابعه في ذلك بعض المعاصرين فقال د . شوقي ضيف إن" هذه الكتب الثلاثة في رأينا مترجمة على الأقل في أكثرها "(٨) وقد بدا أثر الترجمة ظاهرا" في هذه الكتب التي اختلط فيها كلامه بترجمته فبدا التفاوت واضحا" في أساليبها كما لاحظ ذلك د .طه حسين فقال: إن "كتابته فيها شيء من الالتواء...فنحس أنه يجد مشقة في التعبيرعن المعاني"(٩).

---

(١) ن . م ١٤٠
(٢) ن . م ٥٠
(٣) ن . م ١٣٢
(٤) انظر الفهرست ١٣٢ وأخبار الشعراء المحدثين ٤٦ والأغاني ١٥٥/٢٣
(٥) الفهرست ٣٠٣
(٦) ن . م ٣٠٩
(٧) ن . م ١٣٢
(٨) الفن ومذاهبه في النثر العربي ١٣٩ وانظر العصر العباسي الأول ٥١١
(٩) من حديث الشعر والنثر ٣٢

وذلك مرتبط – في نظرنا – بأثر الترجمة في كتابته ، وإن كان فيما عدا المترجم منها في الذروة من البلاغة .

ولم تكن لابن المقفع مشاركة فعلية في النقد الأدبي ، وإن رويت عنه بعض الأقوال أو الآراء التي أتينا على ذكر كثير منها في أثناء هذا البحث ، ومعظمها يدور في فلك آراء العرب الانطباعية الوجيزة في البلاغة والبيان والإيجاز والإطناب والدعوة إلى السهولة والوضوح وتجنب الوحشي والغريب والتعقيد وغير ذلك من آرائه النقدية التي تتردد في كتب الأدب أو النقد ، ولم نجد في أكثرها ما يخرج على آراء أسلافه ومعاصريه ومن ذلك قوله :"إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعا" في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر"(١) أو قوله :"الإيجاز هو البلاغة"(٢).

وقد نلمس في بعض هذه الآراء أثر الثقافة الأجنبية التي تسربت إليه من الكتب التي كان يترجمها، ومن ذلك قوله في الأدب الصغير :"ومتى خرج الناس من أن يكون لهم عمل ، وأن يقولوا قولا" بديعا"، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم ليس زائدا" على أن يكون لهم عمل ، كصاحب فصوص وجد ياقوتا" وزبرجدا" ومرجانا" ، ونظمه قلائد وسموطا" واكاليل ، ووضع كل فص موضعه ، وجمع إلى كل لون شبهه ، ما يزيده بذلك حسنا" ، فسمي بذلك صائغا" رفيقا" ، كصاغة الذهب والفضة صنعوا كل ما يعجب الناس " (٣) ويعد هذا النص من أقدم ما وقفنا عليه من النصوص النقدية بالعربية التي تتصل بنظم الكلام وتأليفه ، وتشبيه صنعة الأدب بالصياغة ، وتأكيد قيمة الصنعة الفنية والبلاغية فيه ، وأثرها في التحول بالمعاني والأفكار من مستوى الكلام العادي إلى مستوى الأدب والفن ، ويبدو أن الجاحظ قد وقف على هذا القول ، ونظر فيه ، وأفاد منه في قوله المعروف : " والمعاني مطروحة في الطريق ... وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر

---

(١) البصائر والذخائر ٢٦٣٢/٢ وانظر ٢٤١/٣ .
(٢) البيان والتبين ١١٦/١
(٣) الأدب الصغير ٣٢-٣٣ .

صياغة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير "(1) وتأثربه من أتى بعده من النقاد الذين تحدثوا عن علاقة اللفظ بالمعنى ، ونظرية النظم ، وتوسعوا فيه(2) .

كما بدا أثر الروح المنطقية واضحا" في بعض آرائه النقدية التي جنح فيها إلى التقسيم والتشعيب والتفريع ، ولاحظ ذلك بعض معاصريه فقال الخريمي : " لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط : سئل : ما البلاغة ؟ فقال : البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة : فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون جوابا" ، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة "(3) ولم يكن هذا النوع من النظر النقدي ، والتقسم المنطقي معهودا" في آراء أسلافه ومعاصريه في البلاغة ، ويبدو أنه قد تأثر فيه بمنهج أرسطو في تقسيم الكلام في كتاب العبارة الذي اختصره ، أو بما كان يترجم من كتب اليونان في المنطق ، فبدا الأثر اليوناني في آرائه النقدية والبلاغية أوضح من الأثر الفارسي الذي اقتصر لديه على النقل والترجمة واقتباس بعض الحكم والمواعظ والآداب التي ضمنها بعض ما وصل إلينا من آثاره ، ونقلها عنه بعض المؤلفين(4) .

وقد نقل بعض هؤلاء المؤلفين والنقاد بعض آراء الفرس في البلاغة والبيان والكتابة وضمنوها كتبهم التي تتناول بعض هذه الجوانب ، وأشاروا في أثنائها إلى قيمة هذه الآراء وأهميتها في معرفة أصول صنعة البلاغة والكتابة ، وحثوا المتأدبين والكتاب على قراءتها والإفادة منها، ومن ذلك قول الجاحظ :"ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة أو يعرف الغريب ، ويتبحر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند. ومن احتاج إلى العقل والأدب ، والعلم بالمراتب والعبر والمثلات والألفاظ الكريمة ،

---

(1) الحيوان ٣/١٣١-١٣٢ .

(2) انظر مثلا : عيار الشعر ٦ و ٣٢ والموازنة ١٧٣ والصناعتين ٥٨ ودلائل الإعجاز ٩٧ و ١١٨ و ١٢٣ و ٢٥٥ .

(3) البيان والتبين ١/١١٥-١١٦ .

(4) انظر مثلا عيون الأخبار ١/٨ و ٢٠ و ٢٢ و ١١٦ و ٢٠١ و ٢٧٦ و ٢٨٩ و ٣٣٩ و ٢/٩ و ٢٦ و ١٢١ ٣/١٥ و ٩١ و ٤/٧ و ٧٨ .

والمعاني الشريفة ، فلينظر في سير الملوك "(١) . وكان الناشئة من الكتاب في العصر العباسي حريصين على تحصيل ألوان الثقافة الفارسية ، وما يتصل منها بصنعة الكتابة وثقافتها وآدابها خاصة ، فذكر الجاحظ أن " الناشيء فيهم إذا روى لبزرجمر أمثاله ، ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، وصير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة كنز حكمته ظن أنه الفاروق الأكبر".(٢)

وكان للفرس أثر كبير في نشر لغتهم وثقافتهم في أوساط الأدباء والمثقفين الذي كانوا يبدون إعجابهم بما في كتبهم من معاني الحكمة والبلاغة فروى ابن أبي طاهرعن بعض الكتاب قوله : " كنت بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة ، إذ دعوت بغلام وكلمته بالفارسية ، فدخل العتابي ، فتكلم معي بالفارسية، فقلت له : مالك وهذه الرطانة ؟ قال : كتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو ... فقلت له : ولم كتبت كتب العجم فقال لي : وهل المعاني إلا في كتب العجم والبلاغة، اللغة لنا والمعاني لهم .وكان يذاكرني ويحدثني بالفارسية كثيرا"(٣).

وقد أكثر ابن قتيبة من رواية آراء الفرس في البلاغة والبيان ، ومعظمها مما يتصل بصنعة الكتابة وأصولها وآدابها ، ونقل أكثرها من سير ملوكهم وعهودهم ومن ذلك قوله :"قرأت في بعض كتب العجم أن موبذان وصف الكتاب فقال:"كتاب الملوك عينهم المصونة عندهم ، وآذانهم الواعية، وألسنتهم الشاهدة، لأنه ليس أحد أعظم سعادة من وزراء الملوك إذا سعدت الملوك ، ولا أقرب هلكة من وزراء الملوك اذا هلكت الملوك "(٤).ومن النصائح التي ذكرها ووجدنا لها بعض الأصداء المماثلة في رسالة عبد الحميد إلى الكتاب وما ألف بعدها في آداب الكتابة من الكتب قوله :"وقرأت في التاج أن أبرويزقال لكاتبه:"اكتم السروا صدق الحديث ،

(١) البيان والتبين ٣/١٤ والمثلاث ج مثلة : العقوبة والتنكيل .
(٢) رسائل الجاحظ ٢/١٩١ - ١٩٢ .
(٣) كتاب بغداد ٨٧ .
(٤) عيون الأخبار ١/٤٧ واستنتج من ذلك صاحب كنوز الأجداد ٥٧ أنه كان يعرف الفارسية . وليس في ذلك دليل على معرفته بها .

واجتهد في النصيحة ، واحترس بالحذر ... واعلم أنك بمنجاة رفعة فلا تحطـنها ، وفي ظل مملكة فلا تستزيلنه ، وقارب الناس مجاملة عن نفسك ، وباعد الناس مشايحة عن عدوك ، واقصد إلى الجميل ادراعا" لغدك ، وتحصن بالعفاف صونا" لمروء تك ... وإذ كتبت فلا تعذر ، ولاتستعينن بالفضول فإنها علاوة على الكفاية ، ولاتقصرن عن التحقيق فإنه هجنة بالمقالة ، ولاتلبسن كلاما" بكلام ، ولاتباعدن معنى عن معنى ... واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول وليكن بسطة كلامك على السوقة كبسطة ملك الملوك على الملوك ... واعلم أن جماع الكلام كله خصال أربع: سؤالك الشيء ، وسؤالك عن الشيء ، وأمرك بالشيء ، وخبرك عن الشيء ، فهذه الخلال دعائم المقالات ، إن التمس لها خامس لم يوجد ، وإن نقص منها رابع لم تتم"(١) .

وقد وقف ابن قتيبة عند بعض هذه الآراء فناقشها في هدي القرآن الكريم وأساليبه ، وحاجة بعض المقامات إلى الإطناب والتطويل للوفاء بحقوقها فقال : " قال أبرويز : واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول ... وهذا ليس بمحمود في كل موضع ، ولا بمختار في كل كتاب ، بل لكل مقام مقال . ولو كان الإيجاز محمودا" في كل الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن ، ولم يفعل ذلك ، ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للإيجاز ، وكرر تارة للإفهام ... وليس بمحمود لمن قام مقاما" في تحضيض على حرب ... أو صلح أن يقلل الكلام ويختصره ، ولا لمن كتب إلى عامة كتابا" ... أن يوجز"(٢) وإلى ذلك ذهب جعفر بن يحيى البرمكي في قوله لبعض كتابه : " إذا كان الإيجاز كافيا" كان التطويل عيا" ، وإذا كان التطويل واجبا" كان التقصير عجزا" "(٣) ، وإن كان العرب يميلون إلى الإيجاز في معظم أحوال الكلام والخطابة منه خاصة، فارتبط مفهوم البلاغة عندهم لذلك بالإيجاز ، وعبر عن هذا المفهوم الرشيد بقوله : " البلاغة هي التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة باللفظ القليل على المعنى الكثير"(٤) .

---

(١) عيون الأخبار ٤٥/١-٤٦ وانظر ديوان المعاني ٩١/٢ .
(٢) أدب الكاتب ١٥-١٦ .
(٣) قانون البلاغة - المخطوط ٦٥/أ
(٤) ن . م ٨٣/ب وانظر صناعة الكتاب ٢٠٣

وواضح أن بعض الآراء والمفاهيم التي وردت في كلام أبرويز مما يمكن أن يشترك فيه ويتقاسمه معظم أرباب البلاغة والبيان في كل زمان ومكان ، ولذلك وجدنا كثيرا" منها يتردد على ألسنة العرب في الجاهلية والإسلام ، كما مر بنا في أثناء الحديث عن أصول الكتابة وقواعدها وأساليبها من قبل ، إلا اننا مع ذلك يمكن أن نرصد أثر تقسيماته الرباعية لأنواع الكلام في الآثار النقدية في القرن الثالث ككتاب قواعد الشعر لثعلب (-٢٩١ هـ) الذي بدا فيه أثر هذه التقسيمات المنطقية واضحا" إذ قسم الشعر إلى : أمر ونهي وخبر واستخبار ، ثم عاد إلى تقسيم فنونه إلى مدح ورثاء واعتذار وهجاء ، وأردف ذلك حديثا" وجيزا" عن بعض الجوانب البلاغية في الشعر(١) ، فجمع بذلك بين المنهج المنطقي الذي نرجح أنه استمده من بعض المؤثرات الثقافية الوافدة في عصره والقسمة العربية المعروفة لضروب الشعر، وإن كان هنالك من يشك في صحة نسبة هذا الكتاب إليه(٢) .

ويبدو أن هذا التقسيم المنطقي لأنواع الكلام لم يكن غريبا" على الفرس ، ولعلهم قد تأثروا فيه بما سقط إليهم من آثار اليونان في المنطق والفلسفة ، إذ وجدنا بزرجمر الحكيم يعتمد عليه في تقسيم القول بحسب فضائله خمسة أقسام متعاضدة في النثر ، ووجد فيها الآمدي بعض ما يمكن أن ينطبق على الشعر فقال : " وقدذكر بزرجمر فضائل الكلام ورذائله ، وبعض ذلك داخل في الشعر ، فقال : إن فضائل الكلام خمس إن نقضت منها فضيلة واحدة سقط سائرها وهي : أن يكون الكلام صدقا" ، وأن يقع موقع الانتفاع به ، وأن يتكلم به في حينه ، وأن يحسن تأليفه ، وأن يستعمل منه مقدار الحاجة . قال : ورذائله بالضد من ذلك ... وهذا إنما أراد به بزرجمر الكلام المنثور الذي يخاطب به الملوك ويقدمه المتكلم أمام حاجته ، والشاعر لايطالب بأن يكون قوله صدقا" ، ولا أن يوقعه موقع الانتفاع به ، لأنه قد يقصد إلى أن يوقعه موقع الضرر ، ولا أن يجعل له وقتا" دون وقت وبقيت الخلتان الأخريان وهما واجبتان في شعر كل شاعر ، وذلك ان يحسن تأليفه ، ولايزيد فيه شيئا" على قدر حاجته "(٣) .

---

(١) قواعد الشعر ١٠-٣٧
(٢) تاريخ النقد الأدبي لإحسان عباس ٨٣
(٣) الموازنة ١/٤٢٧-٤٢٨

وقد اشتملت كتب الأدب والنقد على كثير من هذه الآراء التي نقلها المؤلفون من كتب الفرس وسيرهم وعهودهم ورسائلهم ، وأبدى الجاحظ شكه في صحة هذه الكتب أو صحة كثير منها ، ولم يستبعد أن يكون بعض المؤلفين من الفرس قد عمد إلى وضعها ونسبتها إلى قدمائهم ، وعزا ذلك إلى الصراع الشعوبي والتنافس الثقافي بينهم وبين العرب وأشار إلى عدم وجود أصول هذه الكتب فقال : " ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة غير مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير"(١).

بيد أننا مع ذلك نعتقد أن رقي الحضارة الفارسية قبل الإسلام ، وتطور أنظمة الحكم والإدارة فيها إنما يدل على ازدهار الكتابة والترسل وتقدمها ، ويدعو إلى الاهتمام بها ، والعناية بثقافة أربابها ، وتقديم النصح والإرشاد لهم ، فكثرت لذلك آراء نقادهم وحكمائهم ورؤسائهم في البلاغة والبيان وآداب الكتابة وأصولها وأساليبها ، ولاشك أن كثيرا" منها قد تسرب إلى الكتاب والنقاد والمؤلفين في العصر العباسي خاصة ، عن طريق النقل والترجمة والاختلاط والامتزاج الثقافي وغير ذلك من طرق التأثر والتأثير ومساربها الكثيرة ، فكان لذلك أثره في تطور الكتابة العربية خاصة ، ورفد الحركة النقدية التي تدور حولها ببعض ما يتصل بآدابها وثقافتها وأساليبها من آراء نقدية ، وإن كنا لانستطيع أن نرصد بدقة أثر هذه الآراء في النقد العربي، لضياع أكثر الكتب المترجمة التي اشتملت عليها، وفقدان أصولها.

الصحيفة الهندية وأثرها في النقد العربي :

ليس بين أيدينا ما يدل على اهتمام العرب بترجمة بعض الآثار النقدية الهندية مع ما ترجموه من كتب الهند وآثارهم في الطب والحكمة والتنجيم والقصص والخرافات والأسمار وغير ذلك من الكتب التي نقلوا بعضها عن الفارسية ككتاب كليلة ودمنة وكتاب سندباد وكتاب بوداسف وبلوهر وغيرها من القصص التي كان

(١) البيان والتبين ٢٩/٣

لها أثر كبير في تطور القصة العربية ، ثم قام بعض الهنود الذين اجتلبهم يحيى بن خالد البرمكي ينقل بعض الكتب الطبية أو العلمية إلى العربية ، ونقلوا معها كتبا" أخرى في الحكم والمواعظ والآداب والأسمار وغيرها من الكتب التي سرد ابن النديم أسماء عدد كبير منها (١) ، وكان لها أثر ظاهر في الثقافة العربية ، فأكثر المؤلفون من الاقتباس مما فيها من الحكم والأمثال خاصة (٢) .

واشتملت بعض كتب هؤلاء المؤلفين على بعض الآراء الهندية في البلاغة والبيان التي كانوا يتلقفونها من أفواه بعض الهنود ، أو ينقلونها من كتبهم المترجمة، ويوردونها مع غيرها من آراء الأمم الأخرى ، ومن ذلك قول الجاحظ في البيان والتبيين : " قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال :َ معرفة الفصل من الوصل . وقيل لليوناني : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام . وقيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة . وقيل للهندي: ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة . وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ... ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحا" أبلغ في الدرك وأحق بالظفر"(٣) .

ومن الواضح أن مفهوم الهنود للبلاغة إنما يرتبط بالخطابة والجدل والمناظرة برباط وثيق ، وقد تنبه المعتزلة على ذلك ، فأخذوا يبحثون عن المزيد من هذه الآراء ، لحاجتهم إليها في رفد ثقافتهم البلاغية ، وتعزيز قدرتهم على الخطابة والجدل والإقناع ، فكانوا لذلك معلمي خطابة وبلاغة وكتابة ، فقال الجاحظ " إن كبار المتكلمين ، ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من كثير من البلغاء "(٤) ولم يكتفوا في ذلك بآرائهم وملاحظاتهم ، وماورثوه عن أسلافهم من آراء نقدية وبلاغية ، وإنما كانوا يبحثون عما عند الأجانب منها ، فوجدوا في آراء الهنود ما يمكن ان يلبي بعض حاجتهم فيها ، فمضوا يسألون التراجمة عنها حتى وقفوا على صحيفة مطولة تشتمل على بعض هذه الآراء المهمة فيها ، فعملوا على ترجمتها إلى العربية ، وعرفت عندهم بالصحيفة الهندية التي نقلها إلينا الجاحظ وقال:"قال أبوالأشعث معمر بن عباد المعتزلي(-٢١٥هـ): قلت لبهلة الهندي

(١) الفهرست ٣٠٥ ، ٣٣٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٧٧
(٢) انظر مثلا عيون الأخبار ٢٤/١ و ٢٥ و ١٢١/٢ و ٥١/٣ و ١٩١
(٣) البيان والتبيين ٨٨/١ وانظر الرسالة العذراء ٤٤-٤٥

أيام اجتلب يحيى بن جعفر أطباء الهند ... ما البلاغة عند الهند ؟ قال : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها لك ... قال أبو الأشعث : فلقيت بهذه الصحيفة التراجمة فإذا فيها : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأ ش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لايكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولايدقق المعاني كل التدقيق ، ولاينقح الألفاظ كل التنقيح ... ومن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال له وفقا ... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم ، وأن تواتيه آلاته ، وتتصرف معه أدواته"(٢).

وقد كان لهذه الصحيفة أثر ظاهر في آراء بعض الأدباء والنقاد ، والمعتزلة منهم خاصة ، ولعل أوضح أثارها إنما يتجلى في صحيفة بشر بن المعتمر المعتزلي (- ٢١٠ هـ) التي ضمنها جملة من الآراء النقدية المهمة في أصول البلاغة والبيان، وتحدث فيها عن أوقات الإبداع الفني ، ولغة النص الأدبي ، وأهمية الملاءمة بين المقال والمقام ، والمواءمة بين أقدار الكلام وأقدار المستمعين ، وعلاقة اللفظ بالمعنى، وغير ذلك مما اشتملت عليه هذه الصحيفة من الآراء التي يشبه بعضها بعض ما ورد في الصحيفة الهندية من آراء نقدية .

ومن المرجح ان يكون بشر قد اطلع على هذه الصحيفة عن طريق صاحبه المعتزلي أبي الأشعث ، وأفاد منها ، وأضاف إليها ملاحظاته الخاصة ، وآراء أسلافه ، وتوسع فيها ، وحذا حذوها ، فجاءت مشابهة لها في بعض جوانبها ، ومن ذلك قوله : " خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك ... واجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ... وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك . ومن أراغ معنى كريما فليلتمس

---

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩

(٢) ن . م ١/٩٢-٩٣ وأبو الأشعث معمر بن عباد السلمي صاحب فرقة من فرق المعتزلة تنسب إليه (- ٢١٥ هـ) الفهرست ٢٠٧ والملل والنحل ١/٦٥ والكشف والبيان ١٣١ وانظر الصحيفة أو بعضها في الرسالة العذراء ٤٥-٤٦ والصناعتين ٢٥-٢٦ .

له لفظا كريما" ... وكن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا" عذبا" ، وفخما" سهلا " ، ويكون معناك ظاهرا" مكشوفا" ، وقريبا" معروفا" ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ... وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ... وينبغي للمتكلم ان يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما" ، ولكل حالة من ذلك مقاما"، حتى يقسم أقدار المعاني غلى أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ".(١) ولعل هذا الجانب الذي يتصل بمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، هو أهم ما أفاده بشر من الصحيفة الهندية ، وضمنه صحيفته التي تناول فيها عددا" آخر من القضايا النقدية المهمة التي تتصل باللفظ والمعنى وأقدار الكلام ومنازله ، وغير ذلك مما اشتملت عليه صحيفته التي كان لها أثر كبير في النقد العربي .

وقد كان لهاتين الصحيفتين أثر واضح في بعض آراء الجاحظ النقدية التي تتصل بأقدار الكلام وأحوال المخاطبين ، وشرف المعاني ، وكرم الألفاظ خاصة ، وكان له من نفاذ البصر النقدي ما أعانه على تعميق ما ورد فيها من آراء متصلة بهذه الجوانب وتفتيقها والإضافة إليها ، وتلقيحها بآراء أسلافه من العلماء والرواة والنقاد ، وإضفاء مسحة البيان والبلاغة العربية عليها ، فجاءت آرأوه فيها معبرة عن الروح النقدية العربية الصافية التي أشربت ثقافة العصر ، وأفادت من بعض جوانبها المهمة ، ومن ذلك قوله في مشاكلة الألفاظ للمعاني : " ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح في موضع الإفصاح ، والكناية والاسترسال في موضع الكناية "(٢) وقوله في أهمية المواءمة بين الكلام وطبقات الناس : " وكما لاينبغي أ ن يكون اللفظ عاميا" ، وساقطا" سوقيا" فكذلك لا

---

(١) البيان والتبين ١/١٣٥-١٣٩
(٢) الحيوان ٣٩/٣

ينبغي أن يكون غريبا" وحشيا" ... فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ... وكلام الناس في طبقات ، كما أن الناس انفسهم في طبقات "(١) .

ونقل ابن قتيبة بعض أطراف الصحيفة الهندية في عيون الأخبار ، وألمح إلى أثرها في بعض آراء البلغاء النقدية فقال : " وفي كتاب للهند ... أن يكون الخطيب ساكن الجوارح ... ولايدقق المعاني كل التدقيق ، ولاينقح الألفاظ كل التنقيح، ولايصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولايفعل ذلك حتى يصادف حكيما" أو فيلسوفا" عليما" ، ويكون قد تعود حذف فضول الكلام ، وإسقاط مشتركات الألفاظ ، قد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة ... قال ابن قتيبة : ونحو هذا قول جعفر بن يحيى البرمكي وقيل له : ما البيان ؟ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويحكي عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولاتستعين عليه بالفكرة ، والذي لابد منه أن يكون سليما" من التكلف ، بعيدا" عن الصنعة ، بريئا" من التعقد ، غنيا" عن التأويل " (٢) وقد روى الجاحظ هذا القول لجعفر البرمكي ورد أصوله إلى بعض آراء الاصمعي في البلاغة فقال في التعليق عليه : " وهذا هو تأويل قول الأصمعي : البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر"(٣) وإن كنا نرى أن وجه المشابهة الذي ألمح إليه ابن قتيبة بين قول البرمكي ونظيره في الصحيفة الهندية ظاهر بينهما .

ولم ينج إبن قتيبة أيضا من التأثر بهذه الصحيفة وكلام بشر في أثناء حديثه عن علاقة اللفظ بالمعنى ، ومناسبة المقال للمقام ، وملاءمته لأحوال السامعين في مقدمة الشعر والشعراء فذهب د . إحسان عباس إلى القول : " إن ابن قتيبة قد تناول ما في صحيفة بشر والصحيفة الهندية من حديث حول اللفظ والمعنى ، ومراعاة نفسية السامعين ، والانقياد إلى اللحظات التي لايوجد فيها ما يعترض الغريزة أي الحالة النفسية للمنشيء ، والتكلف وإسماح الطبع ، وطبقها جميعا" على الشعر ، ولكنه لم يقف منها موقف الناقل ، بل منحها التحليل والبسط " (٤) .

---

(١) البيان والتبين ١٤٤/١
(٢) عيون الأخبار ١٧٣/٢
(٣) البيان والتبيين ١٠٦/١ وطبق المفصل : أصابه فأبان عنه
(٤) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٦٩

وبلغ من اهتمام صاحب الصناعتين بهذه الصحيفة الهندية أن أوردها كاملة في صدر كتابه ومضى يشرحها فكرة فكرة (١) ، وردد بعض ما فيها من آراء ، كقوله في أهمية مراعاة احوال المخاطبين بالكلام : " إن أول ما ينبغي أن تستعمله في كتابتك مكاتبة كل فريق على مقدار طبقتهم وقوتهم في المنطق " (٢) .

وقد توسع اسحق بن وهب في هذه الآراء فقال : " إن على الخطيب أو المترسل أن يكون عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له ، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة ... ولايستعمل ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة ، ولا كلام الملوك مع السوقة بل يعطي كل قوم من القول بمقدارهم ، ويزنه بوزنهم ، فقد قيل : لكل مقام مقال " (٣) .

ومن الملاحظ أن آثار الصحيفة الهندية في النقد العربي تكاد تنحصر في هذا الجانب الذي يتصل بمناسبة المقال للمقام ، وملاءمته لطبقات المخاطبين وأقدارهم ، وإن كنا نعتقد أن هذه الآراء إنما ترتبط بتطور بعض الأنواع الأدبية وعلى رأسها الكتابة وفقا" لتطور الحياة والمجتمع ، فجاءت هذه الآراء معبرة عن هذا التطور ، دون أن يعني ذلك انعدام بعض المؤثرات الثقافية فيها أو ضعفها ، لارتباط هذه المؤثرات أيضا" بحركة التطور ، واتساع الآفاق الفكرية والثقافية لدى الأدباء والنقاد ، كما سنجد في أثناء الحديث عن المؤثرات اليونانية أيضا .

---

(١) كتاب الصناعتين ٢٥-٣٣
(٢) ن . م ١٦٠
(٣) البرهان في وجوه البيان ١٥٣/١٦٤

الثقافة اليونانية وآثارها في نقد الكتابة العربية :

حظيت الثقافة اليونانية عند العرب بنصيب وافر جدا من العناية والدرس والاهتمام ، وخلفت في تاريخ الفكر العربي ، على اختلاف وجوهه ومظاهره آثارا" عميقة ، كان للنقد الأدبي منها ، وأصول البلاغة والبيان بعض الأسهم التي يمكن أن نتلمس آثارها فيه ظاهرة أو خفية .

ويرتبط الحديث عن هذه الآثار في النقد بعدد من كتب أرسطو التي تعد من اجزاء منطقه وهي : العبارة والشعر والخطابة ، فضلا" عن بقية أجزائه الثمانية وجمله وهي : المقولات والقياس والبرهان والجدل والحكمة التي يمكن أن يعد كل جزء منها كتابا" مستقلا" (١) ، وكانت من أوائل ما ترجم العرب من تراث اليونان ، ونقلوه إلى لغتهم ، واعتنوا بشرحه وتفسيره واختصاره ، وصرفوا في ذلك جهودا" كبيرة ، وخلفوا فيه كتبا كثيرة يعود أقدمها إلى أواخر العصر الأموي ، فذكر ابن النديم لأصطفن الإسكندراني ، الذي نقل لخالد بن يزيد (-٨٥ هـ) بعض كتب اليونان في الصنعة وغيرها (٢) ، تفسيرا" للمقولات ، وجوامع للعبارة (٣) ، كما ذكر لابن المقفع (-١٤٢ هـ) كتابين في ذلك أيضا (٤) .

وسرد ابن النديم أسماء عدد كبير من التراجمة والفلاسفة والمؤلفين من القدماء والمتأخرين الذين شاركوا في ترجمة أجزاء المنطق أو شرحها وتفسيرها أو اختصارها ، ومنهم الكندي (-٢٥٢ هـ) الذي شرح وفسر : القياس والبرهان والحكمة المموهة ، واختصر : المقولات والعبارة والشعر (٥) ، ولم يشر إلى كتابي الجدل والخطابة ، وذكر له كتابا" في " ترتيب كتب أرسطو " (٦) وهو رسالة

---

(١) الفهرست ٣٠٨ - ٣١٠
(٢) ن . م ٣٠٣ و ٤١٩
(٣-٤) ن . م ٣٠٩
(٥) ن . م ٣٠٩ - ٣١٠
(٦) ن . م ٣١٦

صغيرة ضمنها أسماء كتب أرسطو ، وبين أغراضه فيها ، وقال في صدرها : " سألت أيها الأخ أن أنبئك بكتب أرسطاطاليس ... علىعدتها ومراتبها ، والتي لاغني لمن أراد نيل الفلسفة واقتنائها وتثبيتها عنها ، وأغراضه فيها ، بالقول المجمل الوجيز " (١) وقسمها إلى خمس مجموعات تبدأ بكتبه المنطقية الثمانية التي يؤلف مجموعها ما يسمى بالأورغانونأو آلة الفكر ، ودرج فيها على ذكر اسم الكتاب الأصلي وتعريبه ، مع عرض وجيز لموضوع كل كتاب ، وفي جملة هذه الكتب كتاب العبارة الذي أسماه : على التفسير ، وكتاب الخطابة أو البلاغي ، وكتاب الشعر أو الشعري (٢) ، ورجح د . احمد فؤاد الأهواني " أن إلحاق كتابي الخطابة والشعر بالمنطق ام يتم إلا على يد العرب ، وأن أول من فعل ذلك هو فيلسوف العرب الكندي " (٣) .

كما ذكر ابن النديم في أثناء حديثه عن كتاب الخطابة أنه " يصاب بنقل قديم، وقيل إن إسحق (– ٢٩٨ هـ) نقله إلى العربية، ونقله ابراهيم بن عبد الله ، وفسره الفارابي (– ٣٣٩ هـ) ورأيت بخط أحمد بن الطيب (–٢٨٦ هـ) هذا الكتاب نحو مائة ورقة بنقل قديم " (٤) وكان ابن الطيب من خاصة تلامذة الكندي ، وذكر ابن النديم أنه أختصر : القياس والبرهان والعبارة لأرسطو (٥) ، ولعله اعتمد في نسخ الخطابة بخطه على الترجمة القديمة لهذا الكتاب التي أشار إليها ابن النديم ، وهي الترجمة الوحيدة التي وصلت إلينا من مجمل ترجمات الخطابة ، ورجح محققها د . عبد الرحمن بدوي أن "المقصود بها من غير شك أنها نقل يرجع إلى المترجمين قبل حنين (١٩٤–٢٦٠ هـ) أي أوائل القرن الثالث أو قبل ذلك " (٦) وإلى ذلك ذهب د . ابراهيم مدكور ، ود . محمد سليم سالم (٧) ، وامين الخولي

---

(١) الكندي ٩٩ .
(٢) الكندي ١١١ .
(٣) ن . م ١١٣ .
(٤) الفهرست ٣١ .
(٥) ن . م ٣٢٠ وبروكلمان ١٣٦/٤ .
(٦) الخطابة – مقدمة المحقق ص / ز .
(٧) الشفا – قسم الخطابة – المقدمة ٧/٢ و ١٧

ود . سيد نوفل (١) ، ود . شكري عياد (٢) وغيرهم ، على حين ذهب د . طه حسين إلى القول : " أن اول ترجمة للخطابة ظهرت بعد وفاة الجاحظ (٣) " (٢٥٥ هـ) ، وتابعه " في ذلك د . شوقي ضيف وقال : " من المؤكد أن كتاب االخطابة وكتاب الشعر لم يترجما حتى نهاية العصر العباسي الأول فالجاحظ لم ينقل عنه أي رأي ، ويزعم تخلف اليونان بالخطابة مما يدل على أنه لم يعرف كتاب أرسطو " (٤) .

ومما لاشك فيه عندنا أن اجزاء المنطق الثمانية ، ومنها : العبارة والخطابة والشعر ، كانت مترجمة ومعروفة في النصف الأول من القرن الثالث على أبعد تقدير : إذ وجدنا أصطفن القديم يترجم العبارة ، ووجدنا ابن المقفع يختصره ، كما اختصر الكندي الشعر والعبارة ، وعدهما مع الخطابة وأجزاء المنطق الأخرى في صدر قائمة كتب أرسطو التي وصفها في رسالته ، وبين أغراضه فيها ، وحث طلاب الفلسفة على اقتنائها ودراستها ، ومنهم تلميذه ابن الطيب الذي اختصر عدداً منها ، وكتب بخطه نسخة من الخطابة ولعله اعتمد فيها على الترجمة القديمة التي أشار إليها ابن النديم ، وهي الترجمة التي وصلت إلينا ، ويدل أسلوبها على أنها من نقل احد أوائل التراجمة ، قبل أن ترقى أساليب النقل والترجمة عند العرب منذ أواخر القرن الثالث ، وفي ذلك كله ما لا يدع مجالا " للشك في تاريخ ترجمة هذه الكتب ، وصحة آراء بعض الدارسين التي ذهبوا فيها إلى أنها كانت مترجمة ومعروفة منذ مطلع القرن الثالث ، من غير أن يعني ذلك تأثر هذا الناقد أو ذاك بهما حتما ، لحاجة ذلك إلى بعض الأدلة والبراهين .

ومن المعروف أن المعتزلة كانوا من اكثر أهل العصر عناية بالثقافة اليونانية ، وكتب أرسطو خاصة منها ، ومن أشدهم تأثرا بها ، فاستقوا منها الكثير من الأفكار ، واعتمدوا عليها في جدلهم ومناظراتهم ومقاييسهم ومصطلحاتهم ، وامتد أثر هذه الثقافة إلى بعض آرائهم النقدية والبلاغية ، لما للنقد والبلاغة والبيان عندهم

---

(١) البلاغة العربية ٤٩ .
(٢) مجموعة الحضارة الإسلامية ٣٩٦/٣ .
(٣) نقد النثر – المقدمة ١٣ .
(٤) البلاغة تطور وتاريخ ٣٩ .

من أهمية ، وكان الجاحظ من أشدهم حرصا" على تحصيل هذه الثقافة ، فظهرت آثارها واضحة في كثير من كتبه ورسائله التي تجمع ما بين الأدب والكلام ، فذهب د . طه الحاجري إلى تلمس أوجه التشابه والتناظر بينه وبين الفلاسفة اليونانيين فوجد أن بينه وبينهم : " كثيرا" من أوجه الشبه ... ولاسيما في تلك الناحية التي عرفوا بها ، واشتهروا بحذقها وهي : البيان ... وكان الجاحظ علما" في هذا الباب ومعلم بيان ، وهو الوصف الأول لهم ... ثم من ذا الذي يرى عناية الجاحظ بمدح الشيء وذمه في كثير من الموضوعات التي يعرض لها في كتبه ... ثم لايذكر أسلوب معلمي البيان هؤلاء ، وهم الذين كانوا بتأثير مذهبهم الفلسفي في حقائق الأشياء لايعتبرون الكلام إلا أداة للخداع ... وكان إيفانوس الباروسي منهم موهوبا" في ابتداعه المدائح والأهاجي غير المباشرة ... وهذا بعينه هو ما يمكن أن توصف به بعض أساليب الجاحظ الساخرة كالذي نراه في رسالة التربيع والتدوير مثلا "(١).

وكان الجاحظ على صلة قوية بكتب أرسطو وآثاره المعروفة في عصره(٢)، والمنطق منها خاصة ، وألف بعض كتبه بوحي من هذه الصلة ، فنحا نحو أرسطو في تأليف كتاب الحيوان ، وأكثر من الاستشهاد بآرائه فيه ومناقشته والرد عليها ، ولايكاد يذكره في أثناء ذلك كله إلا بوصفه : صاحب المنطق (٣) ، وذكر كتاب المنطق غير ما مرة ، ودل على معرفته به ، وأشار إلى طبيعة أسلوبه، وحاجة طالب العلم به إلى الإحاطة بالثقافة المنطقية ، والتمرس بألفاظها ومصطلحاتها فقال: " إن كتاب المنطق الذي قد وسم بها الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار ، وبلغاء الأعراب ، لما فهموا أكثره ... ولايمكن أن يفهمه من يريد تعلمه، لأنه يحتاج أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطقي " (٤) ودعا المعلمين إلى تفسيره لطلابهم فقال : " إن صاحبه يحتاج إلى أن يفسره لمن طلب من قبله علم المنطق (٥) ، ومن المرجح أن يكون قد اطلع على سائر أجزاء هذا الكتاب وجمله التي كانت مترجمة ومعروفة في عصره وخاصة العبارة والشعر والخطابة، لصلتها الوثيقة بمجالات اهتمامه وميادين تأليفه، ولعلاقته القوية بمعاصره وغريمه الكندي الذي وجدناه يذكره في غير ما موضع من كتبه(٦) ، ويضمن كتابه البخلاء قصة حوله(٧) ، ويؤلف فيه رسالة مفردة عنوانها : " جهل يعقوب بن إسحق الكندي " (٨) .

---

(١) البخلاء – مقدمة المحقق ٢٣ – ٢٤ .
(٢) انظر الحيوان ١/٧٤و ٨٠ و ٩٠ و١٣٧و ٢/٥٥ و٣/١٣٧و ٥/٣ و٣٧ والتربيع والتدويره ٤٥و٩٧–١٠٠
(٣) انظرمثلا الحيوان ١/١٨٥ و ٢/٥٠ و ٣/١٣٧ و ٤/٣٤ و ٥/٢٢٠ و ٦/١٧ و٧/٣٧ ومواضع اخرى
(٤) الحيوان ١/٩٠ (٥) ن.م.ص (٦) ن.م ٦/٨
(٧) ن.م ٣/١٨٦و٥/٣١٩ (٨) البخلاء ٨١–٩٣

ومع أننا لا نجد في البيان والتبيين أو غيره من كتب الجاحظ ورسائله إشارة صريحة تدل على اطلاعه على العبارة أو الخطابة أو الشعر، فإن ذلك لا يدل على عدم وقوفه عليها وتأثره ببعض ما فيها من أقوال وآراء ، ولعل أهم ما يمكن تناوله في هذا الباب هو كتاب البيان والتبيين الذي يرتبط السبب الرئيسي لتأليفه بالرد على الشعوبية الذين أنكروا أن يكون للعرب في الخطابة والبيان شأن مذكور بين الأمم ، وطعنوا في خطباء العرب ، وأخذوا عليهم جملة من المآخذ ، فعابوهم بأخذ المخاصر والعصي ، والاتكاء على أطراف القسي ولبس العمائم ، والقيام في أثناء بعض الخطب ، والقعود في غيرها ، واستشهدوا على ذلك كله بما للفرس والهند واليونان من كتب وآثار في الخطابة والبيان .

وقد أسهب الجاحظ في عرض حججهم في ذلك فقال : " قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية . . . الخطابة شيء في جميع الأمم . . وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس . . . فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها ، وعللها وحكمها ، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب وهذه كتب الهند . . . فمن قرأ هذه الكتب ، وعرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم عرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني ، وتخير الألفاظ ، وتمييز الأمور أن يشيروا بالقنا والعصي والقضبان والقسي. كلا ، ولكنكم كنتم رعاة بين الابل والغنم فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لها في السفر"(١) . ثم أخذ في الرد عليهم وتفنيد حججهم ومطاعنهم ، وتأكيد تفوق العرب في الخطابة على سائر الأمم ، وإن كانت لهم في ذلك بعض المآثر المذكورة ، والكتب السائرة المعروفة فقال : " إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس فأما الهند فإنما لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة . . . ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه ، وبخصائصه . . . وفي الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة . . . ودراسة الكتب . . . وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام"(٢) .

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٢-١٤
(٢) ن.م ٣/٢٧-٢٨

وفي هذه النصوص ما يدل على صلة أهل العصر بكتب الأمم الأجنبية في النقد والبلاغة والبيان ، وكتب اليونان منها خاصة ، واعتماد الشعوبية عليها في مطاعنها على بلغاء العرب ونفيها أصالتهم في الخطابة وتفوقهم فيها على غيرهم من الأمم ، كما أن فيها ما يدل على معرفة الجاحظ بهذه الكتب ، وكتب أرسطو خاصة ، إذ وجدناه ينوه بقدرته النقدية على تمييز الكلام وتفصيله ، ومعرفته بخصائصه ومعانيه ، وذلك مرتبط بكتابيه : الشعر والخطابة ، ومن المرجح أن الجاحظ إنما يشير إلى ثانيهما ، لصلته بموضوع حديثه ، وإن لم يسمه أو يذكره أو يعول عليه في البيان والتبيين لئلا يكون في ذلك للشعوبية حجة عليه ، وليثبت فيه أصالة الخطابة العربية ، فكان تأليفه لهذا الكتاب وإغفاله ذكر خطابة أرسطو أو الإشارة إليه ، أو التعويل عليه مرتبطا" بهذه الظروف والأسباب مجتمعة ، فجاء مغايرا" له في منهجه وأسلوبه وطريقة بنائه وتأليفه ، وإن كان على صلة به ، وبظروف تأليفه ، ولعل في ذلك ما يمكن أن يفسر رأي د. سيد نوفل الذي ذهب فيه إلى القول :"إن كتاب البيان والتبيين ألف معارضة لخطابة أرسطو، كما ألف الحيوان معارضة لحيوانه "[١] وقال د . طبانة : " لعل الجاحظ أراد أن يكون للعرب كتاب في الخطابة كاليونان ، وأن يكون هو الكاتب في خطابة العرب كأرسطو اليونان "[٢].

وإذا كنا لا نجد في البيان والتبيين إشارة إلى كتاب الخطابة أو ذكر ، فإن ذلك لا ينفي عنه بعض ملامح التأثر به ، فكتاب أرسطو ، وإن كانت الخطابة عنوانا" له ، فهو في النهاية كتاب في البلاغة اليونانية ، وقد وجدنا الكندي يترجم عنوانه إلى : البلاغي[٣] ، وكذلك هو عند الغربيين : كتاب في البلاغة والبيان [٤]، وذلك هو شأن كتاب البيان والتبيين الذي يعد من بعض وجوهه أول كتاب في البلاغة العربية لدى كثير من القدماء والمحدثين[٥] ، ومفهوم البلاغة والبيان في الكتابين مرتبط بالخطابة برباط وثيق[٦] ، وكلاهما يهتم بأصول البلاغة

---

(١) البلاغة العربية ٤٩

(٢) البيان العربي ٦٩

(٣) الكندي ١١١ .

(٤) موسوعة المصطلح النقدي ١/٤٣١ .

(٥) انظر في ذلك البلاغة تطور وتاريخ ٥٧ وكتاب الصناعتين ١١ .

(٦) انظر الخطابة – النقل القديم ١٨٦ – ٢١٨ وترجمة د . بدوي ١٩٦ – ٢٥٦ .

ومصطلحاتها وقواعدها التي يمكن تطبيقها على الكتابة والخطابة والشعر على تفاوت درجات هذا الاهتمام بينهما ، وتباين آرائهما في ذلك واختلافها ، لاعتماد الجاحظ في استنباطها وتقريرها على مأثور كلام العرب ، وآراء أسلافه من الأدباء والنقاد فجاءت آراؤه في البيان مغايرة لآراء أرسطو في الخطابة ، ولم يتعد تأثيره فيه حدود هذه الملامح العامة والظروف .

على أننا يمكن أن نجد لبعض آراء أرسطو في العبارة خاصة بعض الأصداء في بيان الجاحظ الذي بدأ حديثه عنه بالقول : " قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني : المعاني القائمة في صدور الناس ، المتصورة في أذهانهم ، والمتخلجة في نفوسهم . . مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة . . . وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها "(١) ، وكان أرسطو قد بدأ كتاب العبارة بالقول : " إن ما يخرج بالصوت دال على الآثار التي في النفس ، وما يكتب دال على ما يخرج بالصوت "(٢) وقد ذهب د . شكري عياد إلى القول "إن الجاحظ أخذ فكرة النظر إلى البيان على أنه نوع من الدلالة من أول كتاب العبارة ."(٣) ولسنا نستبعد أنه إنما أراد أرسطو بقوله : " قال أحد جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني " ، ولم يسمه ، ثم تابعه في تقسيم أنواع الدلالات على المعاني إلى عدة أصناف فقال : " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نصبة وهي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف"(٤) وفصل القول في شرح كل صنف منها .

وقد ذكر إبراهيم بن المدبر صاحب الجاحظ ومعاصره هذه الأصناف في رسالته العذراء ونبه على أثر أرسطو فيها فقال : " والدال على المعنى أربعة أصناف : لفظ وإشارة وعقد وخط وذكر أرسطاطاليس خامسا" وهي التي تسمى النصبة ، وهي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة الناطقة بغير لفظ، والمشيرة إليه بغير يد ، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق "(٥) وتابع الجاحظ في شرح هذه الدلالات وبيان مغازيها ، وفي ذلك ما يؤكد تقفي الجاحظ آثار أرسطو في هذه الأصناف وتأثره به فيها .

ولعله قد استمد تشبيه صنعة الشعر بالتصوير في قوله : " فإنما الشعر صناعة وجنس من التصوير"(٦) من تشبيه أرسطو للشاعر بالرسام أو المصور

---

(١) البيان والتبيين ١/٧٥ . (٢) شرح الفارابي لكتاب أرسطا طاليس في العبارة ٢٤ .
(٣) كتاب أرسطو طاليس في الشعر ٢٣١ . (٤) البيان والتبيين ١/٧٦ . (٥) الرسالة العذراء ٤٠
(٦) الحيوان ٣/١٣٢ .

وتكراره لهذا التشبيه عدة مرات متوالية في كتاب الشعر كقوله : " لما كان الشاعر محاكيا" شأنه في ذلك شأن الرسام وكل صانع صورة فيجب ضرورة أن يسلك في محاكاة الأشياء أحد طرق ثلاثة : إما أن يحاكيها كما كانت أو تكون أو كما تقال"(١). أو قوله : " إن الشاعر يجري مجرى المصور فكل منهما محاك " (٢) على الرغم من اختلاف مقاصدهما في هذا التشبيه .

ومهما يكن من أمر هذه المؤثرات ، فإن الجاحظ قد آثر أن يستمد قواعده في الخطابة والبلاغة والبيان العربي من كلام العرب وآرائهم فيها ، وإن كان قد أفاد من مجمل ثقافة عصره وتأثر بروح الفلسفة والمنطق في بعض آرائه ومقاييسه، إلا أن بيانه ظل كما أراد له أن يكون عربي الملامح والسمات والقسمات والتفاصيل ، ثم أخذت صورة هذا البيان بالتغير لدى من أتى بعده من النقاد والبلاغيين .

وقد اختلف الدارسون في أثر خطابة أرسطو ومنطقه والثقافة اليونانية في بديع ابن المعتز والبلاغة العربية ، فأنكر كراتشكوفسكي " أن يكون للبديع اليوناني أي تأثير مباشر في نشوء البديع العربي وتطوره . . . فليس بإمكاننا إماطة اللثام عن أي آثار لأفكاره في البديع العربي لاختلافها عنها في الروح والأسلوب . . . وقد انطلق البديع العربي من بيئة اللغويين ومن التقليد الأدبي العربي . . . وكتب ابن المعتز البديع ليوضح أن البديع معروف في القرآن والحديث والشعر . . . واتضح أن أفكاره كانت نبوءة "(٣) وخالفه في ذلك د . طه حسين فقال : " إن ابن المعتز تأثر بكتاب أرسطو في الخطابة ، وبشكل أدق بالقسم الأول من الفصل الثالث الذي يبحث في العبارة . وأن تصور العرب للتشبيه والمجاز والمقابلة قريب مما نجده في الخطابة ... وليس بين العلوم العربية الدخيلة علم كالبيان هضمه العرب ، وأصبح علما" عربيا" "(٤) .

---

(١) كتاب أرسطوطاليس في الشعر – الترجمة العربية ١٤٢ .
(٢) ن.م ١٥٩ وانظر ١٤٣ .
(٣) البديع العربي : مجلة فصول – مج ٦–ع١–س ١٩٨٥–ص٩٤–٩٥
(٤) نقد النثر المقدمة ١٤ – ١٥ وأنظر رد د.شوقي ضيف على هذا الرأي في البلاغة تطور وتاريخ ٧٠

وليس يخلو واحد من هذين القولين – في نظرنا – من شيء من المبالغة، إذ أنكر كراتشكوفسكي أن يكون للثقافة الأجنبية الوافدة – على اختلاف ألوانها – أي أثر في البلاغة العربية أو البديع ، وأكد أن ما لحق هذا الفن لدى ابن المعتز من ضروب التطور في المنهج والأفكار والتقسيم والمصطلح إنما هو نبوءة وإلهام. وأرجع د . طه حسين أصول البلاغة العربية وفروعها إلى الثقافة الدخيلة ، وألمح إلى ارتباطها بخطابة أرسطو ، أو بجزء محدد من الخطابة على حين وجدناه ينكر أن تكون للجاحظ – وهو مؤسس البيان العربي والبلاغة العربية غير منازع – معرفة بهذا الكتاب فيقول : " من المؤكد أن الجاحظ لم يعرف شيئا" عن كتاب الخطابة لأرسطو "(١).

وقد سلك ابن المعتز سبيل الجاحظ في الاعتماد على كلام العرب وشعرهم في استخلاص القواعد البلاغية ووضع بعض مصطلحاتها وحدودها ، فقال في صدر كتابه البديع : " قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله (ص) وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشارا" ومسلما" وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن "(٢) ، وجرى على ذلك في كتابه فكان يذكر الآية الكريمة أو الحديث أو الشعر ويستخلص منها الاستعارة أو التجنيس ، أو المطابقة ، أو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، أو المذهب الكلامي ، وهي الأصناف التي قسم كتابه على أساسها إلى خمسة أبواب ، وقال في الباب الخامس منها : " وهو مذهب سماه الجاحظ : المذهب الكلامي ، وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئا "(٣) واستشهد عليه ببعض أقوال البلغاء وأشعار الشعراء ، ثم قال : " قد قدمنا أبواب البديع الخمسة . . . وكأني بالمعاند . . . قد قال : البديع أكثر من هذا ، وقال البديع باب أو بابان من الفنون الخمسة التي قدمناها ، فيقل من يحكم عليه ، لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ، ولا يدرون ما هو ، وما جمع فنون البديع ، ولا سبقني إليه أحد "(٤).

واتبع ذلك بمحاسن الكلام فقسمها أبوابا" جديدة ، واستوفى فيها بقية أنواع البديع من : الالتفات والاعتراض والرجوع وحسن الخروج وتأكيد المدح بما يشبه

---

(١) ن.م ٧ .
(٢) البديع ١ .
(٣) ن.م ٥٣ .
(٤) ن.م ٥٧ – ٥٨ .

الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط في الصنعة ، وحسن التشبيه ، والإعنات ، وحسن الابتداء ، وليس في ذلك كله ما يدل على تأثره بما ورد في الخطابة من حديث في البلاغة اليونانية من حيث فنونها وأنواعها ومصطلحاتها وأساليبها ، كما تدل على ذلك صورها في الترجمة العربية القديمة والترجمة المعاصرة الحديثة [١] ، ولعل هذا الأثر إنما ينحصر في تنبيهه على أهمية جمع ما تفرق من آراء أسلافه في فنون البديع ، وتبويبها وترتيبها ، وتفتيق شعبها وفروعها ، واستنباط بعض المصطلحات الجديدة وجعل ذلك كله في كتاب مفرد يمكن أن يعد أول كتاب مفرد في البلاغة العربية [٢] .

وإذا كانت صورة الأثر اليوناني معتمة وخفية في نقد القرن الثالث ، فإنها تبدو واضحة في بعض ما ألف في القرن الرابع من كتب نقدية ، بعد أن كثرت ترجمات الشعر والخطابة والعبارة وغيرها من أجزاء المنطق ، وتعددت شروحها وتفاسيرها [٣] ، وازداد اهتمام النقاد والبلاغيين بها ، وبدا أثرها ظاهرا" في كتبهم وتآليفهم ، ولعل أهم ما يتصل منها بنقد النثر عامة والكتابة خاصة كتاب " البرهان في وجوه البيان " لإسحق بن وهب (نحو ٣٥٠ هـ) الذي حاول فيه إرساء أسس بيان عربي جديد ، معتمدا" على كتب أرسطو في الشعر والخطابة والجدل والمنطق ، فبدا هذا البيان العربي الجديد لديه وكأنه يريد أن يستعجم كما يقول د . شوقي ضيف[٤] .

ويتضح أثر أرسطو في منهج هذا الكتاب ، وتكوين بنيته وحججه فيه وبراهينه وبعض أفكاره ومصطلحاته ، وقد بدأه كما بدأ أرسطو الشعر بنقد من سبقه من أصحاب البيان فنقد الجاحظ في تأليف البيان لعدم وفائه بحقوقه[٥] ، ثم قسمه أربعة أقسام ، وسمى كل قسم منها بيانا" وهي : بيان الاعتبار والاعتقاد والعبارة ثم الكتاب[٦] ، وتابع الجاحظ في أصناف الدلالات التي وجدناه يستمد

(١) انظر الترجمة العربية القديمة للخطابة – المقالة الثالثة ١٨٦ – ٢١٨ وترجمة د . عبد الرحمن بدوي ١٩٦ – ٢٥٦ .
(٢) وقد عده غرنباوم أول كتاب في النقد المنهجي عند العرب " وقال د . زغلول سلام إنه لا يمس النقد إلا بصورة عارضة " . وانظر دراسات في الأدب العربي ص ١٠٠ وتاريخ النقد العربي ١٢١/١.
(٣) انظر الفهرست ٣١٠ .
(٤) البلاغة تطور وتاريخ ١٠٢ .
(٥) البرهان (ط المصرية) ٤٩ . وانظر من حديث الشعر والنثر ٧٧ .
(٦) البرهان ٦٥-٨٥ (الاعتبار) و ٨٦-٩٢ (الاعتقاد) و ٩٢-٢٥٣ (العبارة) و ٢٥٤-٣٦٢ (الكتاب) .

فكرتها من كتاب العبارة لأرسطو ، وإن خالفه في تسمياتها(1) وتحدث في بيان الاعتبار عن القياس لغة واصطلاحا" ، وعن الخبر وأنواعه ، وتناول في بيان الاعتقاد : الحق واليقين والظن والاشتباه ، وخصص البيان الثالث وهو العبارة للمباحث البلاغية الخالصة ، وأفرد تأليف العبارة بباب مستقل تحدث فيه عن أنواع المنظوم والمنثور في لسان العرب ، وجعل البيان الرابع في الكتاب وأصناف المترسلين والكتاب ، فجاءت هذه الأبواب مقسمة ما بين المنطق والأخلاق والبلاغة ، فأشبه بذلك كتاب أرسطو في الخطابة (2) .

ولعل أوضح صور التشابه بينهما إنما تتجلى في البيان الثالث الذي يوافق عنوانه عنوان كتاب أرسطو : العبارة ، ويقابل المقالة الثالثة من الخطابة ، وهي في أقسام فن الخطابة وصفات الأسلوب ومزاياه ، وأنواع التعبير المجازي وأصناف البلاغة ومصطلحاتها وحدودها(3) وكذلك بيان العبارة في البرهان الذي تناول فيه أهم أوجه البلاغة العربية وأنواع تأليف العبارة في المنظوم والمنثور ، وجعل الجدل والاحتجاج نوعا" مفردا" منها(4) ، واعتمد في ذلك كله على التعريف والتفريع والتشعيب والاستدلال بالحجة والبرهان ، وأخضع دراسة الأدب للعقل والمنطق ، وأسهب محقق هذا الكتاب د . حفني شرف في تلمس آثار "الخطابة " في بعض آرائه وأورد على ذلك أدلة كثيرة (5) ، ومن ذلك قول صاحب البرهان في الأمثال : " إن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال ويبينون تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا" وأقرب مذهبا" . . . وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكنا" ، فهو محتاج إلى ما يدل على صحته والمثل مقرون بالحجة"(6) وقد سبقه صاحب الخطابة إلى القول : " والمثال في هذه الصناعة شبيه بالاستقراء في صناعة الجدل ، والمثال نوعان : أحدهما أن يتمثل المتكلم بأمور كانت قد وجدت.. وثانيهما : أن الخطيب يصنع المثال ويخترعه . . . ومنفعته أنه أقنع عند المشوريات ، وذلك أن المتوقعات أكثر ذلك "(7).

---

(1) ن . م 56 .
(2) من حديث الشعر والنثر 77-78 .
(3) الخطابة – الترجمة العربية 81-218 وترجمة د . عبد الرحمن بدوي 193 – 196 .
(4) البرهان 92-253 .
(5) ن . م مقدمة المحقق 37-39 .
(6) ن . م 117 .
(7) ن . م 37 .

ولم يقتصر في الإفادة من أرسطو على الخطابة ، وإنما استمد من العبارة أصناف الدلالة (١) ، واعتمد عليه - وربما على شرح الفارابي له أيضا - في حديثه عن أقسام معاني الكلام ، على أساس ما يصدق منها أو يكذب ، وما لا يصدق منها أو يكذب ، إلى خبر وإنشاء في صدر بيان العبارة (٢) ، وتقصى د.طه حسين مدى تأثره بكتاب الشعر وخلص من ذلك إلى القول : " إن فصوله حتى الفصل الحادي عشر لا ابتكار فيها ، بل لا تخرج عن كونها مجرد تقليد للفصل العشرين والحادي والعشرين من الشعر "(٣) ووجد د. شوقي ضيف أنه لم يقتصر على الإفادة من الشعر والخطابة ، والتأثر بهما ، وإنما امتد ذلك إلى كتبه الأخرى في الجدل والمنطق فقال " ولم يكتف بالأخذ من الخطابة والشعر ، فقد توسع في الأخذ من كتابيه المنطق والجدل ، ومزج ذلك مزجا بعقيدته وبمباحث المتكلمين . . . ولم يحسن تطبيق الوجوه البلاغية التي اقتبسها من أرسطو "(٤) .

ولم يكن ابن وهب يحاول إخفاء هذه الآثار كلها في كتابه إذ طالما وجدناه يذكر أرسطو وكتبه ، ويستشهد بآرائه كقوله : " وقد ذكر أرسطاطاليس الشعر في كتاب الجدل فجعله حجة مقنعة إذا كان قديما" ، واحتج في كثير من كتب السياسة بقول أوميروس شاعر اليونان "(٥) أو قوله : " وقد ذكر أرسطو الشعر ووصفه بأن الكذب فيه أكثر من الصدق ، وذكر أن ذلك جائز في الصياغة الشعرية "(٦).

على أننا مع ذلك نرى أن قيمة هذا الكتاب الحقيقية إنما تتجلى في محاولته رسم نظرية واضحة ومحددة للأنواع الأدبية عند العرب ، وقد استطاع أن يقطع في ذلك أشواطا" بعيدة ، وظلت نظرته إلى هذه الأنواع وأكثر آرائه فيها مرتبطة إلى حد بعيد بآراء أسلافه من الأدباء والنقاد على الرغم من طغيان الأبحاث

(١) انظر البرهان ٥٦ وشرح الفارابي لكتاب العبارة ٢٤-٢٥ .
(٢) البرهان ٩٣وشرح الفارابي لكتاب العبارة ٢٦ و ٥٢ .
(٣) نقد النثر - المقدمة ٢٠ .
(٤) البلاغة تطور وتاريخ ١٠١ - ١٠٢ .
(٥) البرهان ٣٤ .
(٦) ن.م ١٤٦ وانظر ١٦٢ .

البلاغية على بعض أبوابه وفصوله ، وتأثره العميق فيها بالخطابة أو الشعر أو العبارة أو غيرها من آثار الثقافة اليونانية(١).

وقد ظلت آثار هذه الثقافة ظاهرة لدى نقاد القرن الرابع ، والمشتغلين منهم بالفلسفة والمنطق خاصة ، كما يتبدى ذلك واضحاً في نقد الشعر لقدامة بن جعفر وغيره(٢) وارتبط كتاب الخطابة لأرسطو في أذهان كثير منهم بالبلاغة ، فأخذوا يبحثون عن حدودها ومفاهيمها فيه ، ويتأثرون بها في رسم أصولها وقواعدها ، فقال أبو حيان التوحيدي في بعض مقابساته : " سألت أبا سليمان المنطقي عن البلاغة ما هي ، وقلت : أحببت أن أعرف قولاً على نهج هذه المطابقة ، لأن لهم كتاب الخطابة فى عرض كتاب الفيلسوف [أرسطو] ، وقد بحثوا في مراتب اللفظ واللفظ ، وطبائع الكلمة والكلمة ، موصلة ومفصلة ، وخواتيم [هي] أحق ما أعتمد . فقال : هي الصدق في المعاني ، مع ائتلاف الأسماء والأفعال والحروف ، وإصابة اللغة ، وتحري الملاحة والمشاكلة برفض الاستكراه..."(٣) وقد كان لذلك أثر كبير في انحراف النقد العربي عن مجراه الصافي ، واختلاطه بعلم آخر بدأ الحديث عنه خافتاً" في القرن الثالث ، وأخذ يعلو شأنه ويطغى على معظم الدراسات النقدية في القرن الرابع ، واستوفى النضج والكمال منذ مطلع القرن الخامس وهو علم البلاغة العربية .

---

(١) وانظر كتابنا " نظرية الأنواع الأدبية في النقدد العربي " ص ٧١-٧٤ .
(٢) وانظر في أثر أرسطو والثقافة اليونانية تاريخ النقد الأدبي عند العرب د . احسان عباس ١٨٦ .
(٣) المقابسات ٢٩٣ المقابسة ٨٨



الفصل الثاني

سرقات الكتاب والمترسلين

- تمهيد .
- حركة التأليف في السرقات : نشأتها وتطورها وآثارها .
- سرقات الكتاب والمترسلين في نقد القرن الثالث .
- سرقات الكتاب والمترسلين في نقد القرن الرابع .



الفصل الثاني
سرقات المترسلين والكتاب

تمهيد :

ترتبط قضية السرقات الأدبية عامة بمسألة القدم والحداثة في الأدب بروابط وثيقة ، وتمتد جذورها في تاريخنا الأدبي إلى العصر الجاهلي ، إذ نقف في أشعار بعض الشعراء فيه على ما يدل أن المحدثين من الشعراء كانوا يتقفون آثار أسلافهم في الشعر ، ويتواردون على أفكارهم ومعانيهم ، ويتعاقبون على صورهم وتشبيهاتهم ، ويتأثرون بمذاهبهم الفنية وأساليبهم ، وينسجون على منوالهم فيها ، كقول امرئ القيس الذي أكد فيه جريه على سنة بعض أسلافه من الشعراء في بكاء الديار (١)

عوجا على الطلل المحيل لعلنا　　　نبكي الديار كما بكى ابن خذام

وأشار عنترة العبسي إلى سبق القدماء إلى المعاني والأفكار ، فلم يغادروا لمن بعدهم منها شيئا" فقال :(٢).

هل غادر الشعراء من متردم　　　أم هل عرفت الدار بعد توهم

وعبر كعب بن زهير عن ضيق مجال القول أمام شعراء عصره ، إذ لم يترك الأول للآخر منه شيئا" ، فتراه يعيد أفكاره ومعانيه ، ويكرر ألفاظه وتعابيره فقال(٣) :

ما أرانا نقول إلا رجيعا"　　　أو معادا" من لفظنا مكرورا

---

(١) مختار الشعر الجاهلي ٩١/١ وديوانه ١١٤ وحلية المحاضرة ٣٠/٢ والعمدة ١٩٠/١ ويروي : لأننا بمعنى لعلنا ، وابن حذام أو حمام بدلا" من خذام . والمحيل : المتغير المندثر . وفي المؤتلف والمختلف ١٠٩ " ابن خذام وهو أحد من بكى الديار قبل امرئ القيس ودرس شعره " .

(٢) مختار الشعر الجاهلي ٣٦٩/١ وديوانه ١٤٢ وشرح القصائد العشر ٢٦٢ والعمدة ١٩٨/١ و٣٢٧ وفي الأغاني ٢٢٢/٩ أن بعض الرواة يشك في صحة نسبة هذا البيت إلى عنترة . والمتردم : الموضع يسترقع ويستصلح . ويروى : مترنم ، من الترنم وهو ترجيع الصوت بتطريب .

(٣) ديوانه ١٥٤ .

وقد نقف في أشعار القوم على بعض الأقوال الصريحة التي تدل على انتشار ظاهرة السرقة والإغارة على الأشعار في العصر الجاهلي ، وموقف أهل العصر من هذه الظاهرة ، كقول طرفة بن العبد(١) :

ولا أغير على الأشعار أسرقها   عنها غنيت وشر القوم من سرقا

وكرر حسان بن ثابت هذا المعنى ، فنفى تهمة السرقة عن شعره ، وأكد أصالته فيه فقال(٢) :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا   بل لا يوافق شعرهم شعري

وكانت السرقة الشعرية عيبا" ونقيصة ، وقد تودي بصاحبها إلى السجن كما حل بالأعشى ميمون بن قيس إذ اتهمه النعمان بن المنذر بسرقة أشعار غيره وانتحالها فحبسه ، فقال يذكر سجنه وينفي هذه التهمة عن نفسه(٣) :

وقيدني الشعر في بيته   كما قيد الآسرات الحمارا

فكيف أنا وانتحال القوافي   بعيد المشيب كفى ذاك عارا

وقد كانت أكثر سرقاتهم تجري على سبيل الإغارة والانتحال فذكر الأصمعي أن كثيرا من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه "(٤) ، وقال إن طفيلا" الغنوي أخذ من امريء القيس شيئا" "(٥) وألمح ابن سلام إلى أسباب الإغارة والانتحال فربطها بشهرة الشاعر أو خموله فقال : " وكان قراد بن حنش من شعراء غطفان ، وكان قليل الشعر جيده ، وكانت غطفان تغير على شعره فتأخذه فتدعيه ، ومنهم زهير بن أبي سلمى "(٦) وكذلك كان المشاهير من الشعراء يفعلون، فروى الحاتمي " أن أولية بكر بن وائل كانوا يحلفون أن عامة شعر امريء القيس لعمرو بن قميئة ، وأنه كان بصحبة امريء القيس ،

---

(١) ديوانه ٢١٦

(٢) ديوانه ٢٣٠ ويروي : بل لا يخالط

(٣) حلية المحاضرة ٢/٢٩ وفي ديوانه ٥٣ : فما أنا أم ما انتحالي القوافي .

(٤) فحولة الشعراء ٩ .

(٥) ن.م ٩ .

(٦) طبقات فحول الشعراء ٢/٧٣٣ وانظر معجم الشعراء ٣٢٧ .

فغلبه على شعره . وأن معظم الشعر الذي يرويه الناس لعنترة هو لخراش بن شداد أخيه "(١) .

واستمرت هذه الظاهرة بالانتشار بعد الإسلام ، فلا نكاد نجد شاعرا" من الشعراء في مختلف العصور ينجو من الاتهام بالسرق ، وكان المشهورون منهم أكثر من غيرهم عرضة لذلك لدى العلماء والنقاد ، لشدة عنايتهم بأشعارهم ، ودوام نظرهم فيها ، وكثرة مدارستهم لها فبالغوا في سرقاتهم ، فقال الأصمعي إن : تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة "(٢) وقال دعبل الخزاعي إن " ثلث شعر أبي تمام سرقة "(٣) أيضا ، وقد ألفوا في سرقاته وسرقات غيره من الشعراء كتبا" كثيرة.

وكان الشعر ميدانا" واسعا" لمعظم السرقات ، وإن لم يخل النثر منها ، على الرغم من ضيق ساحة السرق فيه ، فروى الجاحظ عن ابن الأعرابي قول أبي مسمار العكلي يمدح بعض خطباء قومة مرتجزا".(٤)

لله در عامر إذا نطق ... في حفل إملاك وفي تلك الحلق

ليس كأقوام يعرفون بالسرق ... من خطب الناس ومما في الورق

يلفقون القول تلفيق الخلق ... من كل نضاح الذفاري بالعرق

إذا رمته الخطباء بالحدق

وفي هذا القول دلالة واضحة على استعانة بعض الخطباء بأقوال غيرهم وسرقتها وتلفيق خطبهم منها ، وإن كانت أخبارهم وأخبار غيرهم من أصحاب المنثور في ذلك نزرة وقليلة ، إذ كان جل اهتمام أوائل الرواة والنقاد بالسرقات الشعرية ، ولم تظهر العناية بالسرقات النثرية إلا بعد تطور النثر الفني ، والكتابة منه خاصة ، في العصر العباسي .

---

(١) حلية المحاضرة ٢/٣١ .
(٢) الموشح ١٦٩ .
(٣) أخبار أبي تمام ٢٤٤ .
(٤) البيان والتبيين ١/١٣٣ والإملاك : التزويج ، والذفاري هنا بمعنى بدن الخطيب ، وهي في الأصل لحمة في قفا البعير .

حركة التأليف في السرقات :

وقد بدأ الاهتمام النقدي بالسرقات مع بداية اشتغال العلماء والرواة بتدوين الآثار الأدبية ودراستها فعمد بعضهم إلى تأليف بعض الكتب في سرقات الشعراء ، وكان من أسبقهم إلى ذلك ابن كناسة الأسدي (- ٢٠٧ هـ) الذي خص " سرقات الكميت من القرآن وغيره"[١] بكتاب مفرد ، وتابعه في ذلك الزبير بن بكار (- ٢٥٦ هـ) فألف في " إغارة كثير على الشعراء " [٢] كتابا" وتوسع في ذلك ابن السكيت (-٢٤٤ هـ) فألف كتابا" في سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه "[٣] وألف ابن أبي طاهر طيفور (-٢٨٠ هـ) في السرقات كتابين منفصلين ، وجعل أحدهما عاما" يشمل " سرقات الشعراء " وخص بثانيهما سرقات البحتري من أبي تمام [٤] ، وفي أواخر هذا القرن الثالث ألف ابن المعتز (-٢٩٦ هـ) " كتاب السرقات "[٥] .

واستأثرت السرقات باهتمام نقاد القرن الرابع وبلاغييه ، ووجدوا فيها مجالا" واسعا" لإظهار قدراتهم النقدية والثقافية ، فجعلوا لها رتبا" ومنازل ومصطلحات كثيرة ، وأصبحت معرفتها دليلا" على تبريز الناقد وتفوقه فقال القاضي الجرجاني (-٣٩٢ هـ) في صدر حديثه عن سرقات المتنبي في الوساطة : "هذا باب لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعالم المبرز وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله ، ولست تعد من جهابذة الكلام ، ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه وتحيط علما" برتبه ومنازله "[٦] .

وقد فتح باب التأليف في السرقات على مصراعيه منذ أوائل هذا القرن ، وكان للصراع النقدي حول الشعراء المحدثين وأصحاب البديع ، على رأسهم أبوتمام ، أثر كبير في اتساع مجال القول في السرقات فقال الآمدي : " إن من أدركته من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساويء

---

(١) الفهرست ٧٧ وابن كناسة هو أبو محمد عبد الله بن يحيى الأسدي عالم بالشعر من أهل الكوفة وانتقل إلى بغداد وأقام بها ، ثم عاد إلى الكوفة وبها توفى (١٢٣-٢٠٧ هـ) .
(٢) ن.م ٣٩
(٣) ن.م١٢٤
(٤) ن.م ١٦٣ ومعجم الادباء ٩١/٧ .
(٥) الفهرست ١٣٠
(٦) الوساطة ١٨٣ .

الشاعر ، وخاصة المتأخرين ، إذ كان هذا باب ما تعرى منه متقدم ولا متأخر ، ولكن أصحاب أبي تمام ادعوا أنه أول سابق ، وأنه أصل في الابتداع والاختراع ، فوجب إخراج ما استعاره من معاني الناس "[1] فألفت في سرقاته وسرقات غيره من الشعراء المحدثين كتب كثيرة ككتاب " سرقات أبي تمام "[2] لابن عمار القطربلي (-٣١٩هـ) وكتاب " سرقات البحتري من أبي تمام " و " كتاب السرقات الكبير "[3] لبشر بن يحيى النصيبي (أوائل القرن الرابع) و " كتاب السرقات لجعفر بن حمدان الموصلي (-٣٢٣هـ) وقال ابن النديم إنه " لم يتمه ، ولو أتمه لا ستغنى الناس عن كل كتاب في معناه "[4] وكتاب " سرقات أبي نواس "[5] لمهلهل بن يموت (-٣٣٤هـ) وكتاب " الخاص والمشترك في المعاني" للآمدي (-٣٧٦هـ) " تكلم فيه على الفرق بين الألفاظ والمعاني التي تشترك فيها العرب ولا ينسب مستعملها إلى السرقة وإن كان قد سبق إليها ، وبين الخاص الذي ابتدعه الشعراء وتفردوا به ، ومن اتبعهم في ذلك "[6] وله كتاب في " نثر المنظوم " لا نعرف من أمره شيئا ، وإن كان عنوانه يدل على أنه يدخل في باب السرقات النثرية ، أو أنه يجري على شاكلة كتاب الثعالبي (-٤٢٩) في " نثر النظم وحل العقد "[7] الذي اقتصر فيه على نثر المنظوم .

---

(١) الموازنة ٢٩/١ وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطه ابراهيم ١٧٨ .

(٢) الموازنة ١٣٥/١ والوساطة ٢٠٦ وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب د . احسان عباس ١٤٨ و ٦٣٢ (المصادر) وأبو العباس أحمد بن عبيد الله الثقفي الكاتب أديب ناقد ذكر له ابن النديم عدة كتب في الشعر والشعراء (- ٣١٩ هـ) . الفهرست ١٦٦ ، وللآمدي كتاب في الرد عليه الفهرست ١٧٢ .

(٣) الفهرست ١٦٦ وأبو الضياء بشر بن يحيى بن علي القتبي النصيبي شاعر وأديب ومؤلف من أهل نصيبين وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب د . احسان عباس ١٥٢ - ١٥٤ .

(٤) الفهرست ١٦٦ وأبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي فقيه وشاعر وأديب ناقد له عدة كتب في الفقه والأدب والنقد (- ٣٢٣ هـ) .

(٥) مطبوع بتحقيق د . مصطفى هدارة - القاهرة ١٩٥٧ ومهلهل بن يموت بن المزرع نحوي وأديب وناقد (- ٣٣٤ هـ) وانظر مقدمة المحقق .

(٦) معجم الأدباء ٨٨/٧ وانظر ٨٥ والفهرست ١٧٢ .

(٧) مطبوع بعناية على الخاقاني - دار صعب - بيروت - د . ت وبهامشه كتاب الفرائد والقلائد ، وبذيلة كتاب الكناية والتعريض للثعالبي أيضا . وفي نهاية هامش الفرائد والقلائد ص ١٢٠ - ١٣٥ أمثال منسوبة للإمام علي (ر) ثم نبذة في أسجاع تعين على الإنشاء ص ١٣٥ - ١٤٣ ثم فصل في البلاغة وأوصافها ١٤٤ - ١٦٨ وذلك كله ليس من كلام الثعالبي ، ويبدو أن الناشر قد نقل الأمثال من التحفة البهية ١٠٧ - ١١٤ وهي فيه غير منسوبة إلى جامع أو مؤلف ، ونقل أوصاف البلا غة من زهر الأداب ١٥٦/١ وما بعدها وأضافهما إلى كتاب الثعالبي ولم يشر إلى ذلك.

ولم تكد تهدأ حدة الصراع النقدي حول أبي تمام وأصحاب البديع حتى نشبت في ساحة النقد العربي معركة جديدة حول شعر المتنبي (-٣٥٤هـ) ، وكانت لهذه المعركة منذ بدايتها عدة وجوه مختلفة حددت مسارها ، وقيدت مواضيعها ، إذ أثار المتنبي بتعاليه وجرأته موجة شديدة من العداء لشخصه ، فانعكس هذا العداء على شعره ، ووجد الطاعنون عليه في السرقات مجالا" واسعا" للغض منه فألف الحاتمي (-٣٨٨ هـ) في سرقاته العربية " الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره"[1] كما ألف في سرقاته اليونانية " الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي من شعره كلام أرسطو "[2] ، وألف ابن وكيع التنيسي (-٣٩٣هـ) " كتاب المنصف للسارق والمسروق في إظهار سرقات المتنبي " [3] وبالغ في ذلك فألف ابن جني (-٣٩٢هـ) كتابا" في " النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته "[4] وقال ابن رشيق إن " ابن وكيع قد قدم في صدر كتابه على أبي الطيب مقدمة لا يصح معها لأحد شعر إلا الصدر الأول إن سلم ذلك لهم، وسمى كتابه : المنصف ، مثلما سمي اللديغ سليما ، وما أبعد الإنصاف منه"[5].

ولم تكن حركة التأليف في السرقات مقصورة على هذه الكتب الخاصة بها، وتغلب على معظمها الصبغة التطبيقية ، وإنما كان للسرقات حضور دائم في معظم كتب الأدب والنقد إن لم نقل كلها ، إذ لا يكاد كتاب من هذه الكتب المؤلفة منذ أوائل القرن الثالث يخلو من الحديث عن سرقات الشعراء والكتاب والخطباء ورصدها وتتبعها وإبداء الرأي فيها ، ككتاب فحوله الشعراء للأصمعي (-٢١٦هـ)، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام (-٢٣١هـ) ، وكتاب عيون الأخبار وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (-٢٧٦هـ) وكتاب البيان والتبيين وغيره من كتب الجاحظ (-٢٥٥هـ) ورسائله ، وكتاب طبقات الشعراء المحدثين وكتاب البديع لابن المعتز (-٢٩٦هـ) وغيرها من كتب الأدب والنقد المؤلفة في القرن الثالث .

---

(١) مطبوعة بتحقيق د . محمد يوسف نجم - بيروت ١٩٦٥

(٢) مطبوعة بتحقيق د . فؤاد البستاني - بيروت ١٩٣١ .

(٣) طبع بتحقيق د . رضوان الداية . دمشق ١٩٨٢ بعنوان : المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي وانظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب د . احسان عباس ٢٩٤ - ٣١٢ وابن وكيع التنيسي هو أبو محمد الحسن بن علي شاعر بغدادي مجيد وأديب ناقد ارتحل الى مصر وتوفي بتنيس (-٣٩٣ هـ) يتيمة الدهر ٣٥٦/١-٣٨٤ والأعلام ٢١٧/٢ .

(٤) معجم الأدباء ١١٣/٢

(٥) العمدة ١٠٣٩/٢

ولم يكن حديث السرقات في هذة الكتب يتعدى الجوانب التطبيقية المباشرة، وإبداء بعض الآراء الوجيزة فيها ، ثم اتسع هذا الحديث في الكتب النقدية والبلاغية المؤلفة في القرن الرابع ، كعيار الشعر لابن طباطبا (-٣٢٢هـ) والموازنة للآمدي (-٣٧٠هـ) وحلية المحاضرة للحاتمي (-٣٨٨هـ) والوساطة للقاضي الجرجاني (-٣٩٣هـ) والصناعتين للعسكري (-٣٩٥هـ) وغيرها من الكتب التي خص مؤلفوها السرقات فيها بأبحاث مطولة تناولوا فيها أصولها وفروعها ورتبها ومنازلها وأقسامها ومصطلحاتها ، ولم يقتصروا في ذلك على السرقات الشعرية فحسب ، وإنما تعدوها إلى النثر أيضا ، وسنقتصر في حديثنا عن آرائهم في السرقات على من كان لديه منهم شيء من الاهتمام بسرقات الكتاب خاصة ، أو السرقات الأدبية عامة .

سرقات الكتاب في نقد القرن الثالث :

ومن أوائل ما نقف عليه من آراء الأدباء والنقاد في الأصالة والابتداع ، والاحتذاء والاتباع ، والأخذ والسرق قول ابن المقفع (-١٤١هـ) في الأدب الكبير: " فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه فلا يعجبن به إعجاب المخترع المبتدع ، فإنه إنما اجتباه . . . ومن أخذ كلاما" حسنا" عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه فلا يرين عليه في ذلك ضؤولة . . . أن لا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه " (١) وفي هذا القول دلالة واضحة على النظرة الشمولية الواسعة إلى مسألة الابتداع والاتباع والأخذ والاستعانة في الأدب لدى إبن المقفع ، إذ ربط هذه المسألة بقضية القدم والحداثة والمجال الثقافي للأديب ، فلم ير في تعويله على كلام من سبقه والاتكاء عليه والأخذ منه عيبا" أو ضؤولة ، وشرط لذلك حسن أخذه واجتنائه ، واستعماله في مواضعه السليمة وعلى وجوهه الصحيحة .

وعلى ذلك جرى أوائل الأدباء والنقاد في النظر إلى السرقات ، فكانوا كما قال الآمدي " لا يرون سرقات المعاني من كبير مساويء الشاعر(٢) ، كما تدل على ذلك ملاحظات الأصمعي التي أبداها في سرقات كثير من الشعراء . كقوله : "وطفيل عندي أشعر من أمريء القيس ، وقد أخذ طفيل من أمريء القيس شيئا"(٣) وربما كان في أخذ المعنى والزيادة فيه دلالة على قدرة الشاعر وبراعته لديه

(١) الأدب الكبير ٣٤ .
(٢) الموازنة ٢٩/١ .
(٣) فحولة الشعراء ٩ .

كقوله : " وأوس بن حجر أشعر من زهير ، ولكن النابغة طاطأ منه، قال أوس : بجيش ترى منه الفضاء معضلا ، في قافية ، وقال النابغة فجاء بمعناه في نصف بيت وزاد شيئا" آخر:

جيش يظل به الفضاء معضلا يدع الأكام كأنهن صحاري "(١)

وإذا كنا لا نجد عند هؤلاء العلماء والرواة اهتماما" نظريا" بالسرقات وتعليلها تعليلا" نقديا" واضحا" ، كما لم نجد لديهم اهتماما" بالسرقات النثرية ، فإننا نجد ذلك لدى الجاحظ (-٢٥٥هـ) الذي يعد من أسبق النقاد إلى البحث في ظاهرة السرقات وتعليلها ، وعدم الاقتصار فيها على السرقات الشعرية فحسب ، فأولى السرقات النثرية قسطا" وآفرا" من عنايته النقدية ونظر إلى السرقات الأدبية عامة بمنظار واسع يشمل المجال الثقافي للأديب ، ويؤكد حتمية التأثر والتأثير ويعلل السرقة بالإعجاب ، ويجعلها وقفا" على الغريب من المعاني والأساليب فيقول:"ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم إلى تشبيه مصيب تام ، وفي معنى غريب عجيب . . أو في لفظ بديع مخترع ، إلا وكل من جاء بعده من الشعراء أو معه إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره فإنه لا بد أن يستعين بالمعنى ، ويجعل نفسه شريكا" فيه "(٢) .

وعلى أساس هذا الموقف النقدي الواضح وجدناه ينظر إلى سرقات البلغاء والكتاب ويفرق بين آثار الثقافة والاكتساب ، وعلامات السرقة والاغتصاب فيقول : " وسماع الألفاظ ضار ونافع : فالوجه النافع أن يدور في مسامعه ، ويغيب في قلبه ، ويخيم في صدره ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت وكانت نتيجتها أكرم نتيجة ، وثمرتها أطيب ثمرة ، لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة على فقر ، إذ بين القصد إلى شيء بعينه والاعتماد عليه دون غيره ، وبين الشيء إذا عشعش في الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختارا" واللفظ اعتسافا" واغتصابا" فرق بين . ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال وعلى السرقة والاحتيال لم ينل طائلا "(٣) ، ولذلك فقد عد حفظ الكتاب لجملة من الألفاظ أو التعابير المختارة وتضمينها كتبهم

(١) ن.م ١ والبيت في مختار الشعر اللجاهلي ١٦٧/١ وأوله : جمعا بدلا من جيش . ومعضل : ضيق والأكام : ما ارتفع من الأرض ج أكمة .
(٢) الحيوان ٣١١/٣ .
(٣) رسالة المعلمين – مجلة المورد – مج ٧ – ع ٤ ص ١٩٧٨ –ص ١٥٤ .

ورسائلهم ضربا" من السرق لما فيه من دلالة على الاستكراه والتكلف والفقر الثقافي فقال : " والوجه الضار أن يتحفظ ألفاظا" بأعيانها من كتاب بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يريد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني ، فهذا لا يكون إلا فقيرا" وحائفا" وسروقا" ، ولا يكون إلا مستكرها" لألفاظه متكلفا" لمعانيه مضطرب التأليف متقطع النظام ، فاذا مر كلامه بنقاد الألفاظ ، وجهابذة المعاني استخفوا عقله وبهرجوا علمه "(١)

وفي حدود هذه الآراء وقف الجاحظ على سرقات بعض الشعراء والخطباء والبلغاء ونأى عن المبالغة في الاتهام بالسرقة ، وآثر استعمال لفظ الأخذ أو الاحتذاء أو ما يقاربها من الألفاظ للدلالة عليها ، شأنه في ذلك شأن معاصريه من الأدباء ، فروي أن " عبيد الله بن الحسن وفد على المهدي معزيا" ومهنئا" ، وأعد له كلاما" ، فبلغه أن الناس قد أعجبهم كلامه ، فقال لشبيب بن شيبة : إني والله ما التفت إلى هؤلاء ، ولكن سل لي أبا عبيد الله الكاتب عنه ، فسأله فقال : ما أحسن ما تكلم به ، على أنه أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان ، فلقح بينهما كلاما" . فأخبره بذلك شبيب ، فقال عبيد الله : لا والله إن أخطأ حرفا" واحدا" "(٢) وكان الخطباء والكتاب يتأدبون بكلام البلغاء منهم ، ويتأثرون به ، ولا يخفى على النقاد مقدار هذا الأثر وطبيعته ، ولا يجدون فيه كبير عيب عليهم ، كما لم يجد الجاحظ في استعمال بعض ما يجري على ألسنة العرب من الألفاظ والتعابير دليلا" على السرقة أو الاحتذاء فقال : " وصف الخريمي شعر نفسه في مديح أبي دلف حيث يقول :

له كلم فيك معقولة   إزاء القلوب كركب وقوف

ويظنون أن الخريمي إنما احتذى في هذا البيت على كلام أيوب بن القرية حين قال له بعض السلاطين : ماذا أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف . كأنهن ركب وقوف : دنيا وآخره ومعروف " (٣).وفي قوله " ويظنون " إشارة واضحة إلى سوء ظنه بما ذهبوا إليه في ظنهم ، فاستعمل لفظ الاحتذاء للدلالة على ذلك ، وكان يؤثر استعمال لفظ الأخذ في الصريح من السرق ، كقوله في

---

(١) ن.م.ص

(٢) البيان والتبيين ١/١٩٥

(٣) البيان والتبيين ١/١١١ .

الدلالة على بعض السرقات النثرية : " مر عمر بن ذ ر بعبيد الله بن عياش وقد كان سفه عليه فأعرض عنه ، فتعلق بثوبه ثم قال له : يا هناه ، إنا لم نجد لك إن عصيت الله فينا خيرا" من أن نطيع الله فيك . وهذا كلام أخذه عمر بن ذر من عمر بن الخطاب (ر) قال عمر : إني والله ما أدع حقا" لله لشكاية تظهر ، ولا لغضب يحتمل ، ولا لمحاباة بشر ، وإنك والله ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه "(١).

ولم يعن إبراهيم بن المدبر (– ٢٧٩ هـ) بالسرقات في رسالته العذراء، وإن كان قد حذر الكاتب منها في أثناء حديثه عن ثقافته فقال : " ولا تطمع باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم ، فإن ذلك غير مثمر لك ولا مجد عليك ، ومن كان مرجعه إلى اغتصاب ألفاظ من تقدمه والاستضاءة بكوكب من سبقه ، وسحب ذيل حلة غيره ، ولم يكن معه أداة تولد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه الكلام الحر والمعنى الجزل ، فلم يكن من الصناعة في عير ولا نفير "(٢) .

كما لم يول ابن قتيبة (– ٣٧٦ هـ) موضوع السرقات عناية نظرية خاصة ، وإن كان قد أكثر من الإشارة إلى سرقات الشعراء والدلالة على مواضعها وأصولها في بعض كتبه كما أكثر من الإشارة إلى أوجه التشابه في ألفاظ بعض النصوص النثرية ومعانيها ، دون أن ينسب ذلك إلى السرقة ، وإنما كان يكتفي من ذلك بالقول : قال فلان من الخطباء أو الكتاب أو البلغاء ، ثم يردفه بما يشابهه من النثر أو الشعر كقوله : " قال رجل للحسن بن سهل : أيها الأمير ، أسكتني عن وصفك تساوي أفعالك في السؤدد ، وحيرني فيها كثرة عددها فليس إلى ذكر جميعها سبيل ، وأن أردت ذكر واحدة اعترضت أختها ، إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر منها ، فلست أصفها إلا بإظهار العجز عن صفتها . . . وفي مثل ذلك كتب آخر إلى بعض الوزراء : رأيتني فيما أتعاطي من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر الذي لا يخفى على ناظر ، وأيقنت أني حيث انتهى بي القول منسوب إلى العجز ، مقصر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك"(٣) وقد يورد أبياتا" من الشعر ثم يتبعها ما يشابهها ويحذو حذوها من أقوال الكتاب فذكر أنه " حجب رجل فكتب:

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٦٠-٢٦١ والضب : الفيظ والحقد . وأبو ذر عمر بن ذر الهمذاني الكوفي من رؤوس المرجئة (– ١٥٣ هـ) وأبو الجراح عبد الله بن عياش الهمذاني الكوفي المعروف بالمنتوف راوية من ندماء المنصور . وانظر في هذا الضرب من السرقات لدى الجاحظ البيان ٣٠٢/١ و ١٥٤ و ١٧٧ – ١٧٨ ، والحيوان ٢٤٠/٥ .

(٢) الرسالة العذراء ٣٠

(٣) عيون الاخبار ١/٩٥-٩٦

أبا جعفر إن الولاية إن تكن منبلة قوما" فأنت لها نبل
فلا ترتفع عنا لشيء وليته كما لم يصغر عندنا شأنك العزل

وكتب رجل من الكتاب في هذا المعنى إلى صديق له : إن كان ذهولك عنا لدنيا أخضلت عليك سماؤها . . . فإن أكثر ما يجري في الظن بك ، بل في اليقين منك ، أنك أملك لعنانك أن يجمح بك ، ولنفسك أن تستعلي عليك إذا لانت لك أكنافها . . . لأنك لم تنل ما نلت خلسا" و خطفا" ، ولاعن مقدار جرف إليك غير حقك . . . وأيم الله ، لولا ما بليت النفس من الظن بك ، وأن مكانك منها لا يسده غيرك نسخت عنك وذهلت عن إقبالك وإدبارك "(١) .

وقد يتتبع أوجه التشابه بين بعض الخطب الفارسية والعربية كقوله : "قرأت في بعض سير العجم أن أرد شير لما استوسق له أمره جمع الناس وخطبهم خطبة بليغة . . وتكلم متكلمهم مجيبا" فقال : لازلت أيها الملك محبوا" من الله بعزة النصر . . فقد أشرق علينا من ضياء نورك ما عمنا عموم ضياء الشمس، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتصل بأنفسنا اتصال النسيم ، فجمعت الأيدي بعد افتراقها ، والكلمة بعد اختلافها . . . وفي مثله قال خالد بن صفوان لوال دخل عليه : قدمت فأعطيت كلا" بقسطه من نظرك ومجلسك وصلاتك وعد لك حتى كأنك من كل أحد أو كأنك لست من أحد" (٢).

وربما ألمح إلى وجه السرقة في بعض الآراء النقدية ، فذكر الصحيفة الهندية ، وأتبعها قولا" لجعفر البرمكي في البلاغة وقال : " وفي كتاب للهند : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش . . . ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ... ويكون قد تعود حذف فضول الكلام ، وإسقاط مشتركات الألفاظ ... ونحو هذا قول جعفر بن يحيى البرمكي وقيل له : ما البيان ؟ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويحكي عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذي لا بد له منه أن يكون سليما" من التكلف ، بعيدا" من الصنعة ، بريئا" من التعقد "(٣) وقد تجنب في ذلك كله الإشارة إلى مصطلح السرقة أو ما يقاربه ، واكتفى بالدلالة على أوجه التشابه بين معاني هذه النصوص النثرية وغيرها من النصوص .

---

(١) ن.م ٨٨/١
(٢) ن.م ٩٦/١-٩٧
(٣) ن.م ١٧٣/٢ .

وسلك سبيله في ذلك المبرد (-٢٨٥هـ) في الكامل ، فأكثر من ذكر المعاني المشتركة وروايتها على تواليها دون الإشارة إلى وجه السرقة وإن كانت جلية فيها كقوله : " يروى عن الأصمعي أنه قال : هجم علي شهر رمضان وأنا بمكة ، فخرجت إلى الطائف لأصوم بها هربا" من حر مكة ، فلقيني أعرابي فقلت له : أين تريد ؟ فقال : أريد هذا البلد المبارك لأصوم هذا الشهر المبارك فيه ، فقلت : أما تخاف من الحر ؟ فقال : من الحر أفر. وهذا الكلام نظير كلام الربيع ابن خثيم فإن رجلا" قال له – وقد صلى ليله حتى أصبح – أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب . ونظير هذا قول روح بن حاتم – ونظر إليه رجل واقفا" بباب المنصور في الشمس – فقال : قد طال وقوفك في الشمس ، فقال : ليطول وقوفي في الظل وهذا معنى كثير حسن جميل"(١) .

وعلى هذا النحو تتبع كثيرا" مما اشترك فيه البلغاء والشعراء من المعاني ، ودل على أوجه التشابه بينها ، دون أن يرى في ذلك عيبا" عليهم ، بل ربما وجدناه يستحسن تكرار المبتدع الجميل منها كما هو واضح في تعليقه على هذه المعاني المشتركة ، ولم نجد في حديثه عن السرقات ما يسوغ قول د . بدوي طبانة : " إن المبرد أول من فتح باب القول في السرقات في النقد العربي "(٢). وكان قد سبقه إلى فتح هذا الباب والولوج فيه عدد غير قليل من نقاد القرن الثالث ، ولم تكن أحاديثهم عن السرقات الأدبية عامة تتعدى حدود إبداء بعض الملاحظات الوجيزة فيها ، وتحذير الأدباء من التعويل عليها ، ورصد بعض المعاني المشتركة وتتبعها، دون البحث في أصول السرقات وتفصيل القول في شعبها وفروعها وأنواعها ووضع المصطلحات الكثيرة لها ، كما هو الشأن لدى نقاد القرن الرابع .

سرقات الكتاب في نقد القرن الرابع :

وقد بدأ الاهتمام النقدي بهذه الجوانب النظرية في السرقات الأدبية لدى نقاد هذا القرن بربطها بمسألة القدم والحداثة في الأدب ، والاعتراف بحاجة المحدثين من الأدباء إلى الاقتداء بالمتقدمين والاقتباس منهم ، وجعلوا لذلك حدودا" تفصل ما بين السرقة والاحتذاء ، أو الإفادة من معاني المتقدمين ، فاشترطوا التلطف في أخذ المعنىالمبتدع وتناوله ، وكسوته حللا" لفظية جديدة تدل على قدرة الأديب ، وتنفي عنه تهمة السرقة التي أخذت تتميز بأنواعها ومراتبها ومصطلحاتها كما يتجلى ذلك في قول الهمذاني (-٣٢٠ هـ) في مقدمة الألفاظ الكتابية : " ولا

(١) الكامل ١/٣٠٢-٣٠٣ وانظر ٢١٨ و ٢٢٢ ٢٤٣ وغيرها .
(٢) دراسات في نقد الأدب العربي ٢٤٨ .

غنى بالكاتب البليغ ولا الشاعر المفلق ولا الخطيب المصقع عن الاقتداء بـالأولين ، والاقتباس من المتقدمين ، واحتذاء مثال السابقين فيما اخترعوه من معانيهم ، وسلكوه من طرقهم ، كأن الأول لم يترك للآخر شيئا ، فمن أخذ معنى بلفظه فقد سرقه ، ومن أخذه ببعض لفظه فقد سلخه ومن أخذه عاريا" وكساه من عنده لفظا" فهو أحق به ممن أخذه منه "(١)

وقد توسع في ذلك ابن طباطبا العلوي (-٣٢٢هـ) في عيار الشعر، فخص السرقات فيه بصفحات طويلة تحدث فيها عن أصولها ودواعيها ، وطرق تناولها وتلبيسها وإخفائها ، وربطها بمسألة القدم والحداثة في الأدب، فوجد أنها ضربة لازب للمحدثين بعد أن ضاقت عليهم سبل المعاني فقال : " وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ولطفوا في تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم ، وتكثروا بإبداعها فسلمت لهم عند ادعائها "(٢) وفرق بين نوعين من أنواع السرقة وهما الإغارة ، وحسن الأخذ والاستعارة ، وجعل العيب النقدي مقتصرا" على النوع الأول منهما ، فقال موجها" حديثه إلى الشاعر خاصة : " ولا يغير على معاني الشعر فيودعها شعره . . . ويتوهم أن تغييره للألفاظ والأوزان مما يستر سرقته أو يوجب له فضيلة "(٣) .

ووجد في النوع الثاني دليلا" على فضل الشاعر وإحسانه فقال : "وإذا تناول الشاعر المعاني التي سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يعب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه"(٤) ثم مضى يدل على طرق السرق وأساليب تلبيسه وإخفائه ، وجعل حديثه في ذلك عاما" يشمل سائر أنواع السرقات الأدبية في الشعر أو النثر فقال : " ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها ، فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه ، فإذا وجد معنى لطيفا" في تشبيب أوغزل استعمله في المديح ، وإن وجده في المديح استعمله في الهجاء . . . وإن وجد المعنى اللطيف

---

(١) الألفاظ الكتابية – المقدمة / ي .
(٢) عيار الشعر ٨ .
(٣) ن.م ٩ .
(٤) عيار الشعر ص ١٠

في المنثور من الكلام أو في الخطب والرسائل فتناوله وجعلـه شعرا" كان أخفى وأحسن . . . وقيل للعتابي : بماذا قدرت على البلاغة ؟ فقال : بحل معقود الكلام. فالشعر رسائل معقودة والرسائل شعر محلول ، وإذا فتشت أشعار الشعراء كلها وجدتها متناسبة . . ومناسبة لكلام الخطباء وخطب البلغاء وفقر الحكماء"(١). ففتح بذلك باب الحديث عن نثر المنظوم ونظم المنثور ، وكان من أسبق النقاد الذين وصلت إلينا آثارهم إلى هذا الحديث ، ثم فصل فيه القول من أتى بعده من النقاد والبلاغيين.

وكان الاعتماد على الشعر ونثر منظومه أو حل معقودة قد أصبح أسلوبا" شائعا" لدى كثير من الكتاب في العصر العباسي ، إذ وجدوا فيه متسعا" للوفاء بأغراض الكتابة التي اتسعت آفاقها ، وتنوعت مذاهبها وأساليبها في هذا العصر ، فوجدوا في الشعر كنزا" من المعاني والتعابير ، فأخذوا يعتمدون في كثير منها عليه، ولا يكاد يعدل عن ذلك أحد منهم فروى أبو أحمد العسكري (-٣٨٢هـ) عن ابراهيم بن العباس الصولي (-٢٤٣هـ) قوله : " إني ما اتكلت قط في مكاتبتي إلا على ما يجلبه خاطري ، ويجيش به صدري ، إلا قولي : وصاروا ما كان يحرزهم يبرزهم ، وما كان يعقلهم يعتقلهم . وقولي : استنزلوه من معقل إلى عقال، وبدلوه آجالا" من آمال . فإني ألممت بقول مسلم :

موف على مهج في يوم ذي رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل

وبقول أبي تمام :

فإن تبن حيطانا" عليه فإنما ... أولئك عقالاته لا معاقله (٢)

وقد أولى العسكري السرقات النثرية عناية خاصة ، فأطال الوقوف عند سرقات كثير من البلغاء والكتاب وأورد منها أطرافا" كثيرة تدخل بمجملها في بابين رئيسيين : السرقة من الشعر، كما يتجلى في المثال السالف ، والسرقة من النثر كقوله : " كان يحيى بن خالد البرمكي يقول : ما أحد رأى في ولده

(١) ن.م ٧٧ .
(٢) المصون ٢٢٧ والخبر في وفيات الأعيان ٤٤/١ وانظر أخبار أبي تمام ١٠٢ وديوان مسلم ٩ وديوان أبي تمام ٢٨/٣ .

ما أحب إلا رأى في نفسه ما يكره . أخذه من قول أكثم بن صيفي : من سره بنوه ساءته نفسه"[1] وقد يتتبع السرقة لدى أكثر من واحد من البلغاء فيورد أصولها وفروعها كقوله[2] : " كتب اسماعيل بن صبيح إلى بعض الرؤساء : في شكر ما تقدم من إحسان الأمير شاغل عن استبطاء ما تأخر منه . فأخذه أحمد بن يوسف فكتب إلى بعضهم: أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك من لم يخل ساعة من برك وقت فراغك . ثم أخذه من أحمد بن يوسف سعيد بن حميد فكتب : لست مستقلا بشكر ما مضى من بلائك فأستبطيء درك وما أؤمل من مزيدك . ثم أخذه حمد بن مهران فكتب في فصل : ولئن تعذرت حاجتي قبلك ، لطالما تيسر لي أمثالها عندك ، ولست أجمع إلى العجز عن شكر ما أمكن التسرع إلى الاستبطاء فيما تعذر. أخذ هذا كله من قول علي بن أبي طالب (ر) : لا تكونن كمن يعجز عن شكر ما أوتي ويبغي الزيادة فيما بقي . "

وتابع أبو هلال العسكري (– ٣٩٥ هـ) خاله أبا أحمد العسكري في الاهتمام بالسرقات ، وأولى السرقات النثرية عناية خاصة ، فوقف على سرقات بعض الكتاب من الشعر أو النثر أو منهما معا" في آن واحد فذكر في الأوائل أن أحمد بن يوسف بعث في النيروز إلى المأمون بهدية وكتب فيها : هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف السادة ، وقد قلت :

على العبد حق فهو لابد فاعله وإن عظم المولى وجلت فضائله

وقد عول سعيد بن حميد على هذا المنظوم والمنثور فكتب إلى أبي صالح ابن يزداد ، وكان خلفه على ديوان الرسائل : النفس لك ، والمال منك ، والجاه موقوف عليك ، والأمل مصروف إليك ، فما عسانا نهدي لك في هذا اليوم ، وهو يوم قد شملت فيه العادة الأتباع الأولياء بإهدائهم السادة العظماء ، قال أحمد بن أبي طاهر : أخذ صدر هذا الكلام من المعلي بن أيوب للمعتصم وقد طلب منه مالا" : النفس لأمير المؤمنين ، والمال منه ، وليس فيما أوجبه الحق نقيصة ، ولا على أحد منا فيه غضاضة . وباقيه من كلام أحمد بن يوسف وغيره . حتى لو ألحق كل كلام بصاحبه لعري منه سعيد فلم يكن له إلا تأليفه "[3] .

---

(١) المصون ١١٦

(٢) المصون ٦٥ وانظر ٢١٠ .

(٣) الأوائل ٢/١٠١-١٠٢ والبيت مع بيت آخر في نثر النظم للثعالبي ٩٨ .

وكان سعيد بن حميد كثير التعويل على غيره في كتبه ورسائله ، فأكثر النقاد من تعقب سرقاته ، وروى الأصبهاني عن ابراهيم بن المدبر قوله : " كانت فضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطا" وأفصحهم كلاما" ... فقلت يوما" لسعيد : أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتقيدها وتخرجها ، فقد أخذت نحوك في الكلام وسلكت سبيلك . فقال وهو يضحك : ما أخيب ظنك ، ليتها تسلم مني ولا آخذ كلامها ورسائلها والله يا أخي لو أن أفاضل الكتاب وكبراءهم وأمثالهم أخذوا عنها لما استغنوا عن ذلك "(١) وكانوا يقولون : " لو قيل لكلام سعيد وشعره : ارجع إلى أهلك لما بقي معه شيء "(٢) وكان سعيد من أشهر كتاب العصر العباسي وأقدرهم .(٣)

وقد خصص أبو هلال العسكري الباب السادس من الصناعتين للسرقات الأدبية عامة وجعل عنوانه : " حسن الأخذ وقبيحه ، ولخص فيه مجمل ما انتهت إليه آراء النقاد في هذا الموضوع ، وردد أكثر أقوالهم فيه، وبدأه بالحديث عن ضيق سبل المعاني على المتأخرين وحاجتهم إلىالتعويل علىأسلافهم فيها واشترط لذلك - كسلفه الهمذاني - إعادة صياغتها وكسوتها فقال مرددا" كلامه : " وليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا" من عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حلتها الأولى . . . فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها . . . فمن أخذ معنى بلفظه كان له سارقا" ، ومن أخذه ببعض لفظه كان له . وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم ، فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بلفظه كله أو أخذه فأفسده "(٤).

وعلى ذلك نراه يفرق بين حسن الأخذ وقبيحه ، ويقسم ما يتصل بالنثر من أولهما إلى : اتباع المنثور ، والمنظوم ، وضرب لهما أمثلة كثيرة كقوله : " ومن حسن الاتباع قول ابراهيم بن العباس الصولي حين كتب : إذا كان للمحسن من

---

(١) الإماء الشواعر ٦٦ والخبر في الأغاني ١٨/١٦٧ وفضل جارية المتوكل وكانت شاعرة أديبة فصيحة ولها مع سعيد بن حميد أخبار كثيرة ومكاتبات ، وانظر أخبارها في الإماء الشواعر ٤٩-٧١ والأغاني ١٩/٣٠٠-٣١٤ .

(٢) الفهرست ١٣٧ وفي زهر الآداب ٢/١٠٢٩ " لو رجع كلام كل أحد إلى صاحبه لبقي سعيد بن حميد ساكتا " .

(٣) وهو أبو عثمان سعيد بن حميد بن سعيد أصله من النهروان من أولاد الدهاقين وولد ببغداد وكان كاتبا شاعرا قلده المستعين ديوان الرسائل (- ٢٥٠ هـ) وانظر في أخباره الاغاني ١٨/١٥٥-١٦٧.

(٤) كتاب الصناعتين ٢٠٢ - ٢٠٣ .

الثواب ما يقنعه ، وللمسيء من العقاب ما يقمعه ، ازداد المحسن في الإحسان رغبة ، وانقاد المسيء للحق رهبة . أخذه من قول علي (ر) : يجب على الوالي أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسيء ، ثم لا يترك واحدا" منهما بغير جزاء ، فإن ترك ذلك تهاون المحسن واجترأ المسيء وفسد الأمر وضاع العمل . وسمع بعض الكتاب قول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فكتب : ولو أمسك لساني عن شكرك لنطق على أثرك . وكتب في فصل آخر : لو جحدتك إحسانك لأكذبتني آثاره ، ونمت علي شواهده "(١) . وأفضت به هذه الأمثلة إلى الحديث عن حل المنظوم فقسمه الى أربعة أضرب : " فضرب منها يكون بإدخال لفظة بين ألفاظه ، وضرب ينحل بتأخير لفظة وتقديم أخرى فيحسن محلوله ويستقيم ، وضرب ينحل على هذا الوجه فلا يحسن ولا يستقيم ، وضرب تكسو ما تحته من المعاني ألفاظا" من عندك ، وهو أرفع درجاته "(٢) وأورد على ذلك كله جملة من الأمثلة التطبيقية ، وانتقل إلى قبيح الأخذ الذي يعد سرقة لديه وقال في حده :" قبيح الأخذ أن تعمد إلى المعنى فتتناول بلفظه كله أو أكثره ، وتخرجه في معرض مستهجن ، والمعنى إنما يحسن بالكسوة . . . فما أخذ بلفظه ومعناه وادعى آخذه أو ادعي له أنه لم يأخذه ، ولكن وقع له كما وقع للأول ، كقول أبي عمرو : عقول رجال توافت على ألسنتها . . . والأخذ إذا كان كذلك كان معيبا" ، وإن ادعي أن الآخر لم يسمع قول الأول ، فإن صحة ذلك لا يعلمها إلا الله"(٣) وختم هذا الباب بالتباهي بسبقه إلى تفصيل القول في السرقات وتفتيق شعبها وفروعها فقال: " وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية ، ولا أعلم أحدا" ممن صنف في سرق الشعر فمثل بين قول المبتديء وقول التالي ، وبين فضل الأول على الآخر، والآخر على الأول ، إنما كانت العلماء قبلي ينبهون على مواضع السرق فقط "(٤) وكان معاصره الحاتمي قد ادعى ذلك أيضا" .

وقد استأثر موضوع السرقات باهتمام الحاتمي (-٣٨٨هـ) فاستغرق معظم جهوده النقدية كما تدل على ذلك كتبه ورسائله ، فتناول سرقات المتنبي بكتابين

---

(١) كتاب الصناعتين ٢٢٠ والبيت في عيون الأخبار ٢٩٩/١ والأغاني ٣٣٧/١ من قصيدة له في مدح سليمان بن عبد الملك . ونصيب بن رباح من فحول شعراء بني أمية وكان أسود وانظر أخباره في الأغاني ٣٢٣ - ٣٨١ و ١٢٠/٦-١٢٥ و ١١٣/١٢-١٢٥ .
(٢) كتاب الصناعتين ٢٢٢-٢٢٣ وانظر ١٠٩ .
(٣) ن.م ٢٣٥ .
(٤) ن.م ٢٤٣ .

متواليين كما مر بنا قبل قليل ، وخصص جزءا" من كتابه المفقود " الحالي والعاطل في نقد الشعر"(١) للسرقات كما يدل على ذلك حديثه عن هذا الكتاب في حلية المحاضرة ، وقد انصبت جهوده في هذه الكتب على الجوانب التطبيقية في السرقات الشعرية ، وخص الجانب النظري بباب مطول في حلية المحاضرة تناول فيه أنواعها ومراتبها ومنازلها ومصطلحاتها وقال في صدره : " هذا فصل أودعته فقرا" من أنواع الاحتيال والاختزال والاقتضاب والاستعارة والإحسان في السرق والإساءة فيه ، والنقل والعكس والتركيب والاهتدام والسابق واللاحق والمبتدع والمتبع، وغير ذلك مما يفتقر الأديب المرهف إلى مطالعته ، وجمعت من شتات ذلك مؤونة الطلب والجمع ، وفرقت بين أصناف ذلك فروقا" لم أسبق إليها ، ولا علمت أن أحدا" من علماء الشعر سبقني في جمعها(٢).

وأتى بعد ذلك على ذكر عشرين نوعا" من أنواع السرق المختلفة وعرف كل نوع منها تعريفا" دقيقا" ، ومثل له بعدة أمثلة ، وصارت هذه الأنواع بمصطلحاتها وشواهدها وحدودها أصلا" معتمدا" لدى معظم من أتى بعده من البلاغيين والنقاد ، وإن كان قد بالغ في ذلك مبالغة شديدة ، فأغرق في التشعيب والتفريع والاصطلاح ، وقد لاحظ ذلك صاحب العمدة فقال في صدر الباب الذي خصصه للسرقات : " وهذا باب متسع جدا" لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعي السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة إلا على البصير الحاذق بالصناعة ، وأخرى فاضحة لا تخفى على الجاهل . وقد أتى الحاتمي في حلية المحاضرة بألقاب محدثة تدبرتها ، وليس لها محصول إذا حققت : كالاصطراف والاجتلاب والانتحال والاهتدام والإغارة والمرافدة والاستلحاق ، وكلها قريب من قريب ، قد استعمل بعضها في مكان بعض غير أني ذاكرها على ما خيلت فيما بعد "(٣) ومع ذلك تابع الحاتمي في أكثر ما أورد من أنواع السرق ومصطلحاته وشواهده اذ كانت هذه الأنواع والمصطلحات قد أصبحت أصلا" معتمدا" لدى معظم النقاد والبلاغيين في السرقات الأدبية عامة ، وإن كان اهتمامه فيها قد انصب على الشعر فحسب ،

---

(١) حلية المحاضرة ٨١/٢٥ وانظر معجم الأدباء ١٥٦/٨ .

(٢) حلية المحاضرة ٢٨/٢ .

(٣) العمدة ١٠٣٧/٢ والاصطراف لدى الحاتمي ٦١/٤ أن يصرف الشاعر إلى شعره أو قصيدته بيتا أو أكثر من شعر غيره ، وهو لدى صاحب العمدة ١٠٤٠/٢ : اجتلاب أو استلحاق وانتحال .والاجتلاب عند الحاتمي ١٦٠/٢ اصطراف على سبيل التمثل والتضمين ، والانتحال لديه ٣٠/٢ أن ينسب الشاعر إلى نفسه شعر غيره . وأما الاهتدام عند الحاتمي ٦٤/٢ وابن رشيق ١٠٤٨/٢ فهو تغيير الألفاظ في المسروق . والإغارة عند الحاتمي ٣٩/٢ بأن يعجب الشاعر بالبيت أو الأبيات من شعر غيره فيأخذه مصافحة أو قسرا . وفرق ابن رشيق بينها وبين الغصب فعده نوعا" مستقلا" ١٠٤١/٢ والمرافدة عندهما ٤٩/٢ و ١٠٤٦/٢ استعانة الشاعر بغيره من معاصريه كي يرفده بابيات من شعره يضيفها الى قصيدته . والاستلحاق هو الانتحال لدى الحاتمي ٣٠/٢ .

وزاد عليها ابن رشيق فصلا" في حل الشعر وقال إنه من " أجل السرقات"[١] واقتصر في التمثيل له على شاهدين فحسب فقال : " وأخذ الكتاب قولهم : قدمت قبلك ، من قول الأقرع بن حابس ، ويروى لحاتم :

اذا ما أتى يوم يفــرق بيـــننا   بموت فكن أنت الذي تتأخر

وقولهم : وأتم نعمته عليك ، من قول عدي بن الرقاع العاملي :

صلى الإله علىأمريء ودعته   وأتم نعمتــه عليه وزادهـــا

فما جرى هذا المجرى لم يكن فيه على سارقه جناح عند الحذاق وفي أقل مما جئت به كفاية "[٢] مشيرا" بذلك إلى عقم الحديث في باب السرقات عامة .

وقد لاحظ أبو حيان التوحيدي (نحو٤٠٠هـ) إغراق معاصريه في هذا الباب وكثرة تتبعهم لما تشابه من معاني الأدباء وألفاظهم ونسبتهم ذلك إلى السرق فقال : " وما أكثر أن يقال : أخذ فلان من فلان ، وأغار فلان على فلان ، والخواطر تتلاقى وتتواصل كثيرا" والعبارة تتشابه دائما" ، ومن عرف قوى الطبيعة وأسرار العقل لم يستكثر توارد لسانين على لفظ ، ولا تسانح خاطرين على معنى"[٣] ودعا الخطباء والكتاب إلى الاستعانة بالقصار من الحكم البليغة ، ومصاريع أبيات الشعر منثورة أو منظومة ، ولم ير في ذلك عيبا" عليهم فقال على لسان بعض شيوخه : " وما أحسن معونة الكلمات القصار المشتملة على الحكم الكبار لمن كانت بلاغته في صناعته بالقلم واللسان ، فإنها توافيه عند الحاجة ، وتستصحب أخواتها على سهولة ، وهكذا مصاريع أبيات الشعر، فإنها تختلط بالنثر متقطعة وموزونة ، ومنتثرة ومنضودة "[٤] ومع ذلك فقد أطال الوقوف عند سرقات كثير من الشعراء والكتاب في كثير من كتبه ورسائله ، ومما يتصل بالنثر منها قوله : " قال ابن هرمة :

---

(١) العمدة ١٠٥٨/٢ .
(٢) العمدة ١٠٥٩/٢ والبيت الأول في ديوان حاتم ٦١ من أبيات يخاطب بها وهم بن عمرو والبيت الثاني في كفاية الطلب ١٢٤ وعدي بن زيد بن مالك بن الرقاع العاملي من شعراء بني أمية . وانظر أخباره في الأغاني ٣٠٧/٩ - ٣١٧ . والأقرع بن حابس التميمي : من سادات قومه وشعرائهم في الجاهلية ، وفد على النبي (ص) وأسلم وأستشهد في إحدى الغزوات (- ٣١ هـ).
(٣) البصائر والذخائر ١١٣/١ .
(٤) الإمتاع والمؤانسة ١٤٦/٢ .

جعلوا الألي سبقوا إليك فرشتهم   للآخرين معالما" وسبيلا

فأخذ هذا المعنى الحسن بن وهب وكتب إلى بعض العمال : إن حسن ثناء الصادرين إلينا عنك يزيد في عدد الواردين عليك من قبلنا "[١] ولم تنج بعض أرائه في سرقات بعض الكتاب من معاصريه من آثار العصبية والهوى ، فاتخذ منها سبيلا" للطعن فيهم والغض منهم ، دونما أدلة أو شواهد تؤكد صحة كلامه كقوله عن الصاحب بن عباد " وهو كثير السرقة ، سيء الاتفاق ، رديء القلب والعكس"[٢] وقوله عن أبي الفضل بن العميد وابنه أبي الفتح : " وأول من أفسد الكلام أبوالفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ ، وظن أنه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه . . . وأما ابنه ذو الكفايتين . . . فقد تشبه بالجاحظ فافتضح في مكاتباته لأخوانه ، ومجانبته في رسائله لمعلمه التي دلتنا على سرقاته وإغاراته ، وسوء تأتيه في تستره وتغطيته "[٣] وكان يعجب بقدرة الأديب على إخفاء السرق وتغطيته ومن ذلك قوله عن السلامي : " وهو حلو الكلام متسق النظام ، كأنما يبسم عن ثغر الغمام ، خفي السرقة ، لطيف الأخذ واسع المذهب "[٤].

كما وقف صاحب اليتيمة على سرقات بعض الكتاب من معاصريه وخصص بعض فصولها للكشف عن " حل الصاحب بن عباد وغيره نظم المتنبي، واستعانتهم بألفاظه ومعانيه في الترسل "[٥] وعمد إلى تأليف كتاب في " نثر النظم وحل العقد " نثر فيه أبياتا" كثيرة جدا" من أشعار الشعراء ، وجعله مثلا" يحتذى لدى الكتاب وقدوة ، ولم يكن يرى في ذلك عيبا" على الكاتب ، فأورد في اليتيمة أمثلة كثيرة من كلام الصاحب وما يقابله من شعر المتنبي وقال : " وليس هو بأوحد في الاقتباس من كلامه ، وهذا أبو إسحاق الصابي رسيله في ذلك وزميله ، وقد قرأت له غير فصل فيما أشرت إليه ونبهت عليه . . . وإذا كان هذان الصدران المقدمان على بلغاء الزمان يقتبسان من أبي الطيب في رسائلهما، فما الظن بغيرهما ؟ وما أحسن قول الشاعر :

---

(١) البصائر والذخائر ٢٧٥/١ وابن هرمة ابراهيم بن علي الفهري من شعراء الدولتين ، وله في خلفاء بني أمية مدائح كثيرة الأغاني ٣٦٧/٤-٣٩٧ و ٢٥٩/٥-٢٦٥ و ١٠٢/٦-١١٦.
(٢) الإمتاع والمؤانسة ٦٢/١ . (٣) ن.م ٦٦/١ . (٤) ن.م ١٣٤/١ . (٥) يتيمة الدهر ١٢٢/١-١٢٨ .

ألا إن حل الشعر زينة كاتب ولكن منهم من يحل فيعقد(١)

وقد روى الراغب الأصبهاني عن الصاحب قوله في صدر بعض رسائله: الحمد لله الذى لم يوجب في سرقة الكلام قطعا" ، ولم يفرض لمنتحله حدا" "(٢) بيد أنه – مع ذلك – لم يكن يرضى أن يستعين أحد ببعض ألفاظه ومعانيه وإن كان ذلك على سبيل التقرب منه أو التودد إليه ، فروى الثعالبي أن بعض الكتاب " كتب إلى الصاحب رقعة وقد أغار فيها على رسائله ، وسرق جملة من ألفاظه فوقع فيها: هذه بضاعتنا ردت إلينا"(٣).

ومن خلال ذلك كله نجد أن اهتمام النقاد بالسرقات النثرية لم يكن معدوما" أو ضعيفا" كما ذهب إلى ذلك بعض الدارسين(٤) ، وإن كانت عنايتهم بالسرقات الشعرية ، وخاصة في ميدان الدراسة التطبيقية أوسع من عنايتهم بسرقات النثر ، بيد أن آراءهم فيها كانت – كما لا حظنا – عامة تشمل سائر أنواع السرقات الأدبية التي بدأ الحديث النقدي عنها خافتا" في القرن الثالث ، فلم يكن يتعدى حدود الإشارة إلى سرقات بعض الشعراء أو الكتاب أو الخطباء والتنبيه عليها ، والتحذير من التعويل على السرقة في الشعر أو النثر ، ثم تطور هذا الحديث تطورا" واسعا" جدا" في القرن الرابع ، فاستأثر باهتمام عدد كبير من النقاد ففصلوا القول في أنواع السرقات ومراتبها ومنازلها ومصطلحاتها ، ولم يروا في التعويل على معاني السابقين عيبا" على الأديب ، واشترطوا لذلك حسن الأخذ والتلطف فيه ، وإعادة صياغة تلك المعاني وكسوتها حللا" لفظية جديدة ، وفسحوا المجال واسعا" للاستعانة بالشعر ، وسموا ذلك : نثر المنظوم أو حل المعقود الذي أكثر المتأخرون من الكتاب خاصة من التعويل عليه ، فكان ذلك سببا" في عقم الإبداع الأدبي في النثر الفني وجموده ، كما كان للتوسع في حديث السرقات الأدبية وتفتيق شعبها وفروعها وكثرة رصدها وتتبعها أثر كبير في التحول بهذه القضية عن مجراها الأصلي ، وغايتها الأساسية التي تتجلى في الكشف عن أصالة الأعمال الأدبية وجدتها وحفظ حقوق أصحابها الإبداعية فيها ، ورسم الحدود التي يمكن أن تفصل بين المجال الثقافي للأديب ، وميدان السرقة والإغارة والانتحال .

---

(١) ن.م ١٢٦/١-١٢٧ وروي هذا البيت في نثر النظم ٤ ونسبه إلى الصاحب بن عباد د. وفيه : رتبة بدلا من زينة . (٢) مجمع البلاغة ١٢٥/١ . (٣) يتيمة الدهر ١٩٧/٣ . (٤) النثر الفني ١٧/١ .

الفصل الثالث

النقد التوثيقي

- تمهيد
- رواية النصوص النثرية وتدوينهَا
- مقدمة ابن سلام والنقد التوثيقي
- النقد التوثيقي للنصوص النثرية والكتب

الفصل الثالث

النقد التوثيقي

يعد النقد التوثيقي أساسا" لكل دراسة أدبية أو نقدية سليمة لما له من صلة بمواد هذه الدراسة : نصوصها وأخبارها ومصادرها التي لا بد أن يصادف الدراس أو الناقد فيها بعض المشكلات المتعلقة بدقة نقلها وضبطها، وما يمكن أن يكون قد طرأ عليها من ضروب العبث والتغير والاختلاط والنحل وغيرها ، دون أن يكون صاحب النص مسؤولا" عنها ، وإنما ترتبط مسؤوليتها باسباب كثيرة ، ينبغي على الدارس الكشف عنها معتمدا" على منهج علمي محدد ودقيق ، ومستعينا" بأدوات ثقافية كثيرة ومتنوعة ، ومهتديا" بخبرته وفطنته وذكائه ، ولهذا عد النقد التوثيقي من أعسر أشكال النقد وأهمها .

وكانت صلة نقادنا القدماء بهذا النوع من النقد وثيقة على الدوام ، وارتبطت نشأته عندهم بجمع تراثهم الثقافي وتدوينه ، وكان للحديث النبوي الشريف والمشتغلين به أكبر الأثر في نشأته وتطوره ، فتقفى نقاد الأدب ورواته آثار المحدثين ، واستمدوا منهم مجمل قواعدهم وأساليبهم في نقد المرويات والأسانيد والجرح والتعديل وغيرها من أصول النقد التوثيقي على الرغم مما بين رواية الحديث والرواية الأدبية من تباين واختلاف .

رواية النصوص النثرية وتدوينها :

ومن المعروف أن النصوص الأدبية القديمة لم تكن - على الأغلب الأعم- مدونة في صحيفة أو كتاب ، وإنما كان العرب يتناقلونها جيلا" بعد جيل عن طريق الرواية الشفوية فكانت لذلك عرضة للضياع والنسيان والاختلاط والتغيير والنحل بفعل عوامل مختلفة ، يتصل بعضها بطبيعة الرواية الشفوية ، ويتعلق بعضها الآخر بالرواة والتكسب والعصبيات وغيرها من عوامل فساد النصوص المروية وأسبابها ، ومن الطبيعي أن يكون حظ النثر من ذلك أوفر من الشعر ، لما خص به الشعر من الوزن والتقفية ، مما ييسر أمر حفظه وروايته

ومن هنا شك كثير من الدارسين في إمكان حفظ النصوص النثرية المروية ، وصحة نقلها وروايتها(١) .

وعلى الرغم من قوة أسباب هذا الشك ودواعيه ، إلا أنه لا ينبغي أن يحول دون البحث في تاريخ تدوين النصوص النثرية عند العرب ، وقد مر بنا من قبل أنهم استعملوا الكتابة - وإن لم تكن فاشية فيهم - في تدوين بعض النصوص النثرية كالحكم والامثال والقصص والأسمار على قلة ذلك وندرته (٢) ، وقد وصل إلى أيدي بعض الرواة والمؤلفين بعد الإسلام بعض الصحف المدونة أو الكتب التي تشتمل على أطراف من أخبار العرب ، واعتمدوا عليها في تآليفهم الكثيرة التي ضمنوها أشعارهم وأمثالهم وخطبهم وأسمارهم وغيرذلك من علومهم وآدابهم، فروي عن ابن الكلبي(-٢٠٦هـ) قوله : " كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر من عمل لهم لآل كسرى من بيع الحيرة "(٣) ، وقد ظلت بعض هذه الصحف المدونة محفوظة إلى زمن متأخر ، إذ كانوا يتوارثونها ويعدونها من الذخائر النفيسة ، فذكر أبو حيان التوحيدي أن " رجلا" دخل على ابن الجصاص (-٣٧٠هـ) وهو يقرأ في مصحف قديم ، فاستحسن خطه فقال : ما بقي اليوم من يكتب مثل هذا الخط فقال : هذا كتب منذ خمسمائة سنة "(٤) ولعله بالغ في ذلك .

وقد أورد بعض الدارسين أدلة كثيرة على اعتماد بعض أوائل المؤلفين على هذه الصحف الموروثة أو الكتب ، وتعويلهم عليها في تآليفهم(٥)، وإن كنا

---

(١) انظر مثلا تاريخ الأدب العربية لنالينو ٩ - ٩٧ ، وأصول النثر العربي لمارسيه في مجلة التراث العربي ع ١٨ س ١٩٨٥ ص ٩٠ - ٩٥ ، وتاريخ الأدب العربي لبلاشير ٣٨٢ و ٣٩٧ خاصة والأدب الجاهلي ٨٣ ومن حديث الشعر والنثر ٢٤ - ٢٥ لطه حسين ، وأدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام للبستاني ٤٣ ، وأمراء البيان لكرد علي ١ ، وتطور الأساليب النثرية للمقدسي ٢٣ . وانظر آراء مغايرة في : الأدب العربي وتاريخه لهيورد ٥٨ - ٨٨ ، وبروكلمان ١٢٨/١ - ١٣١ والنثر الفني لزكي مبارك ٣٧ ومصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد ١٠٧ ، وسزكين ٣/٢/١ وما بعدها ، والفصل الثاني من كتابنا : فصول في النقد العربي وقضاياه - ص ٦١ .

(٢) انظر مصادر الشعر الجاهلي ٢٣ وبروكلمان ٦٣/١

(٣) تاريخ الطبري ٣٧/٢ .

(٤) البصائر والذخائر ٢٤٥/١ .

(٥) تاريخ التراث العربي ٣/٢/١-٨٤. واعتمد في ذلك على أسانيد المتأخرين إذ هي عنده "تشير منذ البداية الى نصوص مدونة" ٦/٢/١. وفي ذلك نظر . كما استنتج من بعض أقوال الجاحظ في الحيوان أن "هنالك أربعة عشر عالما صنفوا كتبا من الأنساب معظمهم عاش قبل الإسلام أو وقت ظهوره" وقال أيضا إن الجاحظ ذكر للنخار بن أوس (-٦٠هـ) ولورقاء بن الأسعر من الصحابة كتبا في الأمثال". ولم نجد في كلام الجاحظ ما يدل على ذلك. وانظر الحيوان ٢٠٩/٢ و٣٢٣/٣ وسزكين ١٣/٢/١ ثم ٣٦و٣٧.

نعتقد أن تدوين أخبار العرب وآدابها لم يبدأ بصورة فعلية إلا بعد الإسلام، إذ قام بعض المخضرمين الذين عاشوا الشطر الأكبر من حياتهم في الجاهلية بتدوين بعض الكتب التي تشتمل على كثير من النصوص النثرية القديمة ، وعلى رأسهم كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الأحبار (- ٣٢هـ) الذي دون بعض القصص والأسمار والخرافات المعروفة في الجاهلية وصدر الإسلام وإن كانت مشربة ببعض المؤثرات الأجنبية مثل "سيرة الإسكندر وما فيها من العجائب والغرائب" و " حديث إفراقيسون بنت الملك " و" حديث حمامات الذهب " وحديث ذي الكفل " (١) ، كما نقل إلينا عبيد بن شرية الجرهمي (نحو ٦٥هـ) أطرافا" أخرى من خرافات العرب وأسمارهم وحكمهم وأمثالهم التي ضمنها أخباره المعروفة(٢) ، وكان من كبار المعمرين المخضرمين ، ومن بقايا من مضى منهم(٣) ، فبعث معاوية بن أبي سفيان (-٦٠هـ) إليه " وقال له : إني أردت اتخاذك مؤدبا" وسميرا" .... فكان يقصر عليه ليله ... وأمر أهل ديوانه أن يوقعوا [كلامه] ويدونوه في الكتب"(٤).

وكان معاوية مغرما" بسماع أخبار العرب وغيرهم لاكتساب الخبرة بالحكم والمعرفة ، ويبدو أنه قد أمر بتدوين بعض هذه الأخبار ، وكان يقرؤها عليه غلمان موكلون بذلك ، فروي أنه "كان يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها .... ثم يدخل فينام ... ثم يقوم فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها ... فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها"(٥) وجرى على هذه السنة بعض خلفائه ، فكانوا يكلفون بعض قدماء الكتاب بتدوين المصاحف والشعر والأخبار ، فذكر ابن النديم أن سعد خصة كان يكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبدالملك"(٦) (ولي٨٦-٩٦هـ).

---

(١) تاريخ التراث العربي ١٢٢/٢/١ وذكر أصولها الخطية ، وقال "إن حديث ذي الكفل طبع في بولاق ١٢٨٣ هـ" ولم أقف عليه. ووقفت في مخطوطات الظاهرية بدمشق ١٠٢٥٢ على قصة الاسكندر في ستة أجزاء مجهولة المؤلف.

(٢) طبعت في حيدرآباد ١٣٤٧هـ ثم في صنعاء ١٩٧٩م مع كتاب التيجان لوهب بن منبه (-١١٠هـ) في مجلد واحد. وتبدأ "أخبار عبيد بن شرية" في الطبعة الأخيرة ص ٣٢٣.

(٣) وفي الفهرست ١٠٢ أنه "أدرك النبي ..... ووفد على معاوية (-٦٠هـ) .... وعاش الى أيام عبدالملك (ولي ٦٥هـ)" وفي معجم الأدباء ٧٣/١٢ أنه "عاش ثلاثمائة سنة وقيل مائتين وعشرين" وفي إيضاح المكنون ٢٧٢/٤ أنه " أدرك أيام عبدالملك" وفي المطبوع من أخباره ٣٢٦ قوله "أتى علي مائة وخمسون سنة" وعلى ذلك فينبغي ألا يكون قد جاوز الستين ومائة عام عند موته.

(٤) أخبار عبيد بن شرية - ذيل كتاب التيجان ٣٢٥-٣٢٦ والنص نفسه تقريبا في الفهرست ١٠٢ ويبدو أنه قد نقله من صدر أخباره وانظر المعارف لابن قتيبة ٥٣٤.

(٥) مروج الذهب ٤٠/٣-٤١

(٦) الفهرست ٩

وألف عبيد بن شرية في هذه المدة المبكرة أيضا" كتابا" في "الأمثال" (١) ، وأصبح هذا الكتاب مصدرا" لدى من أتى بعده من المؤلفين في هذا الفن، وعده الميداني في رأس قائمة المصادر التي اعتمد عليها في تأليف "مجمع الأمثال" ، وأشار إلى اشتماله على بعض ما يتصل بالأمثال الواردة فيه من قصص وأسباب، وذكر معه عددا" آخر من أوائل الكتب المؤلفة في الأمثال فقال : "وجمعت .... من القصص والأسباب ما يوضح الغرض مما جمعه عبيد بن شرية وعطاء بن مصعب والشرقي بن القطامي وغيرهم"(٢) كما ألف صحار بن عياش العبدي (-٤١هـ) كتابا" في "الأمثال" وكان صحار من الصحابة المخضرمين الذين أدركوا خلافة معاوية (٤١-٦٠هـ) على حين أدرك معاصره علاقة بن كرشم الكلابي خلافة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ) وكان في جملة ندمائه وسماره ، وألف كتابا" في "الأمثال"(٣) قال ابن النديم " إنه في نحو خمسين ورقة وقد رأيته"(٤).

وسواء أكان بعض ما في هذه الكتب المدونة من قصص وأسمار وحكم وأمثال وأقوال من صنع مؤلفيها ، أم مما رووه عن غيرهم ، فإنها تمثل بعض صور النثر العربي القديم في الجاهلية وصدر الإسلام التي لايرقى الشك إليها، ما دامت هذه الكتب صحيحة النسبة إلى أصحابها ، وقد وصل إلينا عدد منها، وذكرها عدد كبير من قدماء المؤلفين ، واعتمدوا عليها مصادر أساسية في تأليف كتبهم الكثيرة التي ضمنوها ألوانا" مختلفة من فنون النثرالعربي القديم ، كما اعتمدوا على بعض المصادر المدونة الأخرى التي يعود بعضها إلى زمن النبي (ص) وخلفائه ، إذ كانت أكثر كتبهم ورسائلهم وعهودهم مدونة ومحفوظة ، وكان المسلمون يتوارثون أصولها ويتناقلونها جيلا" بعد جيل ، لما لها عندهم من أهمية دينية وتاريخية وأدبية ، وقد وصل إلى أيدي أوائل الرواة والمؤلفين كثير منها ، فذكر التوحيدي عن بعض الرواة قوله "دفع إلينا سليمان بن داوود صحيفة فيما كان صار الى أيوب من كتب أبي قلابة .... فيها كتب من النبي وكتب من أبي بكر وكتاب من عثمان إلى أهل البصرة في شأن المصاحف وما جمع منها ، وكتب كثيرة من عمر إلى عماله"(٥).

وقد وقف ابن النديم على مجموعة ضخمة من الصحف القديمة أو الكتب التي تشتمل على أطراف مختلفة من الأخبار والأشعار والقصص والحكايات

---

(١) الفهرست ١٠٢ ومعجم الأدباء ٧٣/١٢ وإيضاح المكنون ٢٧٢/٤
(٢) مجمع الأمثال ٤/١
(٣-٤) الفهرست ١٠٢ وسزكين ٣٣/٢/١
(٥) البصائر والذخائر ٥٣٤/٢

والأسمار والرسائل والعهود وغيرها من النصوص موثقة بخطوط العلماء الذين تعاقبوا على قراءتها وتواقيعهم وقال: "كان بمدينة الحديثة رجل يقال لـه محمد بن الحسين ويعرف بابن أبي بعرة جماعة للكتب، وله خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة، تحتوي على قطعة من الكتب الغريبة ، في النحو واللغة والأدب ، والكتب القديمة، فلقيت هذا الرجل فأنس بي ، وكان نفورا" ضنينا" بما عنده .... فأخرج إلي قمطرا" كبيرا" فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود فلجان وصكاك وقرطاس مصر وورق صيني وورق تهامي وجلود أدم وورق خراساني ، فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشيء من النحو والحكايات والأخبار والأسمار والأنساب وغير ذلك من علوم العرب ..... فرأيتها وقلبتها فرأيت عجبا" ، إلا أن الزمان قد أخلقها .... وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرج توقيع بخطوط العلماء واحدا" إثر واحد يذكر فيه خط من هو .... ورأيت فيها مصحفا" بخط خالد ابن أبي الهياج صاحب علي (ع) .... ورأيت فيها بخطوط الأئمة من الحسن والحسين (ع) ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل أبي العلاء وأبي عمرو الشيباني والأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي"(١) وكان هؤلاء العلماء وأضرابهم من أوائل الرواة والمؤلفين الذين حملوا على كواهلهم أعباء جمع النصوص الأدبية الموروثة وتدوينها وتوثيق كثير منها منذ أواخر العصر الأموي ، معتمدين في ذلك على ما وصل إليهم من هذه الصحف المدونة أو الكتب ، وعلى الروايات الشفوية ، وبذلوا في ذلك جهودا" كبيرة ، وكان للنثر نصيب وافر منها ، إذ ألف كثير منهم عددا" من الكتب في خطب العرب وأمثالهم وأسمارهم ورسائلهم، وقد ذكر ابن النديم أسماء عدد كبير منها ، ووصل إلينا بعضها(٢) ، وفي ذلك كله ما يمكن أن يعزز الثقة بشيء من النثر القديم الذي لم تنج بعض نصوصه من آثار العبث والتغيير والاختلاط والنحل، شأنها في ذلك شأن النصوص الشعرية ، وكان لهؤلاء العلماء وأضرابهم أثر كبير في توثيق هذه النصوص ، من غير أن تكون لهم في ذلك نظرية واضحة ومدونة قبل أن يؤلف ابن سلام الجمحي (-٢٣١هـ) "طبقات فحول الشعراء" ويمهد له بمقدمة طويلة تحدث فيها عن أسباب نحل الشعر ودواعيه، وأرسى في أثناء ذلك جملة من القواعد التوثيقية ، فكانت بذلك أول أثر مدون ومكتوب من آثار النقد التوثيقي عند العرب.

---

(١) الفهرست ٤٦

(٢) ومنها كتاب خطب علي لابن الكلبي (-٢٠٦هـ) وخطب المصريين مكة والمدينة للهيثم بن عدي (-٢٠٧هـ) والخطب وخطب المنابر للريحاني (-٢١٩ هـ) وخطب النبي وعلي للمدائني (-٢٢٥هـ) وأشراف الكتاب للهيثم بن عدي (-٢٠٧هـ) والبلاغة والخطب وجامع الرسائل لابن غالب (٢١٠ هـ) وكتب الأمثال للقطامي (-١٥٨ هـ) والضبي (-١٧٨هـ) وأبي عبيدة (-٢١٠هـ) والأصمعي (-٢١٦هـ) وغيرها. الفهرست ١٠٨ و١٣٣ و١١٢ و١١٤ و١١٢ و١٥١ و١٠٢ و٤٧ و٤٨ و٥٣ و١٠٩.

مقدمة ابن سلام والنقد التوثيقي:

وقد رفع ابن سلام صوته في صدر هذه المقدمة ليقول إن"في الشعر مصنوع ومفتعل موضوع كثير لاخير فيه ... قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل عن صحيفة، ولايروي عن صحفي"(١) ، فحذر بذلك من التعويل على ما يدور في الصحف أو على ألسنة الرواة من النصوص الأدبية قبل تحصيلها وتوثيقها ، وجعل الأخذ عن أهل البادية، وعرض المرويات على العلماء أركانا" أساسية في نظرية التوثيق ، وخص العلماء بالمحل الأرفع في هذه النظرية فجعل لهم القول الفصل فيما يشكل من أمور نقد النصوص والمرويات وتوثيقها ، وميز النقد التوثيقي علما" قائما" بذاته ومستقلا" ، له ثقافته وأصوله ورجاله فقال:"وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات"(٢).

واتخذ من سيرة ابن اسحق (-١٥٠هـ) مثلا" تطبيقيا" لما يدور في الصحف من أشعار موضوعة ، وأخبار مصنوعة فقال : "وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه : محمد بن اسحق .... وكان من علماء الناس بالسير ... فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لاعلم لي بالشعر ، أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرا" ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا" قط .... ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا" كثيرة ، وليس بشعر ... أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ آلاف السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : "وأنه أهلك عادا" الأولى وثمودا فما أبقى"(٣) وقال أبوعمرو بن العلاء : مالسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولاعربيتهم بعربيتنا، فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه"(٤). فأفصح بذلك عن مجموعة أخرى من القواعد التوثيقية المهمة كضرورة توافق المادة المروية مع الحقائق التاريخية واللغوية ، ومشاكلتها لأساليب العصر ومذاهبه الفنية ، وتحصيلها وتصحيحها عند تحملها وأدائها وتدوينها.

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٤/١

(٢) ن.م ٥/١ . (٣) سورة النجم ٥٣/٥٠-٥١ . (٤) طبقات فحول الشعراء ٧/١-٨

وأفضى به ذلك إلى البحث في أسباب نحل الشعر وافتعاله فأرجعها إلى عدة عوامل ودوافع : كالعصبية القبلية ، والمفاخرة والمباهاة ، والتكسب بالشعر وروايته فقال: "فلما راجعت العرب رواية الشعر... استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ... فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت"(١). وأكد قدرة العلماء على توثيقه وتمييز صحيحه من منحوله فقال: "وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ، ولاماوضعوا ، ولا ماوضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية ، من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال"(٢) . وقد كان لهذه القواعد التوثيقية والآراء تطبيق واسع جدا لدى من أتى بعده من النقاد كالجاحظ والمبرد والأصبهاني وغيرهم ممن أسهموا في توثيق كثير من النصوص الأدبية وما يتصل بها من سير وأخبار، ولم يقتصروا في ذلك على الشعر وحده ، وإنما تجاوزوه إلى النثر فكانت لهم في أسباب نحله وافتعاله واختلاطه وتغييره ، وأصول تصحيحه وتوثيقه آراء كثيرة ومتنوعة.

النقد التوثيقي للنصوص النثرية:

ولم تكن آراء هؤلاء العلماء والنقاد في توثيق النصوص النثرية والبحث في أسباب ضياعها ونحلها وتغييرها تختلف عن آرائهم في الشعر وتوثيقه ، وقد أشار بعض هؤلاء العلماء منذ أول عهدهم بتوثيق النصوص الأدبية وتدوينها إلى ضياع كثير منها ، فقال أبو عمرو بن العلاء (-١٥٤هـ) : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاء كم وافرا" لجاءكم علم وشعر كثير"(٣) وعزا ابن سلام أسباب ضياع الشعر إلى انشغال العرب عن روايته بعد الإسلام بالفتوح وموت أكثر رواته قبل تدوينه فقال :" وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم...فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب...ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب . فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير"(٤) ، وكان ذلك من أهم أسباب نحل الشعر وافتعاله على ألسن الشعراء كما مر بنا قبل قليل .

---

(١) ن.م ٤٧/١ . (٢) ن.م ٤٧/١ . (٣) ن.م ٢٤/١ . (٤) ن.م ٤٧/١

ومع ذلك ، فإن ما حفظ من الشعر كان أكثر مما حفظ من النثر ، وقد تأمل بعض الأدباء والنقاد هذه الظاهرة فعللها عبد الصمد الرقاشي الخطيب تعليلا" فنيا" يرتبط بالوزن والإيقاع وتيسيرهما حفظ الشعر وروايته، وجعل خلو النثر منهما سببا" لضياع كثير منه ونسيانه فقال : " وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره "(١) وربط ذلك الجاحظ بطول النص المنثور وقصره وعلل على هذا الأساس كثرة ما بأيدي الرواة من قصار الخطب وقلة الطوال فقال:" إن جميع خطب العرب ... على ضربين : منها الطوال ، ومنها القصار... ومن الطوال ما يكون مستويا" في الجودة ... وليس فيها شيء بعد يستحق الحفظ... ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع "(٢) معتمدا" في ذلك على قاعدة منطقية يرى فيها أن :" الحفظ مع الإقلال أمكن، وهومع الإكثار أبعد"(٣).

وكان الجاحظ قليل الثقة بالتعويل على الحفظ والذاكرة في نقل المآثر وتخليدها لما يكمن وراء ذلك من آثار الغفلة والنسيان والضياع أو التغيير والاختلاط ولذلك نراه يكثر من إعلاء شأن الكتابة والتدوين في عدة مواضع من كتبه ورسائله كقوله : " ولولا الكتاب لا ختلت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين "(٤) وقوله في الموازنة بين الحفظ والكتابة : " ولولا الكتب المدونة والأخبار المخلدة ، والحكم المخطوطة . . . لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر . ولو كلف عامة من يطلب العلم ويصطنع الكتب ألا يزال حافظا" لفهرست كتبه لأعجزه ذلك ولكلفه شططا"(٥)

ولذلك فقد كان من أكثر النقاد اهتماما" بتوثيق النصوص المروية وما يتصل بها من أخبار وأقوال ، مهتديا" في ذلك بمناهج الفكر الاعتزالي التي تعلي شأن العقل والتفكير ، وتتخذ الشك سبيلا" للوصول إلى اليقين ، ومقتديا برأس المعتزلة الأكبر واصل بن عطاء (-١٣١هـ) إذ كان " أول من علم الناس كيف مجيء الأخبار وصحتها وفسادها "(٦).

وقد تقفى الجاحظ آثار شيخه في ذلك فجعل تمييز الأخبار والآثار

---

(١) البيان والتبيين ٢٧٨/١ . (٢) ن.م ٧/٢ . (٣) الحيوان ٨٩/١
(٤) رسالة المعلمين – مجلة المورد – مج٧–ع٤–س١٩٨٧ ص٤٩ وانظر ١٥٠
(٥) الحيوان ٤٧/١ واستمد منه صاحب البرهان في وجوه البيان ٢٥٤ و ٣١٣ قولا مشابها .
(٦) الأوائل للعسكري ١٣٤/٢ .

قاعدة وأصلا لدى حملة الأدب ورواته فقال : " ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار ، واستنباط الآثار بطلت الحكمة ، وضاع العلم، وأميت الأدب"[1] ودعا إلى الشك في المرويات والأخبار بعد معرفة مواضعه وحالاته الموجبة له فقال بعد أن روى خبرا" من أخبار الحيوان : "ولم أكتب هذا لتقر به ، ولكنه رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر كما لا يعجبني الإنكار له ولكن ليكن قلبك إلى إنكاره أميل . وبعد هذا فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه "[2] .

وقيد الشك واليقين بما يسوغهما ، وجعل الفصل فيهما حملا" ثقيلا" لا ينهض به غير أهله من العلماء والنقاد الذين أوتوا بسطة في العلم ، وسعة في الثقافة ، وخبرة في تمييز المرويات والأخبار وتصحيحها وتوثيقها دون غيرهم من ناشئة الكتاب والمتأدبين الذين اتخذوا تكذيب الأخبار والطعن فيها بغير علم سبيلا" إلى التبجح والمباهاة فقال فيهم : " والناشيء فيهم إذا وطيء مقعد الرياسة . . . وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر أمثاله ، ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولابن المقفع أدبه ، يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار "[3].

وقد بنى الجاحظ مجمل آرائه التوثيقية التي وردت موزعة في ثنايا كتبه الكثيرة ورسائله على قواعد متينة ، وبدت آثار علم الحديث ظاهرة فيها، ومن ذلك ما نقف عليه في " كتاب العثمانية " الذي ضمنه جملة صالحة منها ، كقوله في التعليق على بعض أخباره فيه : " إن الأمور إذا جاءت من ها هنا وها هنا كان اجتماعها دليلا"[4] فجعل التواتر والإجماع قاعدة في توثيق النصوص والأخبار ، ثم قيدها بعدة قيود صارمة ودقيقة فقال: " وليس يكون الخبر إجماعا" من قبل كثرة الناقلين ، ولا من قبل عدالة المحدثين ، وإنما هو العدد الذي نعلم أنهم لم يتلاقوا ولم يتراسلوا ، فلا تتفق ألسنتهم على خبر موضوع ، على اختلاف عللهم وأسبابهم

---

(١) رسائل الجاحظ ٣٨٣/٢ .
(٢) الحيوان ٣٤/٦-٣٥ .
(٣) رسائل الجاحظ ١٩١/٢ - ١٩٢ والفتيق من الكلام : الفصيح .
(٤) كتاب العثمانية ٩٥ .

ويكون معلوما" عند سامع ذلك الخبر مع ذلك العدد أنهم قد نقلوه عن مثلهم ، في مثل أسبابهم وعللهم ، فإذا كان معلوما أن فرعه كأصله ، كان موجبا لليقين ونافيا" لعرو الشك "(١) .

واعتمد في ترجيح الروايات المختلفة للخبر الواحد على الأخذ بأوسط الروايات وأعدلها فقال : " والقياس أن يؤخذ بأوسط الروايتين . . فتأخذ أوسطها وهو أعدلها . وتطرح قول المقصر والغالي"(٢) ولذلك فقد دعا إلى الأخذ بالشائع المستفيض واطراح الشاذ الذي لا يعرف فقال : " إن من يجحد الشائع المستفيض بالأسانيد المختلفة في الدهر المتفاوت يوجب على خصمه تصديق الشاذ الذي لا يعرف "(٣) بيد أنه قيد الشيوع بالصحة وجعلها أصلا" في تصديق المرويات وتوثيقها فقال في رسالة التربيع والتدوير : " إن الخبر إذا صح أصله وكان للناس علة في نشره ، كان في الدلالة على الحق كالعيان وفي الشفاء كالسماع "(٤).

وتتصل هذه الرسالة بالنقد التوثيقي بأسباب وثيقة إذ كانت غايته من وراء تأليفها كشف جهل مهجوه أحمد بن عبد الوهاب بحقائق الأخبار ، وعدم قدرته على تمييزها وتوثيقها وتصحيحها فقال إنه : " كان قليل السماع غمرا" ، وصحفيا" غفلا"، لا ينطق عن فكر ، ويثق بأول خاطر فرأيت أن أكشف قناعه . . وأن أسأله عن مائة مسألة أهزأ فيها منه وأعرف الناس مقدار جهله "(٥).

وبدأ هذه الأسئلة بالاستفسار عن حقيقة ما يروى من أخبار العرب وأشعارها وقصصها وأمثالها وغير ذلك مما يتحمله الرواة ، أو يدور في الصحف، فطرح بذلك مشكلات الرواية العربية طرحا" جعل مهجوه معه حائرا" بين الشك واليقين ، والشبهة والحجة ، والإنكار والقبول ، وتلك هي حال الناقد التوثيقي إزاء ما يصادف أو يتحمل من مرويات وأخبار ، إذ لا بد له من البحث عن وجه الحقيقة فيها ، وتمييز صحيحها من منحولها ، مستعينا" بأدوات ثقافية كثيرة ، ليس لصاحب الجاحظ منها حظ أو نصيب .

---

(١) ن.م ١١٥-١١٦ . (٢) ن.م ٥ . (٣) ن.م ٨٢ .
(٤) رسالة التربيع والتدوير ٤٤ – ٤٥ . (٥) ن.م ٦ .

ومما ورد في هذه الرسالة من هذه الاسئلة التوثيقية قوله مخاطبا" مهجوه: "وقد ذكرت الرواة في المعمرين أشعارا"، وصنعت في ذلك أخبارا" ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ، ولا دلائل قائمة ، ولا نقدرعلى ردها لجواز معناها ، ولا على تثبيتها إذا لم يكن معها دليل يثبتها ، وقد تعرف ما في الشك من الحيرة...فخبرني:أصدقوا أم كذبوا، أم اقتصدوا أم أسرفوا ؟ "(١) واذا ما أغضينا عما في هذا النص من آثار السخرية ، فإننا نقف فيه على جملة من الحقائق التوثيقية المهمة والقواعد ، إذ أكد الجاحظ فيه دور الرواة في افتعال النصوص والأخبار ونحلها ، وعدم قدرة حملتها على تمييزها من الصحيح لجواز معانيها ، وضرب على ذلك مثلا" بأشعار المعمرين وأخبارهم ، وأشار إلى بعض القواعد والأساليب التي يمكن الاعتماد عليها في توثيقها ، ومن أهمها البحث عن الدلائل والشهادات التي تثبت صحتها أو تنفيها ، وتكشف عن آثار الوضع والزيادة أو النقص فيها . وقد أورد في هذه الرسالة الكثير من هذه الأمثلة التي تفصح عن شكه في كثير من المرويات والأخبار ، دون أن يعمد إلى بيان وجه الحقيقة فيها، واكتفى من ذلك بإحالة مهجوه إلى كتبه ورسائله التي تشتمل على ذلك ليتعلم منها أصول التوثيق ، وقواعد التحقيق فقال : " وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا" ولا كثيرا"، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها من خرافة ، وما فيها من محال ، وما فيها من صحيح ، وما فيها من فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبي ، ولزوم بابي "(٢) .

وقد اشتملت هذه الكتب على كثير من الآراء النظرية والجوانب التطبيقية التي تتصل بتوثيق النصوص الأدبية وما يتعلق بها من أخبار ، وكان للنثر نصيب وافر منها ، وخاصة الخطب والأمثال التي أبدى حرصه الشديد على توثيق كثير منها(٣) ، ولم تخل بعض جهوده من النظر في بعض ما ينسب إلى بعض البلغاء من آثار مدونة وتصحيح نسبتها اعتمادا" على إحساسه النقدي وخبرته بأساليبهم كقوله بعد أن روى إحدى الوصايا التي تجري مجرى الرسائل أو الكتب : "وكتبها عبد الملك بن مروان بيده ، وأمر الناس : بحفظها وتدبر معانيها وهي : إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا" عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعته

(١) ن.م ٣٥-٣٦.(٢) ن.م ٩٧.(٣) انظر في توثيقه لبعض الخطب وأخبار الخطباء : البيان والتبين ٥٦/١ و٢٠٣و٢١٠و٢٨٦و٣١٤و٣٣٥و٣٨٠-٣٨١و٥٩/٢و٦١و١١٧و٣٦٧/٣و٣١/٤وفي توثيق بعض الأمثال : الحيوان ٢٢٢/٤ و ٢٢٣ و ٢٨٢/٦ و ١٢٥/٧ ومواضع أخرى كثيرة .

فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العجزة قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقدروا فيها على توبة ، وليست لكم منها أوبة . قال الجاحظ : وقد روي هذا الكلام عن الحجاج ، وزياد [بن أبيه] أحق به منه "(١) .

وترتبط صحة المرويات والأسانيد لديه برجالها ورواتها برباط وثيق، وهم عنده على درجات متفاوتة في الصدق والتوقي ، فمنهم من يصنع النصوص والأخبار أو يتتبع ما اختلف وتشابه منها لغايات في النفس كما أشار إلى ذلك في قوله متهما" بعض الرواة بذلك : " ولقد تتبع أبو عبيدة النحوي وأبو الحسن المدائني وهشام بن الكلبي والهيثم بن عدي أخبارا" قد اختلفت وأحاديث قد تقطعت، فلم يدركوا إلا قليلا" من كثير ، وممزوجا" من خالص . وعلى كل حال ، فإننا إذا صرنا إلى ما رواه العباس بن محمد . . عرفت بتلك البقية كثرة مافات ، وبذلك الصحيح أين موضع الفساد مما صنعه الهيثم بن عدي وتكلفة هشام الكلبي "(٢).

وقد رتب الرواة في طبقات ودعا إلى التوقف والتثبيت من مروياتهم ، وتوثيقها وتحصيلها قبل روايتها والتعويل عليها وإن كانت مدونة في صحيفة أو كتاب فقال في جرح بعض الرواة وتعديل آخرين ممن يثق بصحة روايتهم : " وما هو إلا أن ولد أبو مخنف حديثا" أو الشرقي بن القطامي أو ابن الكلبي أو لقيط المحاربي أو ابن دأب أو الحسن المدائني ، ثم صوره في كتاب وألقاه في الوراقين إلا رواه من لا يحصل ولايتثبت ولا يتوقف . . . ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة وأبي عمرو بن العلاء وابن جعدية ويونس بن حبيب وأبي عبيدة ومسلمة ابن محارب وهؤلاء وأشباههم مأمونون وأصحاب توق وخوف من الزوائد وصون لما في أيديهم وإشفاق على عدالتهم "(٣) ولم يخل الجاحظ بذلك من بعض آثار العصبية أيضا" في جرح بعض هؤلاء الرواة وتعديلهم.

وللعصبية على اختلاف مظاهرها وألوانها آثار قوية في تاريخ الرواية العربية ، ولطالما وجدنا النقاد ينبهون عليها ويحذرون منها ، وكان أبو الفرج الأصبهاني (بعد٣٦٢هـ) من أكثرهم اهتماما" بهذا الجانب التوثيقي ، فتابع الجاحظ في أكثر آرائه فيه ، وكشف عن آثار العصبية في مرويات بعض كبار الرواة كالهيثم بن عدي وأبي عبيدة وغيلان الشعوبي وغيرهم من أصحاب المثالب فقال

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٨٧-٣٨٨ .
(٢) ن.م ٣/٣٦٧ .
(٣) رسائل الجاحظ ٢/٢٢٥-٢٢٦ .

بعد أن روى عن الهيثم بعض أخبار العرب : " وليس هذا من الأقوال المعول عليها لأن أصل المثالب زياد لعنه الله ، فإنه لما ادعى إلى أبي سفيان ، وعلم أن العرب لا تقر له بذلك عمل كتاب المثالب . . . ثم بني على ذلك الهيثم بن عدي ، وكان دعيا" ، فأراد أن يعر أهل البيوتات تشفيا" منهم ، وفعل ذلك أبو عبيدة وكان أصله يهوديا . . . فجدد كتاب زياد وزاد فيه ، ثم نشأ غيلان الشعوبي لعنه الله ، وكان زنديقا" ثنويا" لا شك فيه فأبدع كتابا" عمله لطاهر بن الحسين . . . فبدأ فيه بمثالب بني هاشم وبدأ منهم بالطيب الطاهر رسول الله (ص) . . . ثم والى بين أهل بيته الأذكياء النجباء ، ثم ببطون قريش على الولاء ، ثم بسائر العرب فألصق بهم كل كذب وزور ، ووضع عليهم كل خبر باطل "(١).

كما نبه على آثار التزيد والافتعال في أخبار كثير من الرواة وعلى رأسهم ابن الكلبي فاتهمه بالكذب ، فكانت مروياته مظنة للشك عنده ، فحكم بوضع كثير منها كقوله : " وهذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها . . . وأعجب من ذلك الخبر الأخير وهذا من أكاذيب ابن الكلبي"(٢) وكذلك كانت بعض أخبار جحظة البرمكي لديه كقوله بعد رواية خبر منها : " وليس يخلو من أن يكون كاذبا" ، أو نحل هذه الحكاية ووضعها"(٣) وأخذ على بعض الرواة تحملهم بعض الأخبار وتأديتها قبل توثيقها وتحصيلها كابن خرداذبة الذي أكثر من جرحه ودفع مروياته كقوله: "وذكر ابن خرداذبة . . . وهو ممن لا يحصل قوله ولا يعتمد عليه والقول الأول أصح "(٤) واتخذ من أخباره مثلا" للتحمل على غير هدى فقال إنه : "يخبط خبط العشواء ، ويجمع جمع حاطب الليل "(٥) شأنه في ذلك شأن حبش الصيني عنده " وهو رجل لا يحصل ما يقوله ويرويه"(٦).

على أن هنالك فئة أخرى من الرواة الثقات المحصلين الذين كان يعول على مروياتهم كالأصمعي وابن سلام والجاحظ ويحيى بن علي واليزيدي وأضرابهم ممن أكثر الرواية عنهم ، والإشادة بهم وكانوا ممن يعول عليهم في مروياته ، كقوله عن اليزيدي : " وكان فاضلا" عالما" ثقة فيما يرويه ، منقطع القرين في الصدق وشدة التوقي فيما ينقله ، وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة

---

(١) الاغاني ٧٧/٢٠ .
(٢) ن.م ٤٠/١٠ وانظر ١٤/١٢ .
(٣) ن.م ٦٤/٦ وانظر ٥٤/٩ .
(٤) ن.م ٣٣٣/١١ وانظر ٣٦/١ و ١٧٣/٦ .
(٥) ن.م ٢٥٠/٩ .
(٦) ن.م ١٣٣/٣ وانظر ١٧٠/١٠ و ١٩٧ .

العلم ورواته علما" كثيرا" ، فسمعنا منه سماعا" جما" " (١) بيد أنه مع ذلك كان يقف عند بعض مرويات هؤلاء الشيوخ موثقا" ومصححا" كقوله في تصحيح بعض أخبار شيخه الأكبر يحيى بن علي المنجم (-٣٣٠هـ) : " وينبغي ألا أجري الأمر على التقليد دون القول الصحيح فيما ذكره وحكاه "(٢) ٠ ولذلك أمثلة كثيرة جدا" في الأغاني الذي نقف فيه على مجموعة كبيرة من الآراء التوثيقية المهمة ، والأمثلة التطبيقية التي تكشف عن منهج نقدي دقيق من مناهج النقد التوثيقي قد يضيق المقام عن الخوض في تفاصيله ، إذ كان جل اهتمامه فيه بالشعر كما هو معروف ، وإن لم يخل من أخبار بعض الخطباء والكتاب التى نقف فيها على بعض الجوانب التوثيقية كقوله في إسناد خطبة قس بن ساعدة : " وقد سمعت خبره من جهات عدة إلا أنه لم يحضرني وقت كتبت هذا الخبر غيره ، وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث إسنادا" فهو من أتمها "(٣) ، وروى عددا" من خطب أبي حمزة الخارجي موثقة بأسانيدها(٤) كما روى بعض رسائل الوليد بن يزيد إلى هشام بن عبد الملك التي تبدو فيها آثار الافتعال والنحل واضحة وقال بعد رواية بعضها : " ويقال : بل قال ذلك عبد الصمد بن عبد الأعلى [مؤدبه] ونحله إياه "(٥) وأشار إلى ما داخل أخباره وأشعاره ورسائله وأقواله من آثار الوضع والتزيد فقال : " وكان فاسقا" متهما" في دينه ، ومن الناس من ينفي عنه ذلك ويقول إنه نحله وألصق به"(٦) كما روى أبو الفرج في مقاتل الطالبيين عددا" كبيرا" من الكتب والرسائل والخطب المروية عن أئمة الطالبيين ، وأبدى حرصه الشديد على نقل الرسائل المتبادلة ما بين الحسن بن علي ومعاوية في شأن الخلافة، ولم نجد لديه اهتماما" يذكر بما ينسب إلى الإمام علي (ر) من خطب أو كتب(٧).

وكانت بعض خطب الامام علي (ر) وكتبه عرضة للاختلاط والتغيير شأنها في ذلك شأن كثير من كلام السلف ، وقد أشار الشريف الرضي في مقدمة النهج إلى اختلاف روايات كلامه ، وما طرأ عليه في أثناء ذلك من تغيير أو تبديل فقال :" إن روايات كلامه تختلف أختلافا" شديدا" ، فربما اتفق الكلام المختار في

---

(١) ن.م ٢١٧/٢٠ وأبو عبدالله محمد بن العباس اليزيدي من شيوخ أبي الفرج وكان راوية عالما باللغة والشعر (٢٢٨ - ٣١٠ هـ) تاريخ بغداد ١١٣/٣ ووفيات الأعيان ٣٣٧/٤ .

(٢) الأغاني ٢٧٤/٨ ويحيى بن علي المنجم راوية أديب عالم بالشعر والموسيقى والغناء وكان من خاصة شيوخ أبي الفرج (٢٤١ - ٣٠٠ هـ) الفهرست ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) الأغاني ٢٤٦/١٥ . (٤) ن.م ٢٣٦/٢٣-٢٤٤ . (٥) ن.م ٣/٧ وانظر ٥٧-٥٨. (٦) ن.م ٢/٧

(٧) انظر مقاتل الطالبيين ٢٤-٤٥ و ٤٦ - ٧٣ وغيرها .

رواية فنقل على وجهه ، ثم وجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعا" غير وضعه الأول إما بزيادة مختارة ، أو بلفظ أحسن عبارة "(١) .

وقد اعتمد الشريف في جمع مادة النهج على كثير من المصادر التي لم يصل إلينا كثير منها ، إذ كان كثير من المؤلفين قد جمعوا خطب الإمام وكلامه ورسائله في كتب مفردة ، فألف ابن الكلبي (- ٢٠٦ هـ) كتابا" في خطبه(٢) ، كما ألف المدائني (- ٢٢٥ هـ) كتابا" في خطبه ، وآخر يجمع بين خطبه ورسائله إلى عماله(٣) ، واشتملت كتب الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرها من كتب الأدب والأخبار والتواريخ على أطراف كثيرة من كلامه قبل أن يؤلف الشريف نهج البلاغة بزمن غير قصير ويضمنه " مختار كلامه في جميع فنونه ومتشعبات غصونه ، من خطب وكتب ومواعظ وآداب"(٤) بيد أنه لم يعن فيه بذكر مصادره وأسانيده على سنة أكثر المؤلفين في مثل هذه الأبواب في عصره ، فكان ذلك سببا" رئيسيا" فيما أثير حول هذا الكتاب لدى المتأخرين من جدل(٥).

ولاختلاط النصوص والأخبار أسباب مختلفة ومتنوعة كالشهرة والمشاكلة والقربى والمعاصرة وغيرها من الأسباب التي وقف النقاد على كثير منها في أثناء توثيقهم بعض النصوص النثرية وما يتصل بها من أخبار ، وقد نبه أبو بكر الصولي على أثر الشهرة والقربى في اختلاط بعض النصوص الأدبية فقال في أثناء حديثه عن أخبار أبي محمد عبد الله بن أحمد بن يوسف إنه : " كان كاتبا" شاعرا" ، إلا أنه قليل الشعر ، وقد ألف كتبا" ورسائل ، وربما نسب من لا يدري شعره إلى محمد بن عبد الله لأنه أكثر شعرا" منه ، ونسبوا كلامه إلى كلام أبيه ، وأنا أذكر ما صح من شعره وكلامه "(٦) وكان أبو محمد معروفا" بالكتابة ، على حين كان ابنه محمد مشتهرا" بالشعر ، ولذلك فقد اختلطت نسبة أشعارهما ورسائلهما على بعض المؤلفين والنقاد ، فعمل الصولي على توثيق ما بين يديه منها وتحصيله .

---

(١) نهج البلاغة ١٣/١
(٢) الفهرست ١٠٨
(٣) ن.م ١١٤ و ١١٥
(٤) نهج البلاغة ١١/١ .
(٥) انظر في ذلك مثلا : شرح نهج البلاغة – مقدمة المحقق ١٧/١-٢١ والمتن ١٥/١ و ٥٤٦/٢ ولسان الميزان ٢٢٣/٤ وكشف الظنون ١٠٦٧ وانظر ٧١٥ و ١٣٥٣ وأمراء البيان ٥٢٥ – ٥٢٦ و النثر الفني ٨١/١ والفن ومذاهبه في النثر ٦١ ومصادر نهج البلاغة ١٩-٢٧ .
(٦) أخبار الشعراء المحدثين ٢٣٦ .

وكان الصولي حريصا" على توثيق مروياته وأخباره ، فأخذ على ابن أبي طاهر طيفور قلة تحصيل ما يحمل ويؤدي منها فقال : " حدث أحمد بن طيفور أن المأمون قال لأحمد بن يوسف : إني أريد غسان بن عباد لأمر جليل . . . فقال أحمد : غسان رجل محاسنه أكثر من مساويه ، لا تضرب به طبقة إلا انتصف منها مهما خيف عليه ، فإنه لا يأتي أمرا" يعتذر منه ، لأنه قسم زمانه بين أيام الفضل ، فجعل لكل مكرمة وقتا" . فقال المأمون : لقد مدحته على سوء رأيك فيه... قال أبو بكر : وهذا الخبر فإنما هو لهشام بن عبد الملك وقد سأل أسد بن عبد الله القسري عن نصر بن سيار فأجاب فيه بهذا الجواب . . رويناه ، بأسانيد الثقات من غير وجه، فنسبه ابن أبي طاهر إلى المأمون وأحمد بن يوسف بغير رواية ، لأنه صحفي حاطب ليل ، ثم يحكي الكذب ويخطيء في التأريخ . . . وقد رأيته صحفيا ولم أر عنده ما أريد فتركته ، ويعز علي أن أذكر أحدا" من أهل الأدب بسوء وأن أستخفه ولكن لابد من أن نعطي العلم حقه ، ونضع الحق موضعه"(١) مؤكدا" بذلك أهمية جرح الرواة والمؤلفين وتعديلهم ، وتصحيح مروياتهم وأخبارهم في النقد التوثيقي.

وكان طيفور مجرحا" لدى بعض المؤلفين ، ومتهما" عندهم بقلة التحصيل، فروى عنه أبو حيان التوحيدي بعض الأقوال البليغة أو الأخبار، ووقف عندها موثقا" ومصححا" ، ومن ذلك قوله في البصائر : " قال الأحنف بن قيس : الأدب في الإنسان نور العقل ، كما أن النار في الظلمة نور البصر . وهذا بكلام الفلاسفة أشبه ، ولكن هكذا أصبته في كتاب ابن أبي طاهر صاحب المنظوم والمنثور "(٢) ومن الواضح أن أبا حيان قد اعتمد في شكه في صحة نسبة هذا القول إلى الأحنف على صلته الوثيقة بأقوال الفلاسفة ومعانيهم ، ومعرفته بكلام الأحنف وخطبه فاستبعد أن يصدر مثل هذا المعنى الفلسفي عنه ، وألمح إلى نحله إياه من طرف خفي .

وصرح في موضع آخر بما يكمن وراء نحل الكلام ، وافتعال الأحاديث والأخبار من مقاصد وغايات ، ولخص مجمل مشكلات الرواية العربية في أثناء روايته خبرا" من الأخبار التي وقف عليها في كتاب طيفور فقال . " قال ابن أبي طاهر : خلا المنصور بأبي أيوب المورياني وسلمة بن مجاهد وعبد الملك بن جميل فقال : بمن تشبهونني ؟ . . . وقال : أنا أشبه بعمر بن الخطاب (ر) . .

---

(١) ن.م ٢٠٩-٢١٠

(٢) البصائر والذخائر ٤٢/١ .

قال أبو حيان : ولعل الحكاية موضوعة عليه ، فآفة الأخبار كثيرة ، والظنة إلى أهلها سريعة ، وتخليص السقيم من الصحيح صعب ، وقد دها الناس في جميع مذاهبهم وأموا فيها وكذاك الرافضي في رفضه ، والحروري في تحكيمه ، ومجال العقل فيها ضيق .. وإنما الأمر في الأخبار موقوف على السابق في النفس ، وعلى حسن الظن بالرواية ، وعلى مخرج الكلام في التأويل ، والكلام كله متصرف ومتعسف، ومتى تدبرت هذا الباب في صروف الدهر ، وحوادث الليالي، وجدته كما حكيته ورويته "(١).

بيد أننا مع ذلك وجدناه يطيل الوقوف عند بعض المرويات موثقا" ومحققا" ومعتمدا" في ذلك على بعض القواعد التوثيقية المهمة كالتمييز بين أساليب البلغاء ، ومعرفة خصائص كلامهم وميزاته ، وتصحيح نسبته إليهم، ومن ذلك قوله في بعض ما اختلف فيه منها : وقد روي عن بعض المؤلفين أن " الرشيد دعا بعبد الملك بن صالح فجيء به يرسف في قيده ، فلما مثل بين يديه قال : والله لكأني أنظر إلى شؤبوبها وقد همع ، وإلى عارضها قد لمع ، وإلى الوعيد قد أورى نارا"، فأقلع من رؤوس بلاغلاصم ، وجماجم بلا براجم . مهلا" مهلا" بني هاشم ، فقد سهل لكم الوعر ، وصفا لكم الكدر، ونذار نذار من هول داهية إد خبوط باليد ، لبوط بالرجل . قال التوحيدي : وقد اشتمل هذا الكلام على عربية علوية ، وقد روي أول الكلام لعبد الحميد والنسب إليه أكثر ، وهو به أليق ، وما أضع بهذا من الرشيد ، ولكن للصناعة موضع لا تأتي عليه الخلافة "(٢).

وعلى الرغم من شدة حرص كثير من النقاد على توثيق النصوص النثرية إلا أن النثر بطبيعته يمكن أن يفسح المجال واسعا" أمام الرواة والمؤلفين للتصرف فيه بالزيادة أو النقص أو التغيير أو غير ذلك مما يمكن أن نقف عليه في كتب بعض المؤلفين ، ومن ذلك قول المبرد في الكامل : " ونحن ذاكرون الرسائل بين أمير المؤمنين المنصور وبين عبدالله بن حسن العلوي ونختصر ما يجوز ذكره ، ونمسك عن الباقي ، فقد قيل : الراوية أحد الشاتمين "(٣) وروى هذه الرسائل المتبادلة بينهما على الصورة التي فضل روايتها بها عليها ، فاختصر منها أو ترك

---

(١) ن.م ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) ن.م ٢/٤٨٧-٤٨٩ والشؤبوب : المطر ، وهمع : سال ، والعارض : السحاب ، والبراجم : مفاصل الأصابع ، والإد: الشديدة .

(٣) الكامل ١١٣/٤

ما شاء أن يختصر أو يترك ، وتجنب بذلك ما يمكن أن يكون في هذه الرسائل من آثار العداوة السياسية بين العباسيين والطالبيين وإن كان حريصا" على توثيق أكثر مروياته في هذا الكتاب وأخباره(١).

وقد توسع أبو هلال العسكري في التصرف في بعض النصوص النثرية إلى حد بعيد جدا" إذ خول نفسه الحق بإعادة صياغتها وكسوتها حلة لفظية جديدة والزيادة في معانيها ، ولم يجد في نفسه حرجا" من ذلك فقال في أثناء رواية بعض ما ينسب إلى قس بن ساعدة الإيادي من رسائل : " رأيت في بعض الكتب القديمة أن قسا" كتب إلى بعض من هو على نحلته : من قس بن ساعدة إلى فلان بن فلان. ورأيت بعد ذلك كلاما" رديئا" في اللفظ والوصف ، فأخذت معناه وكسوته الألفاظ من عندي ، وزدت عليه ليحسن : أما بعد ، فإنك لا تفوت ربك بنفسك ، فكن عند رضاه .... "(٢). وكتب الرسالة على الصورة التي ارتضى لها ، وجرى على هذا المنوال في أكثر ما أورد في كتاب الأوائل خاصة من أقوال وأخبار وقال معتذرا" : " وأكثر ما أكتب لك من هذه الأخبار من حفظي ، إذ حال بيني وبين الوصول إلى مظانها في كتبي استيلاء الضعف وقلة المعين فإن وجدت في بعض ألفاظها تغيرا" فلا تنكر ، فإني قد أديت المعاني وافية ، وصورتها في نفسك تصويرا" صحيحا" ، وما ألقيته من ألفاظها فإنه لا يحتاج إليه في كشف أغراضها ، والتعبير عن صورها ، فإذا انكشف لك المعنى فلا تبال بما ألقي من فضول اللفظ"(٣) ووجد في بعض أقوال الشعبي مسوغا" لصنيعه فنسب إليه أنه : " قيل له: إنا اذا سمعنا الحديث منك نسمعه بخلاف ما نسمعه من غيرك ، فقال : إني أجده عاريا" فأكسوه من غير أن أزيد فيه حرفا" . أي من غير أن أزيد في معناه شيئا "(٤) وليس له في ذلك كله من عذر ، وإن كان قد نبه على تصرفه في بعض ما يورد في بعض كتبه من نصوص وأخبار.

وإذا كنا قد وجدنا العسكري غير حريص على دقة نقل النصوص النثرية بأساليبها ، فإننا نجد معاصره الباقلاني يؤكد قدرة النقاد على تمييز الكلام ، وتصحيح نسبته إلى أصحابه وتوثيقه اعتمادا" على معرفته بأساليب الأدباء والكتاب منهم خاصة فيقول : ولا يخفي على أحد في زماننا الفصل بين رسائل عبد الحميد

---

(١) أنظر مثلا الكامل ١٩/١ و ٨٧/٢ و ٩٣و ٢١٨ و ٢٨/٣ و ٢٥٩ ومواضع كثيرة .
(٢) كتاب الأوائل ٨٨/١
(٣) ن.م ٢٥٢/١
(٤) كتاب الصناعتين ٢٣٥ .

وطبقته وبين طبقة من بعده ، حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد ورسائل أهل عصره ومن بعده ممن برع في صنعة الرسائل ، وتقدم في شأوها حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين ، وحتى خلص لنفسه طريقة، وأنشأ لنفسه منهاجا" ، فسلك تارة طريقة الجاحظ ، وتارة طريقة السجع ، وثارة طريقة الأصل ، وبرع في ذلك . على أنه لا يخفي على أهل الصنعة طريقه من طريق غيره ، وإن كان يشتبه البعض ، ويدق القليل ، وتغمض الأطراف ، وتشذ النواصي "(١).

وهو في ذلك يذكرنا بقول ابن سلام الذي مر بنا في صدر هذا البحث : " وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ، لا ما وضعوا ، ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية ، ومن ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم ، فيشكل ذلك بعض الإشكال "(٢) وقد كان لهؤلاء العلماء أثر كبير جدا في توثيق كثير من النصوص النثرية ، والكشف عن أسباب نحلها واختلاطها وتغييرها وغير ذلك من أسباب العبث أو الفساد الذي لم يعد مقتصرا" على النصوص الأدبية فحسب ، وإنما امتد أثره إلى المؤلفات والكتب أيضا .

نحل المؤلفات والكتب وأساليب توثيقها :

وقد تنبه كثير من المؤلفين والنقاد على هذه الظاهرة ، وكشفوا عما يكمن وراءها من دوافع وأسباب فأبدى الجاحظ شكه في صحة بعض ما ينسب إلى الفرس من كتب ورسائل ، وعزا أسباب وضعها ونحلها إلى الصراع الشعوبي فقال في أثناء حديثه عن آثار هذا الصراع : " ونحن لانستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وعبد الحميد وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير"(٣).

كما نبه أبو الفرج الأصبهاني على أثر هذا الصراع في توليد بعض القصص الغرامية وتوشيحها بالشعر ونسبتها إلى بعض الشعراء ونساء سادة العرب بقصد الإساءة اليهم والتشهير بهم ، ومن ذلك قصة "وضاح اليمن وأم

(١) إعجاز القرآن ١٢١
(٢) طبقات فحول الشعراء ٤٧/١ .
(٣) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

البنين(١) التي ذكرها ابن النديم في جملة الكتب المؤلفة في الأسمار ، وكشف أبو الفرج عن أسباب وضعها وافتعالها فقال : " وقع بين رجل من زنـاد قـة الشعوبية وبين رجل من ولد الوليد بن يزيد فخار خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابة ، وذلك في دولة بني العباس ، فوضع الشعوبي كتابا" فيه أن أم البنين عشقت وضاحا" ، وكانت تدخله صندوقا" عندها ، فوقف على ذلك خادم الوليد فأنهاه إليه ، وأراه الصندوق ، فأخذه فدفنه "(٢).

وقد اعتنى كثير من المؤلفين في العصر العباسي بتأليف هذه القصص وأشباهها ، وجعلوا بعض الشعراء المعروفين أو العشاق أبطالا" لها، ونسجوا حولهم قصصا" فنية كثيرة ، سرد ابن النديم أسماء عدد كبير منها وقال في " أسماء العشاق الذين عشقوا في الجاهلية والإسلام . . . وألف أخبارهم جماعة مثل عيسى بن دأب والشرقي بن القطامي وهشام الكلبي والهيثم بن عدي وغيرهم ككتاب : مرقش وأسماء ، وجميل وبثينة ، وكثير وعزة ، ومجنون وليلى ، ووضاح وأم البنين"(٣) وغيرها كثير من هذه القصص المولدة التي خلفت في تاريخ الأدب العربي بعض الآثار .

ولم يكن النقاد بغفلة عن هذا الجانب الخطير ، فنبهوا عليه ، وحذروا من الخلط بين هذه القصص والأسمار ، والصحيح من الأخبار والأشعار ، فقال أبو الفرج الأصبهاني في صدر أخبار مجنون بني عامر التي تجري هذا المجرى : " وأنا أذكر ما وقع إلي من أخباره متبرئا": من العهدة فيها ... وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتتبع للعيوب "(٤) ، وأكد أن أخباره من القصص المولدة فقال : " إن فتى من بني مروان كان يهوى أمرأة منهم فيقول فيها الشعر وينسبه إلى المجنون ، وأنه عمل له أخبارا" وأضاف إليها ذلك الشعر ، فحمله الناس وزادوا فيه "(٥) وكرر هذا القول عدة مرات متوالية وبروايات مختلفة مؤكدا" بذلك أن معظم أخباره وأشعاره إنما تدخل في باب القصص والأسمار، وتخرج بذلك من باب الأخبار والأشعار الموثقة الصحيحة التي تعد في تاريخ الأدب والشعر ، شأنها في ذلك عنده شأن قصة "علي بن أديم ومنهلة "(٦)

---

(١) الفهرست ٣٦٥
(٢) الأغاني ٦/٢٢٤ .
(٣) الفهرست ٣٦٥ .
(٤) الأغاني ٢/١١ .
(٥) ن.م ٢/٨ وأنظر ٢/٤ وأنظر بروكلمان ١/٢٠٠ وذكر أنها طبعت ببيروت ١٨٦٨ م .
(٦) الفهرست ٣٦٦ وبروكلمان ٣/١٣٣ .

التي استمد أصولها بعض أهل الكوفة من أخبار هذا الشاعر وجعلها في كتاب مفرد صادف شهرة واسعة ، ونبه أبو الفرج على ضرورة التفريق بين الصحيح من أخباره وبين المولد الموضوع الذي ورد في هذا الكتاب وقال : " هو رجل من تجار الكوفة . . . وكان متأدبا" صالح الشعر ، يهوى جارية يقال لها منهلة ، واستهيم بها مدة ثم بيعت فمات أسفا" عليها ، وله معها حديث طويل في كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما .... وليس مما يصلح الإطالة به"(١) فاقتصر على رواية ماصح لديه من أخباره وأشعاره ولم يتعد في ذلك صفحتين فحسب .

وكان للتنافس الثقافي بين العرب والعجم في العصر العباسي أثر كبير في توليد الخرافات والأسمار ، فروى المبرد في أثناء حديثه عن تكاذيب الأعراب عن التوزي قوله : " سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب ، فقال لي: إن العجم تكذب فتقول : كان رجل ثلثه من نحاس وثلثه من رصاص وثلثه من ثلج فتعارضها العرب بهذا وما أشبهه"(٢) وقد سرد ابن النديم أسماء عدد كبير من هذه القصص الخرافية والأسمار وقال : " كانت الأسمار والخرافات مرغوبا" فيها ومشتهاة في أيام بني العباس فصنف الوراقون وكذبوا وكان ممن يفتعل ذلك رجل يعرف بابن دلان وآخر يعرف بابن العطار وجماعة "(٣) وللكذب في هذه الاقوال مفهوم يدل على توليد الأخبار والأحداث والأقوال في القصص المبتدعة ، والفرق بينها وبين الصحيح منها.

وكان لبعض الوراقين دور كبير في صنع بعض الكتب الرائجة ونحلها بعض مشاهير الكتاب تكسبا" ، ككتاب الأغاني الكبير الذي ينسب إلى إسحق الموصلي ، وقال ابن النديم " إن رجلا جاء إلى إسحق فقال : أعطني كتاب الأغاني ، فقال أيما كتاب ، الكتاب الذي صنفته أو الكتاب الذي صنف لي ؟ وحدثني أبو الفرج الأصبهاني عن محمد بن خلف وكيع قال : سمعت حماد بن إسحق يقول : ما ألف أبي هذا الكتاب قط ولا رآه . . إنما وضعه وراق كان لأبي وأخبرني جحظة البرمكي أنه يعرف الوراق الذي وضعه وكان يسمى سندي بن علي . . . وكان يورق لإسحق ، واتفق هو وشريك له على وضعه . . . وهو أحد عشر جزءا"(٤).

---

(١) الأغاني ٢٦٦/١٥ . (٢) الكامل ٢٠٤/٢ . (٣) الفهرست ٣٦٧ . (٤) ن.م ١٥٨ .

وقد يعمد بعض هؤلاء الوراقين إلى تغيير بعض الكتب أو الإضافة إليها كما فعلوا بكتاب الحيوان للجاحظ فقال ابن النديم : " والمشهور أنه سبعة أجزاء ، وأضاف إليه كتابا" أسماه : كتاب النساء . . وكتابا" آخر سماه : كتاب البغال ، ورأيت أنا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحيى وراق الجاحظ وقد أضيف إيه كتاب سموه : كتاب الإبل ، ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه"(١) وقد اعتمد ابن النديم في توثيق هذا الكتاب على النظر في أسلوبه ، ومدى مشاكلته لأسلوب الجاحظ وعلى خبرته الواسعة بحرفة الوراقة ، ومعرفته بخطوط الوراقين ، فحكم بصحة نسبة ما أضاف الجاحظ إلى كتابه ، وعدم صحة نسبة كتاب الإبل إليه.

وقد هيأت له هذه الحرفة سبل الاتصال بالمؤلفين ، والكشف عن بعض أسرارهم وخفاياهم وما يكمن وراء وضعهم للكتب ونحلها من دوافع وأسباب ، ومن أهمها الدوافع المذهبية أو السياسية فذكر أن علي بن وصيف الكاتب المعروف بخشكنانجة (نحو ٣٥٠ هـ) " ألف عدة كتب ونحلها عبدان صاحب الإسماعيلية وكان علي لي صديقا وأنيسا ، وتوفي بالموصل ، وكان يتشيع "(٢).

وإلى هذه الدوافع والأسباب عزا كثير من القدماء والمعاصرين سبب وضع أبي حيان التوحيدي حديث السقيفة وإسناده إلى بعض شيوخه وقال في صدره : " سمرنا ليلة عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروروزي (-٣٦٢هـ) ببغداد فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر لعلي بن أبي طالب وجواب علي له ، ومبايعته إياه عقب تلك المناظرة ؟ فقالت الجماعة : لا والله ، قال : هي من بنات الحقائق ، ومخبآت الخزائن في الصناديق ، ومذ حفظتها مارويتها إلا للمهلبي في وزارته ، فكتبها عنى في خلوة "(٣) ثم سرد أبو حيان جملة من الرسائل البليغة منسوبة إلى أبي بكر وعمر وعلي بوساطة أبي عبيدة بن الجراح ، وضمنها كلاما" بليغا" يجري على أسلوب واحد في الصنعة البيانية الرفيعة ، ومن المرجح أنها من وضع أبي حيان إذ لم يجد لها أحد قبله ذكرا" ، وذهب ابن أبى الحديد إلى القول " إن حديث السقيفة كله مصنوع موضوع من كلام التوحيدي...فذلك ما جرت عليه حال القوم فهم وإن لم ينطقوا بلسان المقال فقد نطقوا بلسان الحال"(٤) مشيرا بذلك إلى آثار الصراع المذهبي الذي علل على أساسه محقق هذه الرسالة سبب وضعها فقال إنه

---

(١) ن.م ٢٠٩ .
(٢) ن.م ١٥٤ .
(٣) رسالة السقيفة – ثلاث رسائل لأبن حيان ٥ .
(٤) شرح نهج البلاغة ٥٩٢/٢ . ط مصر

يرتبط بموقف أبي حيان كمعتزلي من الإمامة والتشيع . . . . والحوادث الدامية التي وقعت في زمنه بين السنة والروافض . . . والعداوة الشخصية بينه وبين ابن العميد والصاحب بن عباد ، وكان هذان الوزيران من أكابر الشيعة . . . فقصد من تأليف هذه الرسالة إغاظتها والانتقام منهما "(١) وإلى هذه الأسباب مجتمعه عزا كثير من الدارسين افتعال هذه الرسالة ونحلها (٢).

ولنحل الكتب والرسائل والنصوص أبواب خفية دل عليها بعض المؤلفين والنقاد ، إذ كان بعض كبراء العصر يحبون أن يتحلوا بالانتساب إلى الأدب والكتابة ، أو أن يتكثروا منها ، فتؤلف لهم الكتب وتنسب إليهم ، فذكر ابن النديم أن " للفتح بن خاقان (-٢٤٧هـ) كتاب البستان منسوب إليه ، والذي ألفه له رجل يعرف بمحمد بن عبد ربه ويلقب برأس البغل "(٣) وقد يعول بعض المؤلفين على كتب غيرهم فينقلون أكثرها ، وتنسب إليهم ، فقال ابن النديم في أثناء حديثه عن كتاب الأوراق للصولي (-٣٣٥ هـ) إنه " عول في تأليفه على كتاب المرثدي في الشعر والشعراء ، بل نقله نقلا وانتحله ، وقد رأيت دستور الرجل خرج من خزانة الصولي فافتضح به"(٤) كما ذكر ابن المعتز أن سعيد بن حميد الكاتب (-٢٥٠هـ) صاحب فضل الشاعرة جارية المتوكل كان يقول : "مارسائلي المدونة عند الناس إلا من إنشائها "(٥).

على أن أطرف أساليب النحل في ذلك العصر أن يعمد الكاتب إلى تأليف كتاب ثم ينسبه إلى غيره تجنبا" لحسد معاصريه كما كان يفعل الجاحظ ويقول : " إني ربما ألفت الكتاب المحكم والمتقن وأنسبه إلى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه ، فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم لاستنساخه وقراءته علي...ولربما خرج الكتاب من يدي مصحفا" كأنه متن حجر أملس... فأخاف عليه حسد الحاسدين إن أنا نسبته إلى نفسي ، فأظهره مبهما"

---

(١) رسالة السقيفة - ثلاث رسائل لأبي حيان - المقدمة .
(٢) أنظر مثلا النثر الفني ٣٤٧/١ ومقدمة محقق البخلاء ٤٦ ومقدمة محقق المقابسات ٤٠ .
(٣) الفهرست ١٣٠ .
(٤) ن.م ١٦٨ وكرر ذلك في ترجمة المرتدي أحمد بن بشر الكاتب ص ١٤٣ فقال : " وله كتاب أشعار ٢قريش ، وعليه عول الصولي في الأوراق وله انتحل ، ورأيت الدستور بخط المرثدي " وما وصل إلينا من أوراق الصولي لا يدل على ذلك ، إذ كان أكثر تعويله في أخبار الراضي وأشعار أولاد الخلفاء وأخبار الشعراء المحدثين على ما روى عن نفسه مباشرة أو عن بعض شيوخه . ولعل في الأجزاء المفقودة ما يؤيد رأي ابن النديم .
(٥) طبقات الشعراء المحدثين ٤٢٦ وانظر الأغاني ١٦٧/١٨ . والإماء الشواعر ٦٦ .

غفلا" من أعراض أصول الكتب التي لا يعرف وضاعها ، فينهالون عليه ، ويستبقون إلى قراءته "(١).

بيد أنه مع ذلك كان شديد الحرص على صون كتبه من آثار العبث والتزيد والتغيير فيتخذ لذلك أسباب الحيطة والحذر كما فعل بكتاب المغنين وقال في خاتمته :" فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك ، خطر ببالنا كثرة العابثين . . . فلم نأمن أن يسرعوا بسفه رأيهم ، وخفة أحلامهم إلى نقض كتابنا وتبديله وتحريفه ... فأحببنا أن نأخذ في ذلك بالحزم ، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمه كتابنا ، ونبادر إلى تفريق نسخه وتصييرها في أيدي الثقات . . . فإن شيب به شوب يخالفه ، وأضيف إليه مالا يلائمه ، رجعنا إلى النسخ المنصوبة ، والأصول المخلدة عند ذوي الأمانة والثقة ، واقتصرنا عليها ، واستعلينا بها على المبطلين ، ورفعنا بها أدغال المدغلين وتحريف المحرفين ، وتزيد المتزيدين "(٢).

وذلك أسلوب فريد من أساليب توثيق المؤلفات والكتب ، وحفظ حقوق مؤلفيها ، قد يكون الجاحظ من أسبق المؤلفين إلى التنبه عليه ، كما كان من أسبق النقاد إلى التنبه على كثير من القواعد التوثيقية المهمة وتطبيقها تطبيقا" واسعا" في ميدان توثيق النصوص النثرية وما يتصل بها من أخبار ، وشاركه في ذلك عدد كبير من النقاد الذين أسهموا في توثيق هذه النصوص ، والكشف عن الدوافع الكامنة وراء نحلها واختلاطها وتغييرها ، فصححوا بذلك عددا" كبيرا" منها ، معتمدين في ذلك على جملة من القواعد التوثيقية التي تتصل بالنقد الخارجي: كنقد الأسانيد والرواة والنظر في ظروف النص وبيئته ، أو النقد الداخلي : كنقد المعاني والأساليب والمذاهب الفنية وغير ذلك من أساليب النقد التوثيقي وقواعده التي طبقوها على الشعر والنثر ، ولم يكن اهتمامهم في ذلك منصبا على الشعر وحده كما ذهب إلى ذلك بعض الدارسين(٣) ، وإن كنا نعتقد أن مجال توثيق النصوص النثرية أضيق مدخلا" وأعسر متناولا" من النصوص الشعرية ، فبدت آثار ذلك واضحة في كثير من الكتب التي تشتمل على بعض النصوص التي تبدو فيها آثار النحل والافتعال والتزيد والتغيير والاختلاط ، على الرغم مما صرف النقاد في توثيق كثير منها من جهود .

---

(١) رسائل الجاحظ ١/٣٥٠-٣٥١ .
(٢) فصل من كتاب طبقات المغنين – مجلة المورد – مج ٧ – ع٤ – س ١٩٧٨ ص ١٦١ .
(٣) تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ٣٣١ وانظر النثر الفني ١/٤٢ و٦٢

مسرد المصادر والمراجع

- أبو هلال العسكري ومقاييسه النقدية والبلاغية : د . بدوي طبانة - ط٣ بيروت - ١٩٨١ .
- أحكام صنعة الكلام : للكلاعي محمد بن عبد الغفور (-٥٤٣هـ) تحقيق د. رضوان الداية - بيروت - ١٩٦٦ .
- أخبار أبي تمام : لأبي بكر الصولي (-٣٣٥هـ) - تحقيق عساكر وعزام - المكتب التجاري - بيروت - د.ت
- أخبار الراضي لأبي بكر الصولي (-٣٣٥هـ) - تحقيق هيورث دن - ط٣ - بيروت - ١٩٨٢ .
- أخبار الشعراء المحدثين : لأبي بكر الصولي (-٣٣٥هـ) - تحقيق هيورث دن ط٣ - بيروت - ١٩٨٢ .
- أخبارعبيد بن شرية الجرهمي (-نحو٦٧ هـ) نيل كتاب التيجان لوهب بن منبه (-١١٠هـ) -ط٢ - صنعاء- ١٩٧٩ .
- أخلاق الوزيرين : لأبي حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠هـ) - تحقيق بنتاويت - ط١ - دمشق - ١٩٦٥ .
- أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام : بطرس البستاني - ط ٦ - بيروت - ١٩٥٢.
- الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة : لابن المقفع (-١٤١هـ) - بعناية يوسف أبي حلقة - ط ٣ - بيروت - ١٩٦٤ .
- أدب الكاتب : لابن قتيبة (-٢٧٦هـ) - تحقيق محي الدين - ط٤ - مصر - ١٩٦٤ .
- أدب الكتاب : لأبي بكر الصولي (-٣٣٥هـ) - تحقيق محمد بهجت الأثري - ط ١ - القاهرة ١٣٤١ هـ .
- أسس النقد الأدبي : د . أحمد بدوي - ط ٣ - مصر - ١٩٦٤ .
- أشعار أولاد الخلفاء : لأبي بكر الصولي (-٣٣٥هـ) - تحقيق هيورث د ن - ط ٣ - بيروت - ١٩٨٢ .
- إصلاح المنطق : لابن السكيت (-٢٤٤هـ) - تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون - ط٢ مصر ١٩٥٦ .
- إعجاز القرآن : للباقلاني (-٤٠٣هـ) - تحقيق السيد أحمد صقر - ط ٣ - القاهرة .
- الأغاني : لأبي الفرج الأصبهاني (بعد٣٦٢هـ) - ط دار الكتب الكاملة - مصورة - دار جمال - بيروت .
- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب : لابن السيد البطليوسي (-٥٢١هـ) - مصورة - دار الجيل - بيروت ١٩٨٧ .
- الألفاظ : محمد بن سهل المرزبان (بعد٣٠٠هـ) - مخطوط الظاهرية بدمشق ١٨٦٠٠ (ونقل إلى مكتبة الأسد).
- الألفاظ الكتابية : للهمذاني عبد الرحمن (-٣٢٠هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٠ .
- الإماء الشواعر : لأبي الفرج الأصبهاني (بعد٣٦٢هـ) - تحقيق القيسي والسامرائي - ط١ بيروت ١٩٨٤ .
- الأمالي : لأبي علي القالي (-٣٥٦هـ) - مصورة دار الكتاب اللبناني ببيروت - عن ط١ - دار الكتب المصرية ١٩٢٥ .

- أمالي الشريف المرتضي (-٤٣٦هـ) غرر الفوائد - تحقيق أبي الفضل ابراهيم - مصر ١٩٥٤ .
- الإمتاع والمؤانسة : لأبي حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠هـ) - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين - مصورة بيروت .
- أمراء البيان : لمحمد كرد علي - ط٣ - بيروت - ١٩٦٩ .
- الانتصار والرد على ابن الراوندي : لعبد الرحيم الخياط (-٣٠٠هـ) - تحقيق نيبرج - بيروت - ١٩٨٦ .
- الأنواع الأدبية : شفيق البقاعي - ط١ - بيروت - ١٩٨٥ .
- الأوائل : لأبي بكر الحنبلي (-٨٨٣هـ) - مخطوط برلين - ضمن مجموع برقم ٩٣٦٨ - ورقة ٩٧/ أ - ١١٥ ب .
- الأوائل : لأبي هلال العسكري (-٣٩٥هـ) - تحقيق المصري وقصاب - وزارة الثقافة - دمشق .
- البخلاء : للجاحظ عمرو بن بحر (-٢٥٥هـ) - تحقيق طه الحاجري - القاهرة - ١٩٦٣.
- البداية والنهاية : لأبي الفدا إسماعيل بن عمر (-٧٧٤هـ) - تحقيق أبي ملحم وجماعة - ط١ بيروت ١٩٨٥ .
- البديع : لابن المعتز (-٢٩٦هـ) - تحقيق كراتشكوفسكي - ط٣ - بيروت - ١٩٨٢ .
- البرهان في وجوه البيان : لاسحق بن وهب (نحو ٣٥٠هـ) - تحقيق د . حفني شرف - ط١ مصر ١٩٦٩ . وتحقيق د. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي - ط١ - بغداد ١٩٦٧ .
- البصائر والذخائر : لأبي حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠هـ) - تحقيق د. ابراهيم كيلاني - ط١ - دمشق - ١٩٦٤ .
- بغية الملتمس : للضبي أحمد بن يحيى (-٥٩٩ هـ) - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٦٧ .
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي (-٩١١ هـ) تحقيق أبي الفضل إبراهيم - القاهرة - ١٩٦٤ .
- بلاغات النساء : لأحمد بن أبي طاهر طيفور (-٢٨٠ هـ) - تحقيق أحمد الألفي - ط١ - مصر - ١٩٠٨ .
- البلاغة تطور وتاريخ : د. شوقي ضيف - مصر - ١٩٦٥ .
- البلاغة العربية في دور نشأتها : د. سيد نوفل - ط١ - مصر ١٩٤٨.
- بلاغة الكتاب في العصر العباسي : د. محمد نبيه حجاب - ط١ مصر - ١٩٦٥ .
- البيان العربي : د. بدوي طبانة - بيروت - ١٩٧٩ .
- البيان والتبيين : للجاحظ عمرو بن بحر (-٢٥٥هـ) - تحقيق عبد السلام هارون - مصورة دار الجيل بيروت .
- تأويل مختلف الحديث : لابن قتيبة (-٢٧٦هـ) - تحقيق اسماعيل الخطيب - بيروت - وتحقيق النجار - القاهرة ١٩٦٦ .
- تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة (-٢٧٦هـ) تحقيق السيد أحمد صقر - ط٣ - بيروت - ١٩٨١ .
- تاريخ الآداب العربية حتى عصر بني أمية : نالينو - ط٢ - دار المعارف بمصر - ١٩٧٠ .
- تاريخ الأدب العربي : بروكلمان - ترجمة د. النجار - ط٤ - مصر - ١٩٧١ .

- تاريخ الأدب العربي : بلاشير - ترجمة د. ابراهيم الكيلاني - ط١ - دمشق - ١٩٧٣ .
- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي (-٤٦٣هـ) - ط١ - مصر - ١٩٣١ .
- تاريخ التراث العربي : د. محمد فؤاد سزكين - ترجمة د. محمود حجازي - ط١ - الرياض - ١٩٨٣ .
- تاريخ الترسل النثري في الجاهلية وصدر الإسلام : د. محمود مقداد - ط١- دار الفكر - دمشق - ١٩٩٣ .
- تاريخ حكماء الإسلام : للبيهقي ظهير الدين (-٥٦٥هـ) تحقيق محمد كرد علي - مصورة عن ط١ - دمشق ١٩٨٨ .
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) : لمحمد بن جرير (-٣٢٠هـ) - تحقيق أبي الفضل إبراهيم - مصر - ١٩٧٣ .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب : د. إحسان عباس - ط١ -بيروت- ١٩٧١ .
- تاريخ النقد العربي : د. محمد زغلول سلام - ط١ - مصر - ١٩٦٤.
- تجارب الأمم : لمسكوية أحمد بن محمد (-٤٢١هـ) تحقيق د. أبي القاسم إمامي - بيروت .
- التربيع والتدوير : للجاحظ عمرو بن بحر (-٢٥٥هـ) تحقيق شارل بيلا - دمشق - ١٩٥٥
- تطور الأساليب النثرية : لأنيس المقدسي - ط٣ - بيروت - ١٩٦٥ .
- تلخيص الخطابة لأرسطو : لابن رشد (-٥٩٥هـ) تحقيق د. عبد الرحمن بدوي - بيروت .
- تلخيص كتاب الشعر لأرسطو : لابن رشد - بتحقيق د. محمد سليم سالم - مصر - ١٩٧٦ .
- التلخيص في علوم البلاغة : للقزويني - ذيل كتاب صناعة الكتابة : د. أسعد علي وإلك - ط٢ بيروت ١٩٨٥.
- التنبيه والإشراف : للمسعودي علي بن الحسين (-٣٤٥هـ) - ط٢ - مصر - ١٩٧٦ .
- تهذيب اللغة : للأزهري محمد بن أحمد (-٣٧٠هـ) - تحقيق عبد السلام هارون وجماعة - مصر - ١٩٦٤ .
- ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي (-نحو٤٠٠هـ) - تحقيق د. إبراهيم الكيلاني - ط١ - دمشق - ١٩٥١ .
- ثلاث رسائل للجاحظ : يوشع فنكل - ط١ - السلفية - مصر - ١٣٨٢ هـ .
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : تحقيق د. خلف الله وسلام - ط٢ - مصر - ١٩٦٧ .
- جذوة المقتبس : للحميدي (-٤٨٨هـ) - الدار المصرية للترجمة والتأليف - القاهرة - ١٩٦٦ .
- الجليس والأنيس (أمالي المعافي بن زكريا -٣٩٠هـ) - مخطوط الظاهرية - أدب - ٣٢٠١ والمطبوع منه بعنوان : الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي - تحقيق محمد مرسي الخولي - بيروت ١٩٨١ .
- جمهرة رسائل العرب : أحمد زكي صفوت - ط١ - مصر - ١٩٣٧ .
- جمهرة اللغة : لابن دريد (-٣٢٠هـ) - ط١ حيدر أباد - ١٣٥١ هـ - مصورة دار المثني بغداد .
- جواهر الألفاظ : لقدامة بن جعفر (-٣٣٧هـ) - تحقيق محي الدين - مصورة - بيروت ١٩٧٩ .

- حلية المحاضرة في صناعة الشعر : للحاتمي محمد بن الحسن (-٣٨٨ هـ) - تحقيق د. جعفر الكتاني - ط١ بغداد ١٩٧٥ .
- الحيوان : للجاحظ عمرو بن بحر (-٢٥٥هـ) - تحقيق عبد السلام هارون - ط٣ - مصر - ١٩٦٥ مصورة - بيروت .
- الخراج وصناعة الكتابة : لقدامة بن جعفر (-٣٣٧هـ) - تحقيق محمد الزبيدي - بغداد - ١٩٨١.
- الخطابة : لأرسطو (- ق . م٣٢٢) الترجمة العربية القديمة - تحقيق د. عبد الرحمن بدوي بيروت ١٩٧٩ وترجمة د. عبد الرحمن بدوي - ط١ - بغداد - ١٩٨٠.
- دراسات في الأدب العربي : غوستاف غرنباوم - ترجمة د. إحسان عباس وجماعة - ط١ بيروت ١٩٥٨ .
- دراسات في نقد الأدب العربي : د. بدوي طبانة - ط٤ - مصر ١٩٦٥
- دلائل الإعجاز : لعبد القاهر الجرجاني (-٤٧١هـ) - تحقيق محمد رشيد رضا - ط١ - القاهرة - ١٣٧٢ هـ .
- ديوان الأدب : للفارابي إسحق بن إبراهيم (-٣٥٠هـ) - تحقيق د. أحمد مختار - ط١ - مصر - ١٩٧٤.
- ديوان أبي تمام بشرح التبريزي : تحقيق عبده عزام - ط٢ - دار المعارف بمصر - ١٩٧٠.
- ديوان امرئ القيس : تحقيق أبي الفضل إبراهيم - ط١ مصر - ١٩٦٩.
- ديوان حاتم الطائي : بيروت - ١٩٧٤ .
- ديوان حسان بن ثابت : ضبط وشرح عبد الرحمن البرقوقي - بيروت - ١٩٨٠.
- ديوان طرفة بن العبد : تحقيق علي الجندي - مصر - ١٩٥٨.
- ديوان كعب بن زهير - شرح السكري - ط١ - دار الكتب المصرية - ١٩٥٠.
- ديوان المعاني : لأبي هلال العسكري (-٣٩٥هـ) - ط مكتبة القدسي - القاهرة - ١٣٥٢ هـ
- رسائل الإنتقاد : لابن شرف القيرواني (-٤٦٠هـ) - تحقيق حسن حسني عبد الوهاب - ط١ - بيروت - ١٩٨٣ .
- رسائل الجاحظ (-٢٥٥هـ) : تحقيق عبد السلام هارون - ط١ - مصر - ١٩٦٤ .
- رسائل الهمذاني بديع الزمان (-٣٩٨هـ) - ط١ - الجوائب - ١٢٩٨ هـ .
- الرسالة الحاتمية فيما وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو : للحاتمي (-٣٨٨هـ) - تحقيق د. فؤاد البستاني ط١ بيروت .
- الرسالة العذراء : لإبراهيم بن المدبر (-٢٦٩هـ) - تحقيق د. زكي مبارك - ط١ - القاهرة ١٩٣١ .
- الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي : للحاتمي (-٣٨٨هـ) - تحقيق د. يوسف نجم - ط١ - بيروت ١٩٦٥ .
- روضة الفصاحة:للرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر - مخطوط الظاهرية ٤٢٧٦.
- زهر الآداب : للحصري القيرواني (-٤٥٣هـ) - تحقيق د. زكي مبارك ومراجعة محي الدين - ط٣ - بيروت - ١٩٧٢ .
- سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجي (-٤٦٦هـ) - تحقيق علي فودة - مصر - ١٩٣٢.
- سرقات أبي نواس : لمهلهل بن يموت (-٣٣٤هـ) تحقيق د. مصطفى هدارة - ط١ - مصر - ١٩٧٥ .

- السرقات الأدبية : د. بدوي طبانة – ط٣ – بيروت – ١٩٧٤ .
- شذرات الذهب في أخبار في ذهب : لابن العماد الحنبلي (–١٠٨٩هـ) – مصورة دار الآفاق ببيروت – عن ط١ مصر ١٩٥٠ .
- شرح أدب الكاتب : للجواليقي موهوب بن أحمد – مكتبة القدسي– القاهرة– ١٣٥٠ هـ.
- شرح ديوان الفرزدق : باعتناء د. إيليا حاوي – ط١ – بيروت – ١٩٨٣.
- شرح الفارابي لكتاب أرسطاطاليس في العبارة : تحقيق ولهام كوتش ومارو – ط٢ – بيروت – ١٩٨٦ .
- شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي – تحقيق د. فخر الدين قباوة – ط٤ – بيروت – ١٩٨٠ .
- شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد (–٦٥٦هـ) – تحقيق حسين تميم – بيروت – ١٩٧٤ .
- الشفا : لابن سينا (–٤٢٨هـ) ، الجزء الثاني – الخطابة – تحقيق محمد سليم سالم – والشعر : تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ط١ – القاهرة – ١٩٥٤ .
- صبح الأعشى للقلقشندي أحمد بن علي (–٨٣١هـ) – مصورة عن ط١ – دار الكتب المصرية – ١٩٦٣ . وتحقيق د. يوسف الطويل – ط١ – بيروت – ١٩٨٧ .
- صحيح البخاري محمد بن إسماعيل (–٢٥٦هـ) – ط١ – المطبعة الخيرية – مصر – ١٣٠٤ هـ .
- صحيح مسلم بن الحجاج (–٢٦١هـ) ط١ دار الكتب المصرية – ١٣٢٩ هـ . وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – ط١ – مصر – ١٩٥٥ (مصورة دار إحياء التراث – بيروت).
- الصداقة والصديق : لأبي حيان التوحيدي (نحو٤٠٠هـ) – تحقيق د. إبراهيم كيلاني ط١ – دمشق .
- صناعة الكتاب : لأبي جعفر النحاس (–٣٣٨هـ) – تحقيق د. أحمد بدر ضيف – ط١ مصر – ١٩٩٠ .
- صناعة الكتابة : د. أسعد علي وفكتور إليك – ط٥ – بيروت – ١٩٨٥ .
- طبقات فحول الشعراء : لابن سلام الجمحي (–٢٣٢هـ) – تحقيق محمود شاكر – القاهرة – ١٩٧٤ .
- العصر الإسلامي : د. شوقي ضيف – ط٧ – مصر – ١٩٧٦ .
- العصر الجاهلي : د . شوقي ضيف – دار المعارف – مصر – ط٧ – ١٩٧٧ .
- العصر العباسي ١ – ٢ : د . شوقي ضيف – دار المعارف – مصر .
- العقد الفريد : لابن عبد ربه الأندلسي (–٣٢٨هـ) – تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين – مصر ١٩٦٥ .
- العمدة في صناعة الشعر ونقده : لابن رشيق القيرواني (–٤٥٦هـ) – تحقيق محمد قرقزان – ط١ بيروت ١٩٨٨ .
- عيار الشعر : لابن طباطبا العلوي (–٣٢٢هـ) تحقيق الحاجري وسلام – مصر ١٩٥٦.
- عيون الأخبار : لابن قتيبة (–٢٧٦هـ) مصورة عن ط٧ – دار الكتب – مصر – ١٩٦٣.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (–٣٦٨هـ) – تحقيق د. نزار رضا – بيروت ١٩٦٥ .
- غرر البلاغة : هلال بن المحسن الصابي (–٤٢٥هـ) تحقيق أسعد ذبيان – بيروت – ١٩٨٣ .
- فحولة الشعراء : للأصمعي (–٢١٦هـ) – تحقيق توري – ط١ – بيروت – ١٩٧١ .

- فصول في النقد العربي وقضاياه : محمد خير شيخ موسى - ط١ دار الثقافة - الدار البيضاء - ١٩٨٣ .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي : د. شوقي ضيف - ط٤ - مصر - ١٩٦٥ .
- الفهرست : لابن النديم (نحو٤٠٠هـ) - تحقيق د. رضا تجدد - ط٢ - طهران - ١٩٧٣.
- فوات الوفيات : لابن شاكر الكتبي (-٧٦٤هـ) تحقيق د . إحسان عباس - بيروت - ١٩٧٤
- في الأدب الجاهلي : د. طه حسين - ط٤ - مصر - ١٩٢٧ .
- في الشعر : لأرسطو (-٣٢٢ ق.م) - ترجمة د. عبد الرحمن بدوي - ط١ - بيروت - ١٩٧٣ (مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد) .
- القاموس المحيط : للفيروز أبادي محمد بن يعقوب (-٨١٧هـ) ط١ - مصر - ١٩١٣ .
- قانون البلاغة : لمحمد بن حيدر البغدادي (-٥٨٧هـ) - مخطوط الظاهرية (ونقل إلى الأسد) بدمشق - ضمن مجموع - رقم ٣٥٥٧ من الورقة ٦٢ - ١٦٢ .
- قصة الإسكندر : لمؤلف مجهول - مخطوط الظاهرية بدمشق - رقم ١٠٢٥٢ .
- قواعد الشعر : لثعلب أحمد بن يحيى (٢٩١هـ) - تحقيق د. رمضان عبد التواب - مصر - ١٩٦٦ .
- الكامل : للمبرد (-٢٨٥هـ) - تحقيق أبي الفضل وشحاتة - مصر - ١٩٥٦ .
- كتاب بغداد : لأحمد بن أبي طاهر طيفور (-٢٨٠هـ) - تحقيق زاهد الكوثري - ط١ - مصر - ١٩٤٩ .
- كتاب أرسطوطاليس في الشعر : نقل متى بن يونس (-٣٢٨هـ) تحقيق د. شكري عياد - ط١ - مصر - ١٩٦٧ .
- كتاب الصناعتين : لأبي هلال العسكري (-٣٩٥هـ) - تحقيق أبي الفضل إبراهيم والبجاوي - ط٢ - مصر - ١٩٧١ .
- كتاب العثمانية : للجاحظ عمرو بن بحر (-٢٥٥هـ) - تحقيق عبد السلام هارون - ط١ - مصر - ١٩٥٥ .
- كتاب الكتاب : لابن درستويه عبد الله بن جعفر (-٣٤٧هـ) تحقيق لويس شيخو - ط١ بيروت ١٩٧٤ - وتحقيق السامرائي والفتلي - ط١ - الكويت ١٩٧٧ .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : حاجي خليفة (-١٠٦٧هـ) مصورة مكتبة المثنى ببغداد (مع ذيوله) .
- كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان : لابن دوست عبد الرحمن بن محمد (٤٣١هـ) تحقيق إبراهيم الأحدب بيروت - د . ت .
- كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب : لابن الأثير (-٦٣٧ هـ) - تحقيق نوري القيسي وهلال ناجي - الموصل - ١٩٨٢ .
- كمال البلاغة : لليزدادي عبد الرحمن بن علي (بعد٤٠٣هـ) - مخطوط الظاهرية بدمشق (ثم مكتبة الاسد) أدب - رقم ٦٧١٧ - والمطبوع بتحقيق محب الدين الخطيب - ط١ مصر ١٣٤١ هـ .
- الكندي فيلسوف العرب : د. أحمد فؤاد الأهواني - ط١ - مصر ١٩٦٤ (أعلام العرب ٢٦)
- كنوز الأجداد : محمد كرد علي - ط٢ دمشق - دار الفكر - ١٩٨٤ .
- لسان العرب : ابن منظور محمد بن مكرم (-٧١١هـ) - ط١ دار صادر - بيروت .

- لسان الميزان : لابن حجر العسقلاني (-٨٥٢هـ) - مؤسسة الأعلمي بيروت (مصورة)
- لطائف المعارف : للثعالبي (-٤٢٩هـ) تحقيق الأبياري وحسن الصيرفي - ط١ - مصر - ١٩٦٠.
- اللغة والإبداع : د. شكري عياد - ط١ - مصر - ١٩٨٨.
- - متخير الألفاظ : لأحمد بن فارس (-٣٩٥هـ) تحقيق هلال ناجي - ط١ بغداد - ١٩٧٠.
- مثالب الوزيرين : لأبي حيان التوحيدي (نحو٤٠٠هـ) تحقيق د. إبراهيم كيلاني - دار الفكر بيروت.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر : لابن الأثير (-٦٣٧هـ) تحقيق محي الدين - ط١ - مصر - ١٩٣٩.
- المجتنى : لابن دريد (-٣٢٠هـ) تحقيق هاشم الندوي - ط٢ - دار الفكر - دمشق ١٩٨٢ (مصورة عن ط١ - ١٣٤٢)
- مجمع البلاغة : للراغب الأصبهاني (-٥٢٠هـ) - تحقيق - د. عمر الساريسي - ط١ - عمان - ١٩٨٩.
- مجموعة الحضارة الإسلامية - كتاب النقد والبلاغة : د. شكري عياد - مج ٣ - ط١ - ببيروت ١٩٨٧.
- المحاسن والأضداد : للجاحظ (-٢٥٥هـ) - تحقيق فوزي عطوي - بيروت - ١٩٦٩ .
- محاضرات الأدباء : للراغب الأصبهاني (-٥٠٢هـ) - مصورة دار مكتبة الحياة - بيروت د.ت.
- المحبر : لمحمد بن حبيب (-٢٤٥هـ) - تحقيق د. شتراين وحميد الله خان - ط١ - حيدر أباد - ١٣٦١ هـ.
- مختار الشعر الجاهلي : للأعلم الشنتمري (-٤٧٦هـ) - تحقيق مصطفى السقا - ط٢ - مصر - ١٩٤٨.
- مختصر تهذيب الألفاظ ، ليعقوب بن السكيت (-٢٤٤هـ) : لويس شيخو - بيروت ١٨٩٧ م
- المرشد الى فهم أشعار العرب : د. عبد الله الطيب - ط١ - بيروت - ١٩٧٠ .
- مروج الذهب : للمسعودي (-٣٤٥هـ) - تحقيق محي الدين - ط٣ - مصر - ١٩٥٨ .
- مصادر الشعر الجاهلي : د. ناصر الدين أسد - ط٣ - مصر - ١٩٦٦ .
- مصادر نهج البلاغة وأسانيده : عبد الزهراء الحسيني - ط٣ - بيروت - ١٩٨٥ .
- المصون في الأدب : لأبي أحمد العسكري (-٣٨٢هـ) - تحقيق عبد السلام هارون - ط٢ - الكويت ١٩٨٤ -
- المعارف : لابن قتيبة (-٢٧٦هـ) - تحقيق ثروت عكاشة - ط١ - القاهرة - ١٩٦٠ .
- معجم الأدباء : ياقوت الحموي (-٦٢٦هـ) - تحقيق فريد الرفاعي - دار المأمون - مصر ١٩٣٨ (ومرجليوث بالنص) .
- معجم الشعراء : للمرزباني محمد بن عمران (-٣٨٤هـ) - تحقيق كرنكو - مصورة - بيروت - ١٩٨٣ .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي - ط٣ - مصر - ١٩٩١.
- المقابسات : لأبي حيان التوحيدي (نحو٤٠٠هـ) - تحقيق حسن السندوبي - ط١ - مصر - ١٩٢٩.

- مقاتل الطالبيين : لأبي الفرج الأصبهاني (بعد٣٦٢هـ) - تحقيق أحمد صقر - القاهرة - ١٩٤٨ .
- مقاييس اللغة : لأحمد بن فارس (-٣٥٩هـ) - تحقيق عبد السلام هارون - دمشق - دار الفكر ١٩٧٩ .
- مقدمة ابن خلدون (-٨٠٨هـ) - ط دار الكتاب اللبناني - بيروت - ١٩٦٠ .
- مناهج النقد الأدبي : دفيدريتش - ترجمة د. محمد يوسف نجم - ط١ - بيروت ١٩٦٧.
- من حديث الشعر والنثر : د. طه حسين - ط١٠ - مصر - ١٩٦٩ .
- المنصف في نقد الشعر وسرقات المتنبي : لابن وكيع (-٣٩٣هـ) - تحقيق د. رضوان الداية - دمشق - ١٩٨٢ .
- مواد البيان : علي بن خلف (بعد٤٣٧هـ) - تحقيق د. حسين عبد اللطيف - ط١ - ليبيا - ١٩٨٢.
- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري : للأمدي الحسن بن بشر (-٣٧٠هـ) - تحقيق السيد صقر - ط٢ مصر ١٩٧٢
- موسوعة المصطلح النقدي : ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة - ط ١ -بيروت - د.ت.
- الموشح : للمرزباني محمد بن عمران (-٣٤٨هـ) تحقيق البجاوي - ط٢ - مصر ١٩٦٥.
- نثر الدر : للوزير الآبي منصور بن الحسين (-٤٢١هـ) - تحقيق على قرنة والبجاوي - مصر - ١٣٨١ هـ .
- النثر الفني في القرن الرابع : د. زكي مبارك - مصورة دار الجيل - بيروت - د.ت .
- نشأة الكتابة الفنية : د. حسين نصار - ط١ - مصر - ١٩٤٩ .
- نظرية الأنواع الأدبية في النقد العربي : د. محمد خير شيخ موسى - ط١ - دار الترجمة - الكويت - ١٩٩٥ .
- نقد النثر المنسوب إلى قدامة بن جعفر (-٣٣٧هـ) - تحقيق عبد الحميد العبادي - ط١ - مصر - ١٩٣٣ .
- نهج البلاغة : للشريف الرضي (-٤٠٦هـ) - تحقيق محمد عبده - ط١ - مصر (مصورة - بيروت) .
- الوزراء والكتاب : للجهشياري محمد بن عبد عبدوس (-٣٣١هـ) - تحقيق عبد الله الصاوي - ط مصر ١٩٣٨ .
- الوساطة بين المتنبي وخصومه : للقاضي على بن عبد العزيز الجرجاني (-٣٩٢هـ) - تحقيق البجاوي وأبي الفضل - ط٣ - مصر .
- وفيات الأعيان : لابن خاكان (-٦٨١هـ) - تحقيق د. إحسان عباس - بيروت ١٩٧١ .
- يتيمة الدهر : للثعالبي (-٤٢٩هـ) - تحقيق محي الدين عبد الحميد - ط٢ - مصر - ١٩٧٣.

المجلات والدوريات :

- مجلة التراث العربي : دمشق - ع ٥ و ٦ - س ١٩٨١ وع ٧ - س ١٩٨٢- و ع ١٨ س ١٩٨٥ .
- مجلة جامعة دمشق : الأعداد ٢٥ - ٣٠ - سنة ١٩٩١ - ١٩٩٢ .
- مجلة علامات في النقد الأدبي : جدة - مج ٣ - ج ١٠ - س ١٩٩٣.
- مجلة فصول في النقد الأدبي : القاهرة - مج ٦ - ع١ س ١٩٨٥ و ع٢ س ١٩٨٦ .
- مجلة عالم الفكر - الكويت - مج ١٤ - ع٣ - س ١٩٧٠ ومج ١٥-ع١- س١٩٨٤.
- مجلة المورد - بغداد - مج ٧ - ع ٤ - س ١٩٧٨ .

فهرس الموضوعات

الموضوع : **الصفحة**


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



مطبعة الفيصل
ت : ٢٤٤٦٧٤٠ - ٢٤٤٦٨٣٨